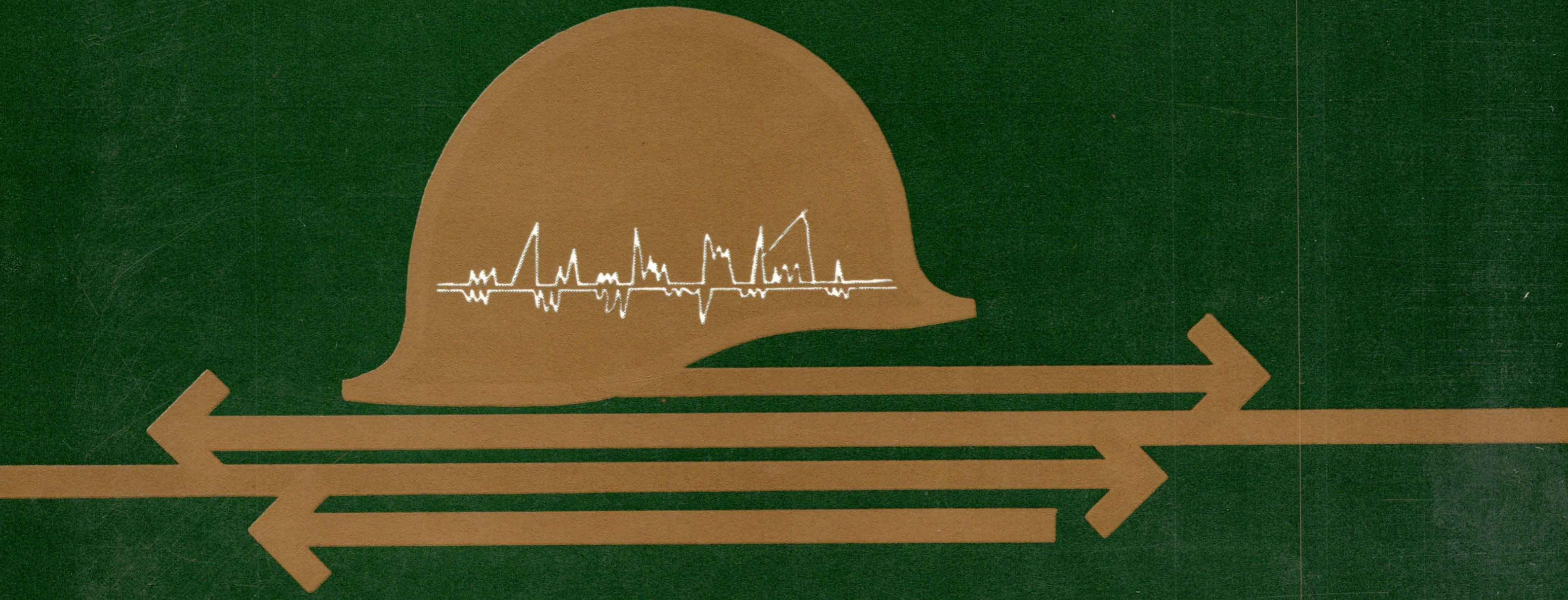
المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

نظرية الانتفاضة

تأليف : إميليو لوسو
ترجمة : جوزيف عبدالله
مراجعة : اللواء سعيد طيّان



نظرية الانتفاضة

صدر هذا الكتاب باللغة الفرنسية تحت عنوان

Théorie de l'insurrection

Par

Émilio Lussu

Traduit de l'italien par

Alice Théron

المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر

بناية برج الكارلتون - ساقية الجنزير - ت ٨٠٧٩٠٠/١

برقياً - موكيالي - بيروت - ص.ب: ١١/٥٤٦٠ بيروت

الطبعة الأولى ١٩٨٤

نظرية الانتفاضة

تأليف: إميليو لوسو
ترجمة: جوزيف عبدالله
مراجعة: اللواء سعيد طيّان

المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

مقدمة الطبعة الايطالية

نُشر هذا البحث، الذي كُتب في مصح سويسري في فرنسا عام ١٩٣٦، قبيل قليل من الحرب الأهلية الاسبانية.

وتساءلت قبل الشروع بإعادة طبعه في ايطاليا، في ظل نظام الديمقراطية الجمهورية فيما إذا كان يتوجب عليَّ المحافظة على نصه الأصلي دون تغيير، أو تعديله على ضوء أحداث الأعوام الخمسة عشر الأخيرة.

ومع انني كنت في ذلك الحين أمام وفرة من الوثائق - وهي وثائق كانت تجمعت باللغة الايطالية، وكذلك بالفرنسية والاسبانية والبرتغالية والانكليزية والالمانية - فمن الواضح أنه لو كان عليَّ أن أراجع هذا البحث لأحدثت فيه كثيراً من التصحيحات والاضافات، وذلك بفضل تجربتي التي اتسعت أكثر، وتكويني الايديولوجي الذي صار أكثر نضجاً. غير أنه يبدو لي أن هذه التصحيحات والاضافات، فضلاً عن انها لن تؤثر بشكل حاسم على خطوط الكتاب الجوهرية وعلى موقعه، قد تنزع عنه صفته كوثيقة أمينة وشهادة عن مرحلة تاريخية هامة، وهي صفة يتطلب الكتاب، بالعكس، المحافظة عليها بوصفها مساهمة أصيلة في الثقافة السياسية.

ولذلك فضلت ألا أغيّر شيئاً في هذه الطبعة، لا في النص ولا في الملاحظات. ولا حتى في بعض التعليقات الساخرة المتعلقة باستعدادات النساء للنضال، وهي تعليقات لاقت، مع ذلك، تكذيباً صارماً، في كل مكان، أثناء فترة المقاومة.

كذلك كان تطور الوضع في إيطاليا مختلفاً عن التطور الذي كنت قد توقعته، إلا أن هذه الدراسة كانت تسعى لأن تكون محاولة نقدية، لا رؤ ية تنبئية.

وأخيراً، اتخذت حرب الأنصار في إيطاليا وغيرها، أبعاداً لم تكن معروفة في الماضي، إلا ان ذلك لم يغيّر في المبادىء النظرية للانتفاضة المثبتة في هذا البحث على قاعدة من التجربة العامة.

تشرين الثاني ١٩٤٩
أميليو لوسو

مقدمة الطبعة المنشورة في فرنسا

لقد تأجلت هذه الدراسة بضع سنوات، بحيث شارك فيها فرانكو كليريرسي (Franco Clerirci) في القسم المتعلق بالمانيا. وإنني أذكره هنا بكل مودة وأسف.

لا توجد أعمال هامة تذكر عن الانتفاضة، اللهم باستثناء كتاب نويبرغ (Neuberg) الممتاز* الذي لم يستطع، فضلاً عن ذلك، أن يتعرف ويدرس إلا انتفاضتين صغيرتين محليتين في أوروبا. غير أن هذه الثغرة في الأدب السياسي المعاصر مفهومة، فالاحزاب الثورية التي تعيش في بلد ذي وضع ثوري، هي وحدها التي تثير اهتمامها هذه المسألة.

غير أن المسألة مطروحة اليوم، على صعيد أحداث الساعة، في بعض بلدان الديكتاتورية الفاشية. ولا نجازف إذا ما كتبنا حول هذا الموضوع، في أن نبدو كرجال شاردي التفكير، أو كجنود في مكان آمن معجبين بأنفسهم، أو كأساتذة في الاستراتيجية مغرورين تماماً. يُكتب، في زمن السلم، كثير من الدراسات عن الحرب، فلماذا يكون من العبث أن نكتب حول موضوع الانتفاضة في فترة توقعها ؟

يفترض هذا المؤلَّف، من جانب القارىء، معرفة بأهم انتفاضات ما بعد الحرب. ولو أردنا كتابة دراسة تفصيلية عن أهم انتفاضات ما بعد الحرب، لاقتضى الأمر عملاً مفرطاً في ضخامته، مملاً بالنسبة لغالبية القراء. إلا أن تحليلها، الذي كنت ملزماً

(*) راجع ترجمة هذاالكتاب الى العربية بقلم المقدم الهيثم الأيوبي، عن دار الطليعة.

بالضرورة على إجرائه قبل المباشرة في صياغة هذا المؤلف، قد سمح لي بذكرها، بشكل سريع، في شتى الملاحظات النقدية المعروضة في سياق هذا الكتاب.

تحتل انتفاضة «أكتوبر» البلشفية مكاناً راجحاً في هذا البحث. إنها، في الواقع، الانتفاضة الوحيدة في عصرنا التي قادتها طليعة سياسية وعسكرية، وكانت منتصرة. والحزب البلشفي هو الحزب الوحيد الذي خاض الانتفاضة باتباعه نظرية الانتفاضة. ومن جهة أخرى، فقد قمت بتحليلها هي وغيرها من الانتفاضات دون أي تحيز. لقد حللتها جميعها، بغض النظر عن اللون السياسي للأحزاب التي أحدثتها، مركزاً فقط على العناصر التي حددت نجاحها او فشلها. وبوسع الناقد العسكري أن يدرس، معركة ما، بنفس الطريقة، دون ان يكون لحكمه إمكانية التأثر بقومية الجيوش التي شاركت فيها.

غير أنه لا يمكن، استناداً لذلك، استبعاد وقوعي في بعض الأخطاء. فمن الصعب التقاط العناصر الضرورية لاعادة تصوير معركة بين جيوش نظامية. وتزداد الصعوبة، أيضاً، عندما يتعلق الأمر بمعركة انتفاضية. حتى ان أولئك الذين قاموا هم أنفسهم بالانتفاضة لا يتمتعون إلا برؤية القطاع الذي وجدوا فيه. لقد شاهد كل منهم على طريقته، ونسب أهمية لأحداث ثانوية لا أهمية لها مطلقاً بالنسبة للتطور العام للعمل. وقد عرضوا، جميعهم، في روايتهم تلك، الأحداث بطريقة غير دقيقة. يُضاف الى ذلك مشكلة أن كثيراً من حوادث الانتفاضات الفاشلة كانت وستبقى مجهولة دوماً أو يُساء فهمها، إذ يتوجب على محركي الانتفاضة، الذين يبقون على قيد الحياة، إخفاءها أو تحريفها كيلا يقدموا لأعدائهم أسباباً قابلة لاثارة أعمال ثأرية أكبر.

وتبقى، حتى التواريخ المجردة من الأهمية السياسية، محددة بشكل غير دقيق. مثلاً، متى دخل عمال المناجم المنتفضون الى أوفييدو (Oviedo)؟ والمعروف بأن للتاريخ، بالنسبة لمجمل العمل العسكري، أهمية كبيرة. يقول أ. ر. (.A.R) في مقال جيّد الاطلاع نشر في «اللوموند» (عدد ٣١٤، تشرين الثاني ١٩٣٤، ص: ١٥) ان ذلك حصل نهار السبت، أي في السادس من تشرين الأول. أما أ. تاسكا (A. Taska) فيحدد، في «البوليتيكا سوسياليستا (Politica Socialista)»، في مقال جيد الاطلاع أيضاً (عدد ٢، ص: ١٦١، عام ١٩٣٥) تاريخ ٩ تشرين الأول، ويؤكد بيلّارمينو توماس (Bellarmino Tomas)، وهو واحد من أكبر قادة التنظيم النقابي لعمال المناجم

ولـلانتفاضـة، حصول ذلـك في الثامن من تشـرين الأول (مقـابلة صحفيـة نشـرت في «لوپپولير دو باريس (Le Populaire de Paris)» في ٥ كانون الثاني ١٩٣٥». ويؤكد مانويل غـروسي (Manuel Grossi)، وهو أيضـاً من أهم قادة الانتفـاضـة، في كتـابه «انتفـاضـة استوري» (La insurrezione nelle Asturie) حين يصف معاركه، بأن الحادث وقع صباح السـادس. وحاولت، من أجـل ايضاح هـذه الاختلافـات، أن اتصـل بـ« بيـلارمينـو توماس» الذي التجأ الى الخارج، ولكني لم أتمكن من ذلك، على الرغم من توجهي الى رفاقه السياسيين.

لم أتقـدم هنا إلا بمثـل واحد. وبـوسعي ذكر عشـرات الحالات المشـابهـة المتعلقـة بالتواريـخ والأمكنة والـوقائـع، في الانتفاضـة البلشفية والاسبـانية والنمسـاوية بشكـل خـاص. فعلى القـارىء، إذن، ألا يتهمني بالجهـل، في حال وجـود بعض الأخطاء في دراستي، كونه أفضل اطلاعاً مني. وإذا كان ينقص هـذه الدراسـة كثير من المعلومـات المهمة، فلأنه استحال عليَّ الحصول عليها، سواء من خلال كتابـات او شهادات قـادة الانتفاضة أنفسهم، مع أنني توجهت الى كثير منهم في أوساط الـلاجئين السيـاسيين في باريس وسويسرا.

واعتقدت أن عليَّ إهمال دراسة الانتفاضات الصينية، سواء بسبب نقص المؤلفات المزودة بالـوثائق، أو لكـون المناخ الاقتصـادي والسياسي والاجتمـاعي في آسيا شـديد الاختلاف عن مناخنا في أوروبا.

وكنت قد اقترحت لنفسي معالجة الانتفاضة بشكل عام، دون إعطاء أهمية راجحة للوضع الايطالي، إلا أنه تبين لي، فيما بعد، أن ذلك لم يكن ممكناً.

إننا نجتاز في إيطاليا مرحلة نادرة في وضعها. وإذا لم نحسن الاستفادة منهـا، فإن الفاشية سوف تهددنا بالبقاء طويلاً. ولذلك يكمن السبب الأساسي لهذا المؤلف في أن نأمل بأن يتمكن قادة البروليتاريـا السياسيـون، الكبار والصغـار، من التوصـل الى أن تدرس مسائـل الانتفاضـة كما يُـدرس الاقتصاد السيـاسي، وعلم الماليـة، او السياسـة الخارجية. وستكون الانتفاضة، التي اضطرت جميع جهودنا الى التوجه نحوهـا، نتيجة «لتحضير ومقدرة الكثيرين. إن حقيقة الانتفاضات الوارد ذكرها في هذه الدراسة هي انه عندما تحين الساعة الملائمة للقيام باستيلاء بالعنف على السلطة السياسية، لا يكون هناك

متسع من الوقت للقيام بدراسة النظرية أو التقنية. ويجد كل واحد نفسه، في ميدانه مجبراً، فجأة، على القيام بما يستطيعه، وعلى تطبيق ما يعرفه. ولذلك، ؛ فمن أجل تنفيذ شيء ما، تجب معرفة الكثير عنه، معرفة جيدة.

والوضع في إيطاليا لا يقدم حلولاً أخرى: إما ان تنجح البروليتاريا بالاستيلاء على السلطة السياسية، وإما أن لا نرى أبداً نهاية النظام. ولن يكون بوسع البروليتاريا الايطالية اليوم، ان تلجأ لأية وسائل غير العنف، للاستيلاء على السلطة.

وإن كل الذين يفكرون في تعجيل عملية تفكيك الفاشية، من خلال تركيبات بأساليب برلمانية، لا يفعلون شيئاً، بشكل لا إرادي، سوى إطالة حياتها. وليس هناك في خط المواجهة الأول مع الفاشية الايطالية، إلا طبقة واحدة: البروليتاريا، وتكتيك واحد هو التكتيك الثوري.

وأعتقد بأنني اعتبر واحداً من أولئك الذين كانوا يقيمون، من الخارج، وبشكل ثابت ولمدة طويلة، علاقات مع إيطاليا. ولن يكون هناك من ينكر عليَّ هذه التجربة. إنها كاملة. فالطبقة العاملة، مع أنها ما تزال ضعيفة وغير منظمة، تحتل هي فقط، من خلال أقلية شجاعة، موقعاً لا يقهر ضد الفاشية. ولا يوجد غيرها من يقوم بالمعارضة الجدية. وما الفائدة من ذكر استثناءات لأشخاص معزولين؟ لقد قُضي على البرجوازية الليبرالية والديمقراطية، أو انها التحقت بالنظام. إنها لا تساوي شيئاً في ايطاليا. ولن تأخذ البرجوازية والكنيسة والملكية قط موقفاً ضد الفاشية، أي ضد نفسها، حتى وإن أصبحت الأزمة حادة الى ما لا نهاية. سيكون ذلك انتحاراً. وهي تدرك أنها قد تنهار معها، أو أنها عاجلاً ما تلحق بها الى قبرها. ولا يبشر سقوط الفاشية في إيطاليا، كما كان سقوط القيصرية سابقاً في روسيا، بتقبل فترات ثابتة من خلو السلطة الديمقراطية البرجوازية. لقد انهارت نهائياً القوة التقليدية الكبيرة والجائرة للملكية. ويخطىء المتفائلون كثيراً إذا كانوا يأملون بإمكان إصلاح الملكية، باستدعاء الجيش وبإلزام موسوليني بالتخلي عن السلطة ليترك خلافته الى حكومة من الجنرالات والبرلمانيين الكهول. فإن موسوليني سوف يقوم بعشرة انقلابات، وسيذبح المتآمرين كما فعل هتلر في ٣٠ حزيران، وسيفضل معارك الشوارع، وسيقوم بألف حماقة، ولكنه لن يتخلى عن السلطة بدون صراع. إنه يسيطر، من الآن فصاعداً، على جميع قيادات الجيش وكل الميليشيا، وهو يفرض نفسه دائماً بطريقة لبقة وذات دلالة على قسم كبير من الشبيبة

الرياضية. ولا يفكر الملك، من جهة أخرى بمثل هذه الأفكار.

إن الانتفاضة الشعبية، هي الوحيدة التي بوسعها، أن تقضي على النظام. وأمام هذه المهمة صعوبات ضخمة، إلا أنه ليست هناك حلول أخرى.

يجب على البروليتاريا أن تعيد تنظيم نفسها وتتهيأ لقيادة الثورة في لحظة قد لا تتأخر بأن تظهر مناسبة.

كانون الثاني ١٩٣٦. أي. ل.

إن فشل المقاومة الأثيوبية غير المتوقع، على الرغم من مظاهرها، لم تغير الوضع السياسي كثيراً في إيطاليا. والشعب الايطالي الآن، محكوم عليه بالأشغال الشاقة، من أجل دعم امبراطورية النفوذ. وما أن تمر فترة جنون الانتصارات حتى تقع إيطاليا من جديد في انهيارات حادة. ولن تفعل الامبراطورية إلا مزيدا من تعريض الطبقات الحاكمة للخطر. وليس أمام الأزمة الايطالية إلا الحل الثوري.

حزيران ١٩٣٦
أي. ل.

الفصل الأول

حول الانتفاضة

علينا أن نترك جانباً، في هذه الدراسة، الجانب الأخلاقي ـ القانوني للانتفاضة. هل يحق لنا ان نثور؟ إنه سؤال عديم الفائدة. لقد بررت الثورة الاميركية مع اعلان «فيلادلفيا» والثورة الفرنسية مع «إعلان حقوق الانسان والمواطن» الثورة الشعبية بوجه الاضطهاد. أما الثورة البلشفية فلم تكلف نفسها عناء تبرير شرعية عملها والأسباب التقليدية لذلك. وكان لينين قد اعتبر، وهو يفسر كلاوزيفتس على خطى كاوتسكي (Kautsky)، ان الحرب، وبالتالي الحرب الأهلية، تعتبر استمراراً للسياسة بوسائل أخرى. إن هذا التعريف لا يساوي كثيراً، لأنه يمكن بنفس المنطق، قلب هذا القول المأثور، والقول بأن السياسة هي استمرار للحرب الأهلية بوسائط أخرى. وعلى هذا المنوال سوف يُعدُّ شبنغلر (Spengler) كثيراً من هذياناته عن الحرب وعن السلام.

ومهما يكن من أمر، فالانتفاضة والحرب تعبيران متماثلان لمعادلات متشابهة، فعندما لا يعود بوسع أحكام القانون الدولي العام تسوية العلاقات بين دولتين بشكل طبيعي، نكون إزاء الحرب. وعندما لا يعود بوسع القوانين الداخلية، التي هي غير مقبولة، احتواء الصراع السياسي، نكون إزاء الانتفاضة. وتولد من أحشاء الحرب والانتفاضة قوانين جديدة. زد على ذلك أن هذه الصيرورة طبيعية، لأن المصدر الأولي للقانون ليس إلا العنف المنتصر.

لا تعالج هذه الدراسة إلا الانتفاضة، أي مرحلة واحدة، إنها المرحلة الأكثر أهمية، المرحلة الأساسية من الدورة السياسية التي يُطلق عليها اسم الثورة. الثورة هي الكل،

أما الانتفاضة فهي جزء.

يقصد بالانتفاضة، قبل أي شيء، كل عنف مسلح، مهما يكن شكله، يهدف للاستيلاء على السلطة السياسية. عملياً لا يمكن للجماهير الشعبية وحدها ان تثور فحسب، بل أيضاً يمكن ذلك بالنسبة لأقلية ارستقراطية. غير أن هذه الدراسة لن تتناول هذه الفرضية.

لا تأخذ هذه الدراسة، إذن، إلا بالانتفاضة الشعبية، وهي تسعى الى تحديد المبادىء التي تحكم عملها الناجح، وليس ذلك عندما تكون البرجوازية على رأسها. بل البروليتاريا، بوصفها طليعة الأمة. أي أن انتفاضتنا هي الانتفاضة الكلاسيكية في عصرنا. ولا علاقة لها البتة بتلك الحركات التي تهدف، بتواطؤ من الجيش، او بمشاركته صراحة بوصفه محركها الأول، الى احلال زعماء مكان زعماء وأحزاب مكان أحزاب، والتي ليست في جوهرها، على الرغم من الأشكال الظاهرية، إلا معارك داخلية في ضمن عائلة واحدة. ليست هذه الحركات انتفاضات، بل مؤامرات (des pronunciamentos) او انقلابات سياسية. وغالباً ما تتوصل هذه الحركات الى اجتذاب فئات شعبية واسعة، إلا أنها تحافظ فيها، من حيث انتظام الأمور، على دور الضحية.

هذه هي بشكل عام، صورة «الثورات» المزعومة في اميركا اللاتينية، باستثناء ثورات المكسيك التي أوصلت بروليتاريا المصانع وكل الجماهير الريفية المؤلفة من طبقة الأجراء والفلاحين الفقراء، ضد القوى التقليدية للرجعية القومية ـ الكنيسة والاقطاع الريفي ـ إنه لم يكن الى الاستيلاء على السلطة، فالى المشاركة في الحكم، على الأقل.

كذلك فإن جميع المؤامرات التي حملت الرجعية الى السلطة في شتى بلدان أوروبا، هي انقلابات سياسية، وليست انتفاضات، ومن ضمنها الانتفاضة الفاشئية، على الرغم من لغتها المستقبلية. زد على ذلك ان الأدب التأريخي الفاشي نفسه يتحدث باعتدال عن الانتفاضة. إذ من الصعب ان نسمي الزحف على روما انتفاضة، وهو عملية معقدة بشكل مفرط، كان موسوليني يزحف اثناءها مركزاً على ميلانو، بينما كانت الفرق تلعب لعبة الغميضة (colin-maillard) في أبعد مناطق إيطاليا الوسطى، متنقلة، مجاناً او بتعرفات مخفضة، في قطارات مجهزة بشكل خاص من قبل إدارة الدولة. وقد كتب كورزيو مالابارت (Curzio Malaparte)، الذي شارك في هذه العملية الجريئة مسرعاً نحو

فلورنسا، بحثاً عـن فن الاستيلاء على الدولة، بعد ان استلهم ماكيافيللي ـ وهو بحث مفرط في بساطته وغير دموي مطلقاً ـ .

يتحدث مالابارت، على العموم، عن انقلاب سيـاسي وليس عن انتفاضـة. وقد اعلن موسوليني نفسه ان الثورة الفاشية بدأت في ٣ كانون الثاني ١٩٢٥، قافزاً بذلك عن تشـرين الأول المنبىء بالقـدر والذي شـاهد الفـاشيين يـدخلون روما عـلى خيل الملك المدرعة.

وانه لانقلاب سياسي وليس انتفاضة ذلك الهجوم الذي شنه، في ١٢ أيار ١٩٢٦، بيلسودسكي (Pilsudsky) ضد البيلفيدير (le Belvédère)، ببعض الأفواج المتمردة التي لا تمثل روح البلد، بل روح الكولونيلات، والتي شاءت سذاجة اشتـراكيي فرصـوفيا ان تدعمها بإضراب عام، مكملة بذلك تقليد (la non praestanda oboedientia) لفـوضويـة الفروسية البولونية في القرون الماضية.

إنها انقلابات سياسية أيضاً كل عمليات الزحف والزحف المضاد التي ميزت الصراع السيـاسي فيها بعـد الحرب في البلقـان، والتي جعلت من الجنرال اليـوناني كـونـديليس (Condilis) سيفاً مسلطاً دوماً.

إننـا بالعكس، سنهتم بـانتفـاضـة الجمـاهـير. وهي جمـاهـير طليعتهـا اليـوم هي البروليتاريا، كما كانت البرجوازية الثورية طليعة جماهير القرنـين الثامن عشـر والتاسـع عشر.

لا نريد ان نزعم بذلك أن الدور الثوري للبرجوازية قد انتهى. فما زالت الطبقات المتـوسطة مـدعوة الى قيـادة الشعب في النضال السيـاسي، في بلدان الوحـدة القـوميـة الحديثة، وبشكل عام، في جميع البلدان حيث المنظمات العمالية تحت وصاية الأحزاب التقدمية للديمقراطية البرجوازية، أو على أية حال، حيث ما تزال هذه المنظمات في بداية نموها السياسي. إلا ان البروليتاريا تقف في طليعة الشعب، في البلدان التي تمكنت فيها من التعبير عن حيويـة مستقلة خاصـة بها، وذلـك بفضل ظـروف اقتصاديـة وسياسيـة ملائمة، حتى وإن تمكنت الرجعية من قلبها او ضربها مؤقتاً.

لا يُقصد بالانتفاضة أنها الـوسيلة الوحيـدة التي يمكن للبروليتـاريا بـواسطتهـا من السيطرة على الدولة. كان لينين يعتقد، في الأيام الأولى من أيلول ١٩١٧، أن ذلك ممكن

حتى عن طريق الشكل السلمي، وبدون عنف. ويميل بحثه «حول التسويات» (Sur les compromis) الى إثبات هذه الامكانية. إلا أن الأحداث اتخذت فيها بعد وجهاً مختلفاً. غير أن هذا ما حدث مع «بيلا كون» (Bela Kun) في المجر.

إن بوسع البروليتاريا، التي تصل الى السلطة دون إراقة دماء، وقد دعتها الى ذلك الارادة الشعبية في مرحلة من الاضطرابات الداخلية، أن توطد نفسها بصلابة إذا كانت مدعومة من الغالبية العظمى في البلد. غير أنه عليها، من أجل ذلك، ان تتصرف بسرعة وتشكل جيشاً شعبياً يكون قادراً على دعم الانجازات الفورية او تفكيك الدولة السابقة. وهذا ما حاول «بيلا كون» القيام به عام ١٩١٩، مع كثير من الأخطاء وفي وضع دولي غير ملائم. وهذا ما قام به الاشتراكيون النمساويون، عام ١٩١٨، وإن كانوا في حكومة ائتلاف، وذلك من خلال انشاء جيش الشعب، ذي الطابع البروليتاري الواضح.

ومع أنه لم يحدث عملياً أن حصل ذلك إلا في المجر عام ١٩١٩*، فعلينا ان نقرّ، حتى نظرياً، أن بوسع البروليتاريا بعد استيلائها السلمي على الدولة في فترة ملائمة بشكل فريد من نوعه، أن تحولها من أجل الدفاع عن نفسها. غير ان ذلك يتطلب ان تكون البروليتاريا مهيأة فكرياً لمسألة الانتفاضة. لقد أظهر لنا موسوليني وهتلر ودولفوس (Dollfuss)، كل في بلده، القيمة الفعلية للدولة في أيدي المستولين عليها. ولا يخطُرنَّ على بالنا القول بأنت الأمر يتعلق بانتقال من شكل دولة رأسمالية الى شكل دولة رأسمالية أيضاً. فهناك بون شاسع بين الدولة الليبرالية والدولة الديكتاتورية. لقد حطمت الدولة الديكتاتورية مقاومات ودمرت معارضات، بطريقة لم تكن تبدو معقولة.

إلا أنه يجب عدم الركون الى هذه الاحتمالات النظرية او الافتراضية، وإلا فلن نلقى إلا خيبات الأمل الشديدة. ففي بعض البلدان، وخاصة في ايطاليا، يجب التفكير بالانتفاضة فقط، والاستعداد من أجلها. وإذا ما قدمت، في يوم ما، أحداث ما، غير مرئية اليوم للبروليتاريا، إمكانية الاستيلاء على السلطة بوسائل أخرى، فإنها لن ترفض هذه الوسائل. إلا أنها تدرك جيداً ان واجبها هو إعداد طليعتها المسلحة القادرة على التدخل المظفر لدى أول فرصة ملائمة. وهي لن تدع هذه الفرصة تفوتها، إن توافرت،

(*) تجربة التشيلي، فيما بعد (حول الوصول السلمي الى السلطة).

وإلا سحقها هجوم مختلف رجعي. فما الذي كان يمكن ان يحصل في روسيا، لو ان البلاشفة أحجموا عن الانتفاضة في تشرين الأول ١٩١٧، وتنازلوا امام ضغوطات الانتظاريين(temporisateurs)؟ بالتأكيد، لكان الدوق الكبير سيريل (le Grand Duc Cyril) يحكم اليوم روسيا التي ستبقى، أيضاً، روسيا المقدسة. ولكان استطاع كيرينسكي أيضاً، عام ١٩١٧، أن ينجو بنفسه بسلم منفصل: كان لهذه الفرضية أنصار حتى داخل الأوساط الرسمية. وانتهى فركونسكي (Verkonsky)، وزير الحربية، الذي كان قد بدأ بإحالة الجنود المسنين الى الاحتياط، بأن تقدم في العشرين من تشرين الأول، من المفوضية العسكرية في مجلس ما قبل البرلمان (Pré—Parlement)، بعقد السلام الفوري، حتى المنفصل. ولكان عقد السلام قد خفف من نفوذ البلاشفة في الجيش والجماهير. ولكانت تعززت الحكومة المؤقتة وخلفاؤ ها، الى أن يأتي تدخل كورنيلوف آخر، حول مسألة الأرض، فيمسح الثورة نهائياً. هذا ما حصل فيها بعد في المانيا والنمسا. أما في روسيا فقد تحاشى لينين الكارثة.

غير أن الاستعداد للانتفاضة لا يعني، بالنسبة للبروليتاريا الاستسلام لأهون الحلول. إن مسألة الانتفاضة، من بين جميع المسائل، هي أكثرها عنفاً. فالانتفاضة هي قبل كل شيء دراما هائلة. وبها تجازف البروليتاريا بكل وجودها. ولكن ماذا يعني امتناعها عنها ؟

إنه لوضع صعب وضع أحزاب البروليتاريا. فإن كانت اصلاحية وشرعية وديمقراطية، صارت عاجزة عن اللجوء الى العنف عندما يبدو الوسيلة الوحيدة للدفاع عن المؤسسات التي تنتمي اليها. وإن كانت الاحزاب ثورية بقيت غريبة عن البلد. ولقد شكلت فترة ما بعد الحرب تجربة طويلة. ولم تكن الأزمة كبيرة بالنسبة للأممية الثانية في أوروبا، فحسب، بل والثالثة أيضاً. ولم تحقق الأحزاب الشيوعية نجاحات كبيرة أكثر من الأحزاب الاشتراكية. هناك حزب واحد فقط، لم يفشل، بل انتصر وسيبقى منتصراً تماماً، إنه الحزب البلشفي الروسي. ولم يكن سبب ذلك ذاتياً بقدر ما كان موضوعياً، فالتكتيك الثوري والتكتيك الديمقراطي هما نتاج الظروف السياسية الداخلية.

وفي البلدان ذات الدساتير الليبرالية ـ الديمقراطية تُدفع غالبية البروليتاريا الى تطوير تكتيك ديمقراطي، وتندمج في الدولة. أما ذلك الجزء من البروليتاريا، الذي يدخل في

تناقض مع الدولة، ويتحدث بلغة ثورية فليس معه الرأي الشعبي. بل يكون معه طليعة ضئيلة من المثقفين والشباب، وقسم صغير فقط من الشغيلة. أما البرجوازية الصغيرة فهي معادية، ولا تقف الجماهير معها. وينقص الثوريين المناخ الضروري ليطوروا أنفسهم، بشكل مهم، في تيارات غير شرعية، ومنظمات سرية وحماس من أجل الثورة. ولا يلقى النداء الى الثورة استجابة. فالجماهير لا تتحمس إلا عند التوقع القريب لحدوث الصراع وعند الأمل بالانتصار. إنها الثورة التي لا تبدو ممكنة إلا في مستقبل بعيد لا تثير الجماهير. ولهذا السبب لم تنجح الأحزاب الشيوعية، على الرغم من الثورة الروسية والأزمة الكبيرة والبطالة والحرمان الذي عاشته البروليتاريا والشعب، في تأكيد نفسها بجدية في البلدان التي فيها، مع ذلك، تنظيم صناعي قوي، مثل انكلترا والمانيا وبلجيكا وفرنسا. ولهذا السبب أيضاً، فعندما قامت الرجعية والمؤسسات الديمقراطية معاً، بمهاجمة البروليتاريا، في بلدان مثل ايطاليا والمانيا، لم تقاتل البروليتاريا الاصلاحية، التي تشكل الأغلبية، بسبب عجزها، في حين لم تستطع البروليتاريا الثورية، الأقلية ان تقاتل أيضاً، حيث كانت الأغلبية قد وضعت على الحياد بحكم تربيتها الشرعية، والأقلية بسبب عجزها. إن في ذلك مأساة البلدان التي انتصرت فيها الفاشية.

وفي بلدان مثل إيطاليا والمانيا والنمسا حيث يوجد وضع ثوري، يفترض بالبروليتاريا بالضرورة ان توحد نفسها على أرضية ثورية. فليس هناك مكان للاصلاحية والشرعية. فالاختلافات حول تصور النظام الاشتراكي تختفي وتفرض نفسها ضرورة واحدة: الثورة، ولا يمكن تصور بدائل أخرى. إن إيديولوجية سياسية ثورية يجب أن تترافق بإيديولوجية سياسية وعسكرية انتفاضية. واذا لم تتوافر هذه الأيديولوجية لا نحصل لا على الانتفاضة ولا على الثورة.

فالصعوبات التي تم تذليلها من جهة، تظهر وتتضاعف من جهة أخرى. ونظراً لأنه يجب البدء من الصفر، فإن المنظمات السابقة سوف لا تصلح لشيء. فقد مرت عليها الفاشية المدمرة. ومن يستطيع التكهن بالتضحيات والآلام التي على الطبقة العاملة ان تواجهها قبل أن تفرض نفسها على الشعب، حفنة من الرجال الموثوقين يصبحون طليعيين قادة، يقودون الشعب الى النصر؟

الفصل الثاني

النظرية اللينينية للانتفاضة

يقول لينين «الانتفاضة فن، وهي، كالحرب وباقي الفنون، تخضع لبعض القواعد التي يؤدي إهمالها الى هلاك الحزب الذي يرتكب خطأ عدم احترامها». ومن هذا المبدأ، الذي يمكن ان نرده الى انغلز، استوحت انتفاضة (أكتوبر) تشرين الأول كل سلوكها.

لم يكن ماركس رجل تنفيذ. كان يبتكر الصيغ من أجل تحريض الجماهير، إلا انه كان يرجع الى انغلز في قضايا الاستراتيجيا والتكتيك. وكان يعتبره بمثابة اختصاصي، فكان يناديه «الجنرال» عندما يكونان وحدهما. وكان يرجع اليه في المسائل التقنية كما ترجع السلطة السياسية الى السلطة العسكرية.

تمتع أنغلز دوماً بولع خاص بالقضايا العسكرية. وهذا ما يفسر عند انغلز قيامه بالمقابلات والدراسات المقارنة، وهذه الرؤية الواضحة والثابتة لمسألة الانتفاضة المعقدة. لقد أمضى سنة متطوعاً في فوج مدفعية الحرس، وعاش تلك المرحلة التي كان خلالها، حتى أساتذة الفلسفة في بروسيا يدرسون الفن العسكري. إنها المرحلة التي تخرجت فيها الكادرات العسكرية والسياسية للحروب المظفرة في أعوام ١٨٦٤ و١٨٦٦ و١٨٧٠. واستفاد انغلز من هذه التجارب، كما سيستفيد لينين من تجارب الحرب الروسية ـ اليابانية، فتمثل وتبنى جوهر المبادىء الأساسية التي تؤدي الى النصر. ولو ان قادة البروليتاريا الثورية لمرحلة ما بعد الحرب سارت على منواله، ! فإنه من المحتمل جداً ان تكون الفاشية قد واجهت في صعودها عقبات أكبر بكثير. إلا أن مرحلة ما بعد الحرب في

أوروبا لم تعرف - حتى عام ١٩٣٤ - معسكر البروليتاريا المحارب، بل معسكر البرجوازية.

حدد انغلز، في كتابه «الثورة والثورة - المضادة»، الذي نُسب زمناً طويلاً وحتى هذه السنوات الأخيرة الى ماركس، بعض المبادىء الأساسية التي ما تزال صحيحة حتى يومنا هذا، مع انها كتبت عام ١٨٥١. ولقد استمد لينين وحيه من هذه المبادىء التي نسبها أيضاً الى ماركس، وطور أبحاثه بتعميق دراسته في فن الحرب.

ولم يترك نفسه عرضة لاغراء التصور الحقوقي والسياسي للدولة الديمقراطية في أوروبا الغربية الذي التزمت به الغالبية العظمى من اشتراكيي القرن التاسع عشر، بما فيهم الاشتراكيون الروس. واقتضى التصور الماركسي للدولة ان يبقى الاشتراكيون - الديمقراطيون، الذين كانوا يعيشون في مناخ ليبرالي معارضين او مترددين، كما كانت الحال في انكلترا وفرنسا (حتى في ظل شكل عديم الخبرة ومبهم الى حد ما، مثل ايطاليا والمانيا)، وأولئك الروس الذين كانوا مثل بليخانوف ومارتوف أوروبيين أكثر مما هم تتر. وكان لينين يرى في الدولة الروسية المعقل المعادي الذي تعشش فيه الطبقة المهيمنة، وذلك بصرف النظر عن هندسة أبراجه. وبدون شك إذن: فهذا العقل لا يمكن ان يهاجم إلا والسلاح باليد، ويجب ان يسحق حتى تسوى به الأرض.

ولم تكن الدولة تبدو بنظر غالبية الاشتراكيين في البلدان الكبيرة ذات النظام الدستوري والديمقراطي، بمثابة معقل معاد، بل كانت تبدو في أعينهم، وقد نسوا مجازر الماضي، منزلاً كبيراً مريحاً، فيه متسع للجميع. إنه منزل قومي لا يمكن لأحد ان يطمح الى امتلاكه، ولكن لكل جمعية قادرة الحق في إمكانية استئجاره. ومنذ بدايات نضجه السياسي، رأى لينين الدولة، ذات البنية المهدَّدة والمغمة في معقل سان بيير وسان بول في قصر الشتاء، ملجأ الاستبداد الدموي الذي كان بطرس الأكبر وكاترين الثانية قد عملا، بعد أن وضعا جانباً الأسلحة القديمة، على تحديثه بمدافع من العيارات الخفيفة والمتوسطة. ولم يعد يحيط به فرسان الاحتفالات المدرعون بالصفيح المذهب، بل قوزاق ملتحون، يحملون الأسواط والبنادق. فلم يعد هناك أي منفذ للشعب اليه.

ومن هنا نشأ التكوين العفوي لنفسية لينين الثورية التي تختلف عن الذهنية الشرعية لرفاقه الاشتراكيين الأوروبيين او المتأوربين، تماماً كما يختلف سان بيير وسان بول أو قصر

الشتاء عن قصر باكينغهام او حتى عن الاليزيه[١]. وبسرعة لقحت هذه الرؤية المادية للدولة الاستبدادية، بطريقة عقلانية، برؤية نقدية. ونتج عن ذلك نظرية دائمة الارتباط بالممارسة، وندرك اليوم، نحن الذين نعيش في دولة فاشية، المنطق الكامل لهذا الموقف.

وبينما كانت كل الاشتراكية - الديمقراطية تهتم طيلة ثلاثين سنة بالتعاونيات والنقابات وبالحملات البرلمانية، اهتم لينين بتنظيم العمال، ولكن بروحية تختلف كثيراً عن روحية ليبار (Leipart) وأراغونا وتوماس. وكان يهتم بذلك بنفس روحية رئيس هيئة الأركان عندما ينظم الجيش تحسباً للحرب. ولهذا السبب يطرح مسألة الانتفاضة المسلحة الى جانب أهم المسائل السياسية والاجتماعية التي على البروليتاريا مواجهتها. وعندما بدأت في كانون الثاني ١٩٠٥، في موسكو وسان بطرسبورغ، تعمل هذه الخميرة الثورية التي ما لبثت ان تجلت واتخذت أبعاداً لم تكن متوقعة، تحدث لينين عن الانتفاضة من وجهتي النظر النظرية والعملية: الايديولوجيا والتنظيم. وإذ ذاك نشر، وسط ضحكات واحتجاجات الشرعيين، مذكرات قائد كومونة باريس كلوزيريه (Cluseret)، حول تكتيك قتال الشوارع. وبعد هزيمة الانتفاضة في كانون الأول من نفس العام، أعلن بليخانوف وأنصاره أن حمل السلاح كان خطأ أطفال، بينما أكد لينين أن الخطأ يكمن في عدم استعماله بالبراعة اللازمة. ودعا بليخانوف الى التخلي عن السلاح، بينما دعا لينين الى تحسين استخدامه. وقد تمت مقاطعة الدوما الأولى بفضله، بسبب كونه الوحيد الذي لم يكن مقتنعاً بأنه بإمكان القيصرية إقامة بناء ديمقراطي. وأعلن تأييده للتشكيلات التي نبعت مباشرة من النضال. وملأه حماساً تمرد سفيبورغ (Sveaborg) وكرونشتادت، تماماً كما ألهبت الكومونة (باريس) ماركس حماساً، وأكد على ضرورة أن واجب كل البروليتاريا مساندتها.

ومنذ ذلك الحين، لم تمر سنة واحدة دون ان يعالج فيها لينين مسألة الانتفاضة بوصفها المسألة الأولى في تنظيم البروليتاريا. فاتهمه الاصلاحيون، باحتقار، بالبلانكية، تقريباً كما لو كان بلانكي مجنوناً هائجاً او مهووساً بالانقلاب السياسي. ودرس، كالمتخصص، الفن العسكري، ويتضح بجلاء من كتاباته انه لم يفهم تماماً كلاوزفيتس،

(١) لم يدخل ماركس انكلترا في عداد الدول الواجب تحطيمها بالثورات الشعبية لأن انكلترا، وإن كانت رأسمالية، فقد كانت غير بيروقراطية وغير محكومة عسكرياً.

فحسب، بل ومولتكه (Moltke) وفون ديرغولتز (Von der Goltz) ومن المحتمل جداً أنه عِرف ايضا غوش (Goch)، من خلال بعض كتاباته. وكان يفضل كلاوزفيتس الذي درس في مؤلفاته: «حرب ١٧٩٦ في ايطاليا» و«نظرية الحرب الكبرى»، مبادىء ومناورة القتال تماماً كما تأكدت في الجيوش الشعبية ولدى القادة اليعاقبة في فرنسا الثورية. إن كلاوزفيتس يعني تجربة نابليون، التي سيجبر الى العودة اليها بلوخر (Blucher) ابن الثمانين، كي ينتصر، بين هزء المتملقين وذهول الجنرالات البروسيين، الذين لم يطلقوا طلقة واحدة دون الرجوع الى الوصايا العشر في تكتيك فريدريك. إن كلاوزفيتس يعني مبادىء الحرب الحديثة. واذا كانت الانتفاضة فناً مثل الحرب، فيجب ان نعرف الحرب معرفة تامة، حتى تصبح البروليتاريا قادرة على تطبيق بعض المبادىء الأساسية يوم ستهب في معركة مواجهة مخططة.

يا له من تماسك رصين في هذا الاعداد النظري لدى لينين! لقد كان طبيعياً ان يقول لينين، بعد حوالى عشر سنوات، في ١٦ تشرين الأول ١٩١٧، اثناء اجتماع اللجنة المركزية لحزب البلاشفة المنعقد في سيسني (Sessny)، بأنه اذا بدا الوضع ملائماً وناضجاً للانتفاضة، فإنها ستكون حتمية، ويجب اعتبارها بمثابة فن.

وبهذه الطريقة تزداد، أكثر فأكثر، صلابة نظرية الانتفاضة عنده. ستعترض الاصلاحية بأنه من الجنون التفكير بالنصر في الشوارع، ضد جيش مجهز بأسلحة حديثة وبمدافع سريعة الرمي. غير ان لينين كان يعرف ان تجربة جميع الانتفاضات قد برهنت، مثل تجربة الحروب، ان النصر ممكن دوماً، اذا ما تم، بشكل مناسب، استخدام وتطبيق بعض المبادىء التي لا تتبدل على الرغم من تبدل العصور والمعدات الحربية. تماماً كما يقول فوش، بأن المبادىء التي قدمها الميكانيك الى الهندسة هي ثابتة، سواء تعلق الأمر بالبناء بالحجر او بالخشب او بالحديد او بالاسمنت المسلح.

وهكذا سيضطلع الإعداد السياسي بالنسبة للينين بمدلول واسع الاختلاف عنه بالنسبة لاصلاحيي الاشتراكية ـ الديمقراطية الأوروبية. وكانت النتائج العملية واسعة الاختلاف ايضاً. لقد أطلق لينين الانتفاضة واستولى على السلطة في اللحظة المناسبة والحاسمة، اما الاصلاحيون المنسجمون تماماً مع مؤتمرات غوتا (Gotta)، وإرفورت (Erfurt)، هايدلبرغ (Heidelberg) فقد استخدموا الرشاشات ضد «عصابات اللصوص» من البروليتاريا الثورية، واخضعوا خطواتهم لمسيرة مرممي الامبراطورية وكأنهم عرفاء

انضباطيون في جيش نظامي. إنهم اولئك الذين سبقتهم، مع ذلك، التجربة الايطالية المليئة بالدروس. لقد آمنوا بالدولة كمنظمة سامية تتجاوز الطبقات، حتى عندما كان يدافع عنها اليونكر (les junkers) ومارشالات الامبراطورية،وصارت الدولة بين أيديهم بمثابة بندقية تُمسك من سبطانتها. اما لينين فلم يدع نفسه تنخدع بمظاهر الدولة الجمهورية، أو سمح لها بأن تصبح هكذا، بل تناول الحكومة المؤقتة المنبثقة من ثورة شباط، وكأنها وريث ومكمل للاضطهاد القيصري. ألم يقل كيرينسكي (Kerensky) للدوق الكبير ميخائيل: «انت أنبل الرجال!» وعندما وقع الدوق الكبير، امام اعضاء الحكومة المؤقتة قرار استقالته، وهو قرار مؤقت أيضاً، على الأقل في مقاصده، هتف كيرينسكي بانفعال واضح، وهو إذ ذاك، وزير العدل: «سيدي، لقد عهدت الينا بكأس سلطتك المقدسة، بشهامة. أقسم لك بأننا سنعيدها الى «الجمعية التأسيسية» دون ان تسيل منها نقطة واحدة». ولكن لينين جعل الطريق امام الخلفاء المفعمين بالنوايا الحسنة وعرة لدرجة لم يُفقدهم في طريقهم الخمر فحسب، بل الكأس أيضاً. اما الاشتراكية الديمقراطية الالمانية فقد سارت بكثير من الاعتدال والبطء، سير الأوزة، بحيث نجحت بنقل الكأس الى هتلر، تلك الكأس التي أورثه اياها غليوم الثاني، وذلك دون ان تسيل منها نقطة واحدة.

إن أية فكرة عن المغامرة بعيدة عن ايديولوجية لينين في الانتفاضة، إذ انه يجب ألّا نغالي كثيراً في المراهنة على القدر. إن للانتفاضة، مثل الحرب، مخاطرها وتقلباتها، غير انه يمكن اختزالها الى أقل قدر ممكن اذا لم تنس البروليتاريا الثورية، كما هي حال الجيش في المعركة المعلنة، اجراءات الحيطة. ويتطلب الهجوم، قبل كل شيء، ان تكون المؤخرة في مأمن. ويطبق لينين على الانتفاضة حتى المبادىء العسكرية في الحيطة الاستراتيجية. فقد احتفظ في ذاكرته بمناورة الجيش الياباني في زحفه الهجومي. لقد نزل الجيش الأول الى تشينامبو (Tchinampo)، وذلك بعد ان سبقه إنزال الفرقة الثانية عشرة التي استخدمت كمقدمة. وكان الجيش الأول والانزال الذي تم، بمثابة مقدمة قد أمن إنزال وزحف الجيش الثاني والثالث والرابع. إذن ففي كل لحظة وفي كل مكان، كان يستحيل حصول المفاجأة أو الانتكاسة مهما تكن قوة العدو. إن ذلك، على العموم، هو التركيز الممتاز للجيوش التي قادها مولتكه (Moltke) لاجتياح فرنسا عام ١٨٧٠. غير ان لينين كان يرى الأمور عن كثب أكثر، ولديه في ميدانه. ولذلك لن تلقي البروليتاريا أبداً بنفسها على غير هدى في مشروع انتفاضة، بل ستهاجم فقط بعد ان تكون قد أنجزت

تعبئتها العامة، ودرست ميدان الصراع وسيطرت على الفعالية الحقيقية، لا المقدَّرة لتركيبتها. فإذا لوحظت هذه المقدمات بصورة جيدة يمكن ان يُفسَّر كيف كان لينين يعارض بحزم انتفاضة ٣ ـ ٤ تموز ١٩١٧، وكيف دفع بالبروليتاريا، في آب التالي، اثناء محاولة كورنيلوف (Kornilov) الرجعية، ضد هذا الرجل وحده وليس ضد الحكومة المؤقتة، وأخيراً، كيف قدّر، بعد قليل من الوقت، انه قد آن أوان العمل الحاسم.

إن المؤشر الأساسي هو التكوين السياسي والعسكري لطليعة معدة بشكل جيد، وذلك ضد الرأي المنشفي الذي يعتقد انه من أجل الاستيلاء على السلطة يجب انتظار تكون وعي كل الطبقة العاملة. وكيف يمكن ألا نولي أية اهمية لتجربة قرن بكامله ولهزيمة أوهام لاسال (Lasalle) وأعضاء حزب الارادة الشعبية (Narodvoltsi) وكل الاصلاحية الأوروبية، الذين كانوا يعتقدون ان الانتخاب العام سيعطي، بسرعة، الأغلبية المطلقة والوعي السياسي للعمال والفلاحين؟ وقدر مارتوف (Martov)، برجوعه الى بعض تأكيدات انغلز التي فسرها بطريقة دوغماتية والتي اعتقد بصحتها الحالية، انه انتهى تماماً زمن الثورات التي تقوم من أجل الاستيلاء المفاجىء على السلطة من قبل أقلية صغيرة واعية تقف على رأس الجماهير في حالة ثورة مترددة وسيئة التحديد. غير أن زمن اليعاقبة ورهبان الفرنسيسكان في القرن التاسع عشر، لم ينته بعد.

لقد وضع لينين مركز تفكيره على الانتفاضة كما لم يفعل ذلك قبله أحد غيره، أبداً. ويجب ألا تؤخذ جمله المقتطفة واعتبارها بمثابة أفكار مطلقة، بل من الضروري اعتبار مختلف أجزاء نظريته بمثابة لوحات توجيه تساعد على توضيح فكرته الأساسية. وقد يرى القارىء الذي لا يعرف إلا كتاباته لعام ١٩١٥، والتي أبرزها من الناحية النظرية ما صاغه بالاشتراك مع زينوفييف (Zinoviev) ومؤلفه لعام ١٩١٧ الذي نشر بشكل «رسالة الى الرفاق»، قد يرى هذا القارىء في ذلك اختلافاً او حتى تناقضاً، غير ان الامر بخلاف ذلك تماماً. ذلك ان «الرسالة» تشرح الوضع كما كان يبدو في تشرين الأول ١٩١٧، أكثر مما تشرح مبادىء نظرية. إنها، قبل كل شيء، حديث وجداني طويل، يأخذ على نفسه فيه مهمة البرهنة على بلوغ الساعة الملائمة للانتفاضة. وفوق ذلك، يرتكز القسم الأساسي منه على النقاط الأساسية لنظريته الموجودة دائماً في جميع كتاباته. ويعرض القسم الثانوي، كعناصر ضرورية، بعض الظروف المناسبة التي يصادفها آنذاك في الوضع الروسي، والتي يمكن تطلبها بصعوبة، بشكل عام، لأية انتفاضة أخرى، وبمعنى آخر،

لا يمكن، على ضوء هذه المؤشرات، لأية انتفاضة أخرى ان تبدو ممكنة. وذلك لأن وضع تشرين الأول ١٩١٧ في روسيا كان ملائماً بشكل فريد من نوعه، ولأنه كان يقدم الكثير من مثل هذه العناصر التي تحث على العمل، لدرجة أن نصفها فقط يكون كافياً اليوم ليدفع الى الانتفاضة، مع كل أمل بالنجاح. ولا تتناقض الميزة التجريبية «للرسالة» التي كتبت من أجل الحث على العمل وليس من أجل وضع نظرية للانتفاضة، في جوهرها، مع الكتابات السابقة التي تقدم البسط التالي:

١ ـ لا يمكن القيام بأية انتفاضة إن لم تكن الطبقات الحاكمة تعيش أزمة سياسية حادة، وغير قادرة على الحكم، وإذا لم يكن الاستياء والحرمان المتصاعدان يدفعان الطبقات المقهورة الى الثورة. وتشكل هذه العناصر وحدها وضعاً ثورياً ملائماً بلا ريب. ولكنها لا تؤدي الى الانتفاضة ان لم تتطابق مع المقدرة الثورية للجماهير وكادراتها. وبكلمات أخرى، ليست الانتفاضة ممكنة إلا اذا تضافرت في مصلحتها الشروط الموضوعية والشروط الذاتية. فلا يمكن على الاطلاق القيام بالانتفاضات بدون إعداد.

٢ ـ على الانتفاضة ألا ترتكز على التآمر (غالباً ما يستخدم لينين كلمة مؤامرة بمعناها الخاص، ولكنه يعني بها تآمر عدة أشخاص، لا علاقة للجماهير بها) ولا على حزب، بل على الطبقة المتقدمة التي عليها ان تستند بدورها على الاندفاعة الثورية للشعب بكامله. ويجب ان تنطلق الانتفاضة في مرحلة الثورة الصاعدة، أي في قمة حماس البروليتاريا، بينما يكون الأعداء مترددين وحلفاؤهم ضعفاء وغير حاسمين.

٣ ـ يجب ان تبدأ الانتفاضة عندما نستطيع ان نعتمد ليس فقط على الاستيلاء على السلطة، بل وأيضاً على الدفاع عنها وصيانتها.

هذه هي نفس المبادىء التي يحددها تروتسكي (Trotsky) عندما يريد تحديد الشروط الأولى للانتفاضة، أي: العجز الظاهر لدى الطبقات الحاكمة عن حل الأزمة، وعداوة جامحة تجاه النظام القائم، واستياء الطبقات الوسطى ورغبتها بدعم البروليتاريا.

لقد تبنت الأممية الشيوعية نظرية لينين عن الانتفاضة وأعلنت انها ممكنة، فقط، عندما تكون الطبقات الحاكمة مشوشة، وعندما تكون الجماهير في حالة اختمار ثوري، وبالتالي مستعدة للنضال والتضحية، وعندما تتردد الفئات المتوسطة (البرجوازية الصغيرة وفئات من الطبقات الوسطى) وتميل نحو البروليتاريا

يجب ألا تؤخذ هذه المبادىء العامة التي برهنت تجربة جميع الانتفاضات الناجحة او الفاشلة بمعناها الضيق، إنها مبادىء جدية. كما يجب ألا يؤخذ بمعناه الضيق التأكيد القائل بأن الانتفاضة فن كما هي الحرب. فالمبادىء العامة التي تحكم الحرب أكثر صرامة من تلك التي تحكم الانتفاضة. وقبل كل شيء، يُجبر المقاتلون في الحرب على القتال ـ تحت طائلة الموت ـ اما في الانتفاضة، وعلى الأقل في المرحلة الأولى التي هي أصعب مراحلها، فإن مشاركة المنتفضين طوعية. ونعرف بدقة في كل لحظة، في الحرب، عدد المقاتلين الذين يُمكن إرسالهم الى ميدان المعركة، أما في الحرب الأهلية فكل شيء غامض. ويكون العتاد مؤمناً في الحرب، في الدول الأكثر تقدماً: ويمكن أن يحصل في بداية الانتفاضات، حتى في تلك المعدة بأكبر مهارة، أن نكون بدون سلاح، او ان يكون بحوزتنا سلاح غير ملائم، لا يفي بالضرورة. وتكون جبهة الاشتباك محددة جيداً، في الحرب: اما في الانتفاضة فهي مبهمة لفترة طويلة. ويبقى للجيوش في الحرب بعض حرية المناورة: اما في الانتفاضة فإنها تنحصر في الصدمة الأولى. ولكن ماإن تطلق الانتفاضة حتى لا يعود بالامكان إيقافها.

تعطي هذه الفوارق للانتفاضة مبادىء أكثر مرونة، ولكنها غير مطلقة أبداً. ومن جهة أخرى، يتم تعلمّ الانتفاضة بدراسة الانتفاضات، اي بالتجربة، وليس باستنتاجات مبتكرة أساساً. يجب القيام دوماً باستقراءات حذرة، من خلال التجربة، ومن خلال التجربة فقط.

الفصل الثالث

البلانكية

يردد لينين غالباً أن مفهومه للانتفاضة لا علاقة له بالبلانكية. هكذا، وأمام جدية ايديولوجية الانتفاضة لدى ماركس وانغلز ولينين يمكننا تصوُّر البلانكية عقيدة مغامرة تعتمد على حمّى العمل من أجل العمل. أي انها عقيدة يتوجب علينا ان نتهمها دون ان نناقشها. والحقيقة هي ان لينين كان عليه ان يدافع عن نفسه ضد اتهامات الجناح الاصلاحي الشرعوي في الحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي. وكان هذا الحزب يعرف البلانكية من خلال الاتهامات القاسية التي كانت قد ألصقها به كل الديمقراطيين الفرنسيين الذين يفكرون جيداً وعلى رأسهم لوي بلان (Louis Blanc) الذي لم يغفر أبداً للثوري الانتكاسي كونه بلبَلَ راحة المدينة بأسلوب مذنب وغير مُتوقع. إن لوي بلان يتكلم عن بلانكي (Blanqui) كما يتكلم شيشرون عن كاتيلينا (Catilina).

إن البلانكية هي، بالنسبة لبليخانوف ومارتوف، مغامرة العنف تمارسها أقلية مشاغبة. يتمسك لينين بأن لا يُصنف كمغامر متمرد، ولذلك فهو ينكر كونه بلانكياً. وبالرغم من ذلك فليست النظرية اللينينية للانتفاضة نقيض البلانكية بل امتدادها، استناداً الى بعض التجارب. إن اليعقوبية والبابوفية والبلانكية والبلشفية هي مراحل في الطريق نفسه: فهي المؤامرة التي تتطعم بها الانتفاضة الشعبية. وهي الطليعة التي تقود الجماهير تلك هي نظرية الانتفاضة الأكيدة والموجهة لا المستسلمة لغريزة الجماهير الارتجالية والافتراضية. وهي المدرسة التي تنتزع من التقنيين ومحترفي الحروب سر المعركة وتسلمه للكوادر الثورية. من هنا فإن الحاح لينين وهو يردد: «لسنا بلانكيين» ليس له

سوى قيمة حرب كلامية مبتذلة.

ولكن لينين لم يكن يعرف ولم يكن بإمكانه أن يتعرف على ايديولوجية بلانكي الانتفاضية. حتى اليوم، تبدو بعض كتاباته غير واضحة تماماً. إن أحداً لم يعط بعد، لا في فرنسا ولا في غيرها، دراسة نقدية كاملة حول نظرية الانتفاضة لدى بلانكي: فدراسات السنوات الأخيرة هي مفيدة بالتأكيد ولكنها ناقصة. وفي الزمن الذي كان لينين يكتب فيه عن البلانكية، كانت الوثائق الأكثر أهمية مجهولة تماماً. ومن بينها مخطوطاته التي أودعها غرانجر (Granger) المكتبة الوطنية في باريس، والتي لم يبدأ الناس بالتعرف عليها إلا بعد العام ١٩٣٠. في موضوع البلانكية، يبقى نقد الديمقراطية البورجوازية مسيطراً حتى اليوم، هذا النقد المعجب فقط بالانتفاضات الشعبية التي استفادت منها وبكون اي انتفاضة أثارها بلانكي لم يكللها النجاح قط. إن أي حكم سريع لن يقبل أبداً ان يُعتبر قائد خسر كل معاركه مُعلماً في الاستراتيجية. كان تروتسكي يملك معلومات أكبر عن بلانكي، وفي كتابه «تاريخ الثورة» الذي يتحدث في مجلده الأخير عن البلانكية، هذا المجلد الذي يعود لسنة ١٩٣٣، فهو يفيه حقه الى حدٍّ ما. ولكنه وقع هو أيضاً في أخطاء نستطيع اليوم ان نبيّنها بسهولة. يقول تروتسكي: «إن خطأ بلانكي الأهم يكمن في مطابقة الثورة مع الانتفاضة».

لم يقم بلانكي بهذا الخلط بتاتاً. فهو يعتبر ان الانتفاضة هي الوسيلة الوحيدة التي بها تبدأ الثورة. كذلك الأمر بالنسبة لنا تماماً. نحن نعتبر ان الانتفاضة البلشفية، مثلاً، هي اعمال العنف لشهر تشرين الأول ١٩١٧ والتي بدأت وانتهت في ذلك الشهر. بينما الثورة البلشفية هي الدورة التي بدأت مع انتفاضة ١٩١٧ والتي لا تزال قائمة. وبلانكي أيضاً يعتبر ان الثورة شيء والانتفاضة شيء آخر. فالانتفاضة هي العمل العسكري، هي حرب الشوارع التي توصل الى السلطة؛ اما الثورة فهي الفترة التي تنشأ خلالها الدولة الجمهورية والتي تتحقق فيها الديمقراطية والاشتراكية بمواجهة الرجعية الملكية ورجعية رجال الدين والبورجوازية. ثمة إذن مفهومان ومرحلتان منفصلتان ومتميزتان بوضوح. ففي الأعلان الموجه الى الشعب من أجل انتفاضة ١٢ أيار ١٨٣٩ يحتل القادة العسكريون (انتفاضة) مكانهم في قسم من النص بينما يحتل القادة السياسيون (ثورة) في الحكومة المؤقتة مكاناً آخر. في هذا النص أعيدت كل الأسماء نفسها تقريباً، هذا صحيح، لكننا لا نستطيع القول إنه، إذ قاد تروتسكي انتفاضة سان بطرسبرغ في

١٩١٧، واذ أصبح فيما بعد عضواً في حكومة الثورة، قد خلط بين الانتفاضة والثورة. في نقد بلانكي لانتفاضة شباط ١٨٤٨ وللفشل السياسي الذي أعقبها، يُبرز نجاح الانتفاضة وانهيار الثورة. ويوضح ان انتصار الانتفاضة يمكن إنقاذه فقط بديكتاتورية الثورة المؤقتة. إنه لم يخلط بين الانتفاضة والثورة، وهذا ما فهمه تيير (Thiers) جيداً. وهو إذ أبقاه في السجن، رفض رفضاً قاطعاً اعادته الى الكومونة التي كانت تقدم بدلاً عنه رئيس أساقفة باريس وأخته وأربعة من الوجهاء المحتجزين كرهائن بمرسوم الخامس من نيسان (أبريل)، وأخيراً كل الرهائن الأربعة والسبعين. كان تيير يعلم انه بتسليمه بلانكي الى الكومونة فهو لا يعطيها فقط «قوة فيلق» بل زعيم الثورة.

يقول تروتسكي: «إن خطأ بلانكي هو انه كان مقتنعاً بأن احترام قوانين التكتيك الانتفاضي يؤمن له وحده تحقيق النصر».

ولكن هل نستطيع لوم قائد عسكري يقود جيشاً على اقتناعه بحتمية معرفة واحترام الفن العسكري من أجل تحقيق النصر؟ وهل بإمكان أي ماركسي ان يلوم بلانكي على اعتباره الانتفاضة فناً. وإن كنا بعد هذا اللوم نفضل إبطال الأهمية التي كان يوليها للمتاريس في معركة الانتفاضة، كيف لا نأخذ بعين الاعتبار الأهمية الحقيقية للمتراس خلال القرن الماضي، ليس فقط نظرياً بل عملياً أيضاً؟ لقد كان بلانكي ممثلاً في انتفاضة ١٨٣٠؛ وفي انتفاضة شباط ١٨٤٨، إذ كان في مستشفى تور (Tours) حيث استطاع البقاء في باريس منذ اليوم الثاني أي في الخامس والعشرين. وعندها كانت المتاريس هي التي تمكنت من القوات المسلحة الملكية بسهولة وفي كلتا الانتفاضتين. وعند جنازة الجنرال لامارك (Lamarque) في ٥ حزيران ١٨٣٢، أخفق الستون ألف رجل من القوات النظامية للحرس الوطني في التغلب على خوالي مئة متمرد عند حاجز شارع سان ميري. وفي ليون، في تشرين الثاني ١٨٣١، قاومت انتفاضة عمال النسيج القوات الملكية بالمتاريس. وفي عام ١٨٣٤ تمرّد هؤلاء العمال أنفسهم في ليون لمدة أسبوع خلف لمتاريس، الأمر الذي استنفر كل الرجعيين في فرنسا. وقد انتهت كلتا الانتفاضتين بسحق المتمردين، لكن العبرة بالنسبة للشعب وبالنسبة للثوريين كانت مهمة. وفي ميلانو، عام ١٨٤٨، طردت المتاريس، التي نصبت في المدينة، واحداً من أفضل الجيوش تنظيماً في أوروبا، والذي كان بأمرة مارشال مثل راديتسكي. (Radetsky). أما في فيينا وفي برلين وفي نفس العام ١٨٤٨؛ فقد أجبرت المتاريس جيوش الامبراطورية

والملكية على الاستسلام. فالمتاريس هي إذن النظام التكتيكي للعصر، وبفعل ذلك النظام تمكن المتمردون من إنهاك القوى المسلحة للرجعية وإعاقة إمدادها بالمواد الغذائية والعتاد، ومن إرباك مناورتها وإجبارها على مغادرة المدينة. قال كاتانيو (Cattaneo): «هي عقيدة جديدة تُلحق العار بالجيوش النظامية وتنال من رصيدها».

هل كان بإمكان بلانكي ان يبقى لا مبالياً بتلك الأمثلة؟ يحتوي كتابه الأفضل والأكثر نضوجاً في ميدان حرب الشوارع واسمه «تعليمات من أجل التسلح» «Instructions pour une prise d'arme» والذي يعود تاريخه على ما يبدو الى العام ١٨٦٩، يحتوي أفكاراً مفيدة جداً. وهو يعالج فيه تقدم تقنية الرجعية تجاه الانتفاضة على ضوء التعاليم الجديدة. فوق كل ذلك، تُعتبر متاريس حزيران ١٨٤٨ كمثل للجهل والتردد اللذين سمحا لحكومة مضعضعة كلياً ولجيش معنوياته منهارة أن يكون متفوقاً. وهو ينتقد ذلك بشكل رائع.

إن نظريته ودراساته كلها قيّمة بالنسبة لباريس وهذا طبيعي. كل شيء كان يكمن في طرد القوات المسلحة خارج باريس. هذا النجاح وحده كان كفيلاً بتحقيق النصر للانتفاضة والهزيمة لفرنسا كلها. لقد تمكن جيش راديتسكي، بعد ان طُرد من ميلانو في آذار (مارس)، من تنظيم نفسه في الموقع المربع (Quadrilatère)[1] ودخول المدينة المهجورة في آب؛ أما الجيش الامبراطوري، المنهزم في فيينا في آذار وأيار، فقد أعاده إليها نهائياً جيلاشيك (Jellachic) في تشرين الثاني. وجيش فريدريك غليوم الذي هزم في برلين في شهر آذار عاد إليها منتصراً مع ڤرانفل (Wrangel) بعد ثمانية أشهر. لكن ماذا فعل الجيش الملكي المهزوم في باريس؟ لقد انصاع لأوامر الجمهورية.

تلك كانت الغلطة الوحيدة لبلانكي الذي لم ير إلا باريس. هذا الخطأ هو الأسلوب الفكري لكل اليعاقبة ولأتباعهم في القرن التاسع عشر. إن باريس هي التي تسيطر على ثورة ١٧٨٩ بكاملها حتى ١٧٩٣ والمديرية والقنصلية وأخيراً الامبراطورية. باريس هي التي ستُصفي نابليون، وشارل العاشر، ولويس فيليب. إن الملكيين انفسهم يتبعون هذا القانون الدستوري، وهم لم يفكروا حتى بالمقاومة او باستعمال جيوشهم التي لم تكن قد مُسّت بعد خارج قلاع العاصمة. إن جمعية فرساي التي عزلت باريس عن بقية فرنسا،

---

(١) هو مربع لومبارديا، وهي منطقة تاريخية ايطالية محصورة بين اربعة اماكن تاريخية محصنة ليشييرا وفيرونا.

وأنكرت عليها كل سلطة، أبطلت سحر تقليد قديم. لم يجرؤ أحد فيما بعد على إعادة هذا التقليد: كذلك بولنجيه (Boulanger). ولم يكرر هذا التقليد، وذلك جزئياً، إلا دالاديبه (Daladier)، وهو آخر اليعاقبة من حيث التسلسل الزمني، الذي أعاد لباريس حقوقها الكلية والسيادية يوم تخلى عن السلطة تحت ضغط أربعة من الدمى.

لذلك، قد يبدو بلانكي من المعاصرين حتى اليوم في فرنسا.

وقد قال تروتسكي أيضاً: «إن التآمر لا يحل محل الانتفاضة. فالأقلية البروليتارية الناشطة، مهما تكن منظمة، لا تقوى على الاستيلاء على السلطة. إن هذا ما يجعل التاريخ يصدر حكمه على البلانكية **دون سواها**».

ولكن الأمور لا تسير على هذا النحو، ولا يُمكن للتاريخ ان يصدر حكمه على البلانكية حتى في ذلك. إذ ان بلانكي لم يفكر أبداً ان يستبدل الانتفاضة بالتآمر. ولم يفكر قطعاً ان يمتلك السلطة بأقلية فقط، أي بمعزل عن الوضع العام في البلاد. وهذا خطأ شائع حتى عند النقاد ذوي النية الحسنة. ومن أجل تصحيح هذا الخطأ، لا بد من إعادة عدد المحاولات الانتفاضية، المنسوبة الى بلانكي، الى حجمها الحقيقي بعد أن ضخمه الأدب. لقد قضى بلانكي أكثر من نصف حياته التي دامت ٧٦ عاماً في السجن، لكن كثيراً من الاتهامات، الموجهة ضده، **تعود** فقط الى نشاطه اللاشرعي خلال الحقب الرجعية وليس الى محاولات انتفاضية. إن الانتفاضات المزعومة التي جرت في ١٥ أيار ١٨٤٨ وفي ٣١ تشرين الأول ١٨٧٠، حيث حُكم في الأولى بالسجن مع الأشغال الشاقة لمدة عشر سنوات، وفي الثانية بالمؤبد، لم تكن انتفاضات إلا في رواية الاتهام. وفي الواقع كانت عبارة عن مظاهرات شعبية متوسطة التنظيم من أجل الضغط على السلطات القائمة. وتتوافق انتفاضة ١٥ ايار مع تحرك شعبي عفوي، في حين أن البورجوازية الملكية أقامت حولها ضجة كبيرة. فقد اعترضت البروليتاريا والبورجوازية الباريسية الصغيرة ضد ملاكي المقاطعات الذين كانت تتكون منهم أغلبية الجمعية التأسيسية. فباربيس (Barbès) بالذات، الذي كان يعارض المظاهرة والذي حمل ناديه على الامتناع، استدُرج اليها وانتهى في دار البلدية. حتى لوي بلان (Louis Blanc) الذي لم يبارح قاعة الجمعية والذي لم يعمل إلا على محاولة وقف التظاهرة، كان ضحية طلب للسماح بالمرور رُفض بـ ٣٦٩ صوتاً فقط ضد ٣٣٧. كانت الرجعية قد أثبتت وجودها بشكل قاطع. فلم تُطلق أي طلقة بندقية خلال النهار كله.

إن الانتفاضات المسلحة الوحيدة، بالمعنى الذي يُعطى لها في القاموس السياسي والتي حاولها بلانكي، هي تلك التي وقعت في ١٢ أيار ١٨٣٩ ضد لوي فيليب، وتلك التي حدثت في ٢٤ آب ١٨٧٠ ضد الامبراطورية. هذه الأخيرة عجَّلت بها الأحداث، ولكنها لا تقدم تقنية التحضير التي تمتاز بها الأولى. كان بلانكي في بروكسل عندما بدأ ريش قبعة نابليون الثالث يتطاير في الهواء. وقد أثبت البروسيون، منذ الصدامات الأولى، تفوقاً غير متوقع في المناورة. وقد أدهشت أخبار الهزائم الأولى للامبراطور، أي رايسهوفن (Reishoffen) وفورباخ (Forbach)، أدهشت أوروبا وجعلت باريس تختلج. فتيقَّن الجميع ان استقرار الامبراطورية، الذي كان منذ سنوات متأرجحاً أصبح عرضة لأول هبة ريح. عندها اندفع بلانكي الى باريس وجمع خلال ٢٤ ساعة أفضل مجموعة من حزبه، لا تتعدى الـ ٣٠٠ شخص، وحاول أن يهزّ الشعب ويستدرجه للتمرد من خلال العنف. وشارع لا فيليت (La Villette)، حيث نفذ محاولته الأولى، هو واحد من الأحياء الأكثر شعبية في باريس. وكانت ثكنة الاطفائية، حيث أمل إيجاد احتياطي كبير للتموّن بالسلاح، مركزاً ديمقراطياً. لكن الاطفائيين رفضوا تقديم أسلحتهم والانضمام الى الجمهوريين. وبعد أن فُرّق هؤلاء الجمهوريون ببضع ضربات من مفرزة من رجال الشرطة كانت قد أسرعت الى المكان، ساروا أرتالاً في جادة بلفيل وعندما لاحظوا لا مبالاة عامة، تفرقوا بأمر صريح من بلانكي.

تلك هي قضية لا فيليت التي تثير البسمة لدى كبار المخططين الاستراتيجيين. ثمة ما يدعو، طبعاً، للابتسامة اذا وضعنا الحدث في إطاره الحالي أي في باريس كانون الأول ـ ديسمبر ١٩٣٥ وفي الوضع الحالي العام. بالطبع قد يكون منظراً يثير الفضول أن نرى مثلاً ليون بلوم (Léon Blum) مع ٣٠٠ فدائي يثورون حول ثكنة الاطفائيين في جادة السان ميشال ثم يحاورونهم ويحرقون بضع خرطوشات حول حي «المدينة» (La Cité) ويتراكضون بين الحي اللاتيني والشاتليه (Châtelet) في طول الشوارع أو على الأرصفة بينما يلازم الناس أرصفة المقاهي، أو يواصلون الصيد بالصنارة على ضفاف نهر السين. لكن الوضع العام كان يختلف عما هو عليه اليوم، ففي الرابع من أيلول، أي بعد ثلاث أسابيع، كانت باريس تعلن الجمهورية.

ثمة مبالغة في الاصرار على أن المحاولة كانت كاملة. ولكن يجب وضعها من جديد في إطارها وفي حدودها الحقيقية.

على أي حال، لم يمتدح بلانكي قط يوم الرابع عشر من آب - لا في المفهوم ولا في التنفيذ. واعترف في الحال بعدم ملاءمة هذا العمل وعدم جدوى مواصلته بمجموعته الصغيرة فقط. كان يأمل أن الجماهير سوف تنتفض وتسانده، اي انه كان يعتقد أن الوضع العام كان مؤاتياً. لقد أخطأ في الممارسة، لا في النظرية. وقال للرتل قبل تفريقه: «لا نقوى على شيء بدون الشعب». وفي ذلك القاء الضوء على نظريته في الانتفاضة.

لقد اعتبر نفسه مسؤولاً عن فشله، لا الشعب. واعترف بخطئه، إذ ان الساعة لم تكن بعد قد حانت، أي انه كان قد اعتبر أن الوضع مؤاتياً بينما هو لم يكن بعد كذلك. وهو الذي قال ذلك وكتبه كي يُجنِّب الآخرين الوقوع في نفس الخطأ مستقبلاً. وتوصل في النهاية الى تحميل نفسه دون سواه المسؤولية الكاملة لفشله، واعترف أنه اتخذ في بروكسل، بعيداً عن ميدان العمل، قرارات متسرعة لم يكن الوضع يسمح باتخاذها. إن غلطة القائد لا تُعوض إلا نادراً. إنها فكرة انغلز بالذات هي التي سيرددها لينين غالباً: «يجب أولاً، ان لا نلهو قط بالانتفاضة».

تعكس انتفاضة الثاني عشر من أيار ١٨٣٩ بوضوح جوهر البلانكية. لقد كانت المنظمات السرية البلانكية أي «جمعية العائلات» (Société des Familles) أولاً ثم «جمعية الفصول» (Société des Saisons) تتهيأ منذ زمن بعيد وتنتظر الوضع الملائم. كانت تلك المنظمات سرية لكن الدعاية السياسية كانت تخرج عن الحدود الضيقة للفحّامية (Carbonarisme) المغلقة. لم يكن مطلوباً تثقيف ارستقراطية لجأت الى قمم الأولمب فقط، بل أيضاً وبشكل خاص الانضمام الى الشعب والتغلغل في القوات المسلحة. ثمة مفارز من المشاة أبعدت من باريس الى افريقيا، لاتهامها بأنها انحازت الى الدعاية البلانكية. وكانت صحف سرية تنتشر في الأحياء الشعبية. وكان الرد العنيف في اتجاه محاولات اغتيال فردية غير بلانكية ومؤامرات من كل نوع. وأصبحت باريس تعج بالجمعيات السرية.

في عام ١٨٣٩ تفاقمت الأزمة السياسية عندما حصلت أزمة اقتصادية ومالية خطيرة لا تختلف كثيراً عن تلك التي تجتازها حالياً فرنسا وأوروبا. وقد اظهرت في الولايات المتحدة مع التضخم ثم وصلت الى انكلترا وأخيراً الى فرنسا. وفي شهر أيار (مايو) كان الوضع كما يلي: اختلال في الميزانية، وخفض في قيمة العملة، وزيادة الأسعار، وافتقار

البورجوازية الصغيرة، والبطالة، والأجور المخفضة للطبقة العاملة، والافلاس، والحذر في الطبقات الحاكمة. وقد تفاقمت الأزمة مع الانتخابات. وكانت المعارضة قد خرجت منها منتصرة، لكن الأزمة البرلمانية كانت قائمة منذ شهرين دون التمكن من إقامة حكومة دستورية. في الواقع، كان ذلك كثيراً ان تدوم أزمة لمدة شهرين، حتى في القرن الماضي. وكان التململ الشعبي أمراً واقعاً وليس افتراضاً وقد تجلى في المظاهرات والمصادمات مع قوات الأمن والاعتقالات.

قرّر بلانكي الانتفاضة في ذروة تلك الأزمة. وقد بدا الشعب مهيأً بما فيه الكفاية. وحدد العمل في ١٢ أيار الساعة الثانية والنصف ظهراً متذرعاً بعدة أسباب. إن الأزمة البرلمانية، وبعد فشل ستة تعديلات، قد تجد حلاً لها في الغد مع تقديم الماريشال سـو (Soult) للمجلس. ثم ان الثاني عشر هو يوم أحد وفي ساعة الصفر يكون قسم كبير من البيروقراطية العسكرية والسياسية في السباق والحرس الوطني مبعثراً. اما في حامية باريس فقد بدأ تبديل الافواج في الوقت الذي لم يعتد الوافدون الجدد على المدينة بعد. كل شيء كان مهيأ بدقة عسكرية: المعلومات عن العدو، ودراسة الأرض، والتجميع، والسلاح، والذخيرة، وسير الأرتال. وقد بقي السر محفوظاً بإحكام.

كان المخطط هو التالي: الانطلاق من شارع سان مارتان ثم مهاجمة قسم الشرطة وهو مركز القيادة العامة للدفاع عن الملكية في باريس، وتحويل حي «السّيته» (La Cité) الى رأس جسر على الضفة اليسرى لنهر السين وخلفه القسم الأكبر من الأحياء الشعبية ودار البلدية حيث ستقيم الحكومة المؤقتة كما في العام ١٨٣٠. ولن تكون متاريس «السّيته» وسيلة للدفاع حيث تنزوي الانتفاضة بل معسكرا محضاً ينطلق منه الهجوم لاحتلال المدينة.

وقد شكل المتمردون ـ الذين قدروا بين ٥٠٠ و٨٠٠ رجل ـ طليعة مسلحة قاتلت بجرأة وحزم منقطعة النظير. لم يكن بلانكي وباربيس ومارتان برنار سياسيين فقط بل كانوا أيضاً قادة عسكريين يضحون بأنفسهم. وقد تهافت من حولهم افضل الجمهوريين من بقية الجمعيات السرية كالقطعات العسكرية الجيدة التي تتجمع على صوت المدفع.

أخفق الهجوم الرئيسي بسبب مقاومة قسم البوليس، لكن المقاتلين انتشروا حول دار البلدية وفي الأحياء المحيطة بها. وتوالى الهجوم على يمين السين حيث أقيمت المتاريس في الحال بمواجهة الحرس الوطني والحرس البلدي ومفارز المشاة التي هبت الى المكان تحيط به إحاطة جيدة. تلك المتاريس التي بدت مرتجلة كجهاز دفاعي للتعويض عن أول فشل

يحصل، كانت بالعكس مرسومة بتخطيط عجيب مهيأ بتفصيل من أجل الاستفادة من الأرض وإعادة اللحمة مع الأحياء الشعبية وإثارة تطورات هجومية حول سان دنيس وسان مارتان ولي هال (Les Halles) وهي الأحياء المتمردة تقليديا، والتي أصبحت النقاط الساخنة في الهجوم. ولم يستطع جيش لوي فيليب السيطرة على الموقف نهائياً إلا عند حلول الليل، وبعد سلسلة من المعارك المستميتة. ولكن في الغد ظهرت متاريس جديدة تتحدى القوات التي عسكرت خلال الليل في الشوارع، وأصبح حي التامبل (Temple) مركزاً للمقاومة. وقد خمدت الانتفاضة مع محاولة تحريض طلاب مدرسة البوليتكنيك وبعد عملية اختراق هجومية جريئة على الضفة اليسرى لنهر السين. لقد اخفقت تلك الانتفاضة لأنها لم تتوصل الى استمالة الجيش والى تحريك الشعب.

إذن لم يكن الوقت مناسباً هذه المرة أيضاً. لم يكن الشعب مُحركاً بما يكفي. ولا يوجد ميزان بوسعه ان يسجل علمياً حرارة الشعب، وهذا ما يشكل العنصر المجهول في كل انتفاضة ومقدار المجازفة في كل ثورة. لو لم يكن كذلك لكانت الانتفاضة دوماً عملية مؤكدة لا خطر فيها ولا مجازفة أو نوعاً من الادغام الكيميائي نرسِّبه عند امتلاك كل العناصر التي يتطلبها الاختبار المخبري. ثمة أوقات تبدو ملائمة وهي ليست كذلك وأوقات مؤاتية فعلاً بينما يبدو كذلك بما فيه الكفاية. وتنتمي انتفاضة الثاني عشر من أيار الى الصنف الأول بينما تنتمي الانتفاضة البلشفية الى الصنف الثاني. يبدو لنا اليوم أن العميان بالذات كان بوسعهم ان يروا ان ذلك الوقت كان الأكثر ملاءمة للبلشفيين. إنما لولا سلطة لينين لكان محتملاً جداً ان تتحول تلك الساعة الى انتظار ساعة عجائبية أكثر ملاءمة. لو توجَّب المطالبة بضمان أكيد للنجاح في كل مرة قبل الاقدام على شيء لما قامت أي محاولة انتفاضية قط.

ليس بوسعنا أن نتهم البلانكية حتى في انتفاضة الثاني عشر من مايو. كما أننا لا نستطيع اتهام البولشفية على انتفاضة ١٩٠٥ او تلك التي جرت في الثاني والرابع من تموز (يوليو) ١٩١٧. ان هاتين الانتفاضتين ساهمتا بالتأكيد في إنجاح انتفاضة أكتوبر. كذلك ساهم الثاني عشر من أيار ١٨٣٩ في انتفاضة شباط ١٨٤٨. إن الكومونة بالذات مدينة للتجارب البلانكية. هذا بالتأكيد ما دفع الكومونة في أول جلسة لها الى اعلان بلانكي الغائب رئيس شرف مع ان بيان الحزب الشيوعي كان قد صدر منذ عشرين عاماً. وتُنسب الكومونة لبلانكي كما تُنسب انتفاضة اكتوبر لماركس وانغلز.

الفصل الرابع

انتفاضة مزّيني(Mazzini)

لا بد للايطالي الذي يعالج موضوع الانتفاضة ان يذكِّر بمزيني الذي سماه الكونت كافور (Cavour) «زعيم قتلة سافل وشيطان» بجمل دبلوماسية مُنمقة.

إننا لا نريد أن نذكِّر هنا بعمل «غويسيبي مـزيني» المفتوح من خـلال مبالغتـين أو ثلاث موضوعة في مكانها. بالعكس ان بحثنا النقدي السريع في هذاالعمل لن يكون من أجل المديح. فإن كل القرن التاسع عشر الايطالي يحمل طابعه. إنما نقـدنا للذي كـان العامل الأول من أجل الوحدة الوطنية والحركة الديمقراطية، نقدنا لعظمته ليس مهيناً.

لم يكن لمزيني نظرية في الانتفاضة. لكن نشاطـه، منذ تـأسيس «إيطاليـا الفتاة» في ١٨٣١ وحتى ١٨٧٠، لم يكن سوى نشاط انتفاضي عدا بعض فترات الجمود. «لا بد من اقناع الأفراد أو الفرد الذي يريد العمل، أنه يكفي ذكر المبادرة الايطالية من أجل ان يلحق بهم النـاس وان الصرخـة الأولى ستحدث صـدى في كل مكـان» تلك كانت قناعته المهيمنة، منذ حملة السافوا، والتي لم تتبدل فيها بعد رغم تجاربه السلبية. «محاولة فاشلة ؟ لماذا ؟ فلنحاول من جديد حتى تحقيق النجاح. هكذا ننجح». هذه ليست كلمة قائد عسكري بل كلمة رسول.

كان قد حاول تثبيت مبادئه في كتابه «حول حرب الانتفاضـة التي تناسب ايـطاليا» الذي أصدره بتاريخ ١٨٣٣، والذي اتبعه بـ« تعاليم للعصابات الوطنية» لكن الأسس التي انطلق منها لم تكن صحيحة، وهكذا أضحى بناؤه كله مغلوطاً. في هذا الكتاب،

كان يستلهم الأمثلة التاريخية اي مناهضة هولندا لفيليب الثاني، والولايات المتحدة لأنكلترا، واليونانيين للأتراك، ومناهضة المانيا واسبانيا وروسيا لنابليون، بينما لم يقم وضع كهذا في ايطاليا. اما عام ١٨٤٨ فسوف يكون عمل الجماهير المدينية، كذلك عام ١٨٥٩ وحملة الألف لن تكون أكثر من عملية قرصنة.

كان يؤمن بالعصابات وكانت عصابة ميشيل مانينو (Michel Manino)، التي عملت حول موندوڤي لمدة ستة أو سبعة أشهر، تبدو مثالاً بوسعنا ن نحتذيه، وكانت بقية العصابات، المشهورة نسبياً من قطاع الطرق الحقيقيين والمصنفين كذلك في الابينين (Apennin) وليغوريا والموليج وكمبانيا (وكان قد نسي سردينيا التي كانت تعد منهم الكثيرين)، كانت تُقوّي قناعته بإمكانية خلق عصابات وطنية ـ «مئة نواة» ـ بوسعها ان تبدأ العمل.

إن كتاب «تعاليم للعصابات الوطنية» (Instructions pour les bandes nationales) عمل تقني. وفيه يستهلم كتاب كارلو بيانكو (C. Bianco) الصادر في فرنسا سنة ١٨٣٠ والمقصود بيانكو نفسه، القائد في حملة السافوا. فالعصابات هي الطلائع المسلحة ورسل الأمة الذين يدعونها الى التمرد. وهي النواة الأولى للجيش الوطني في المستقبل.

تُختصر التعاليم في ٤٢ بنداً منظّماً توحي بثقافة مهنية مجربة، وهي قابلة نظرياً لأن تُملى حتى على عصرنا. واذا قدمت في كُتيب سري، كان يجب ان تبدو مفيدة للمتآمرين في ذلك العصر. وقد أولاها مزيني أهمية جدية الى درجة انه أعاد طباعتها مع تعاليم اضافية في العام ١٨٤٩ خلال الجمهورية الرومانية، وفي العام ١٨٥٣ في المنفى. ويُرجَّح أن يكون نظر اندريا كوستا (A. Costa) قد وقع على نسخة فريدة عندما فكر سنة ١٨٧٤ بتحريض إيمولا (Imola) مع عصابات بروليتارية. لكن المشروع انتهى الى الفشل بحيث انتقل ايمولا الى الاصلاحية.

بعد هذه الكتابات لم يعد مزيني يهتم بالتنظير حول الانتفاضة وأضحى نشاطه عملياًت وتجريبياً صرفاً.

كانت حملة السافوا تجربته الكبرى الأولى.

كانت هذه الحملة كارثة حقيقية من وجهة النظر العسكرية. لم تتخطها في أيامنا هذه سوى الحملة الكتالانية بقيادة الكولونيل ماسيا (Macia). ولا بد من الاعتراف أن

المنظَمَيْن مزيني وماسيا لم يكن لهما مزايا عسكرية واضحة، بالرغم من وصول هذا الأخير الى رتبة عقيد في الجيش النظامي. لكننا نعلم ان الظواهر ليست الأساس. تتشابه الحملتان كثيراً كنقطتي ماء بالسذاجة التي قادتها كما تتشابه في مواضع أخرى أيضاً. واذا مزجنا الأثنتين أضحتا، بالطبع، تستهدفان خلط اللغات (حملة مزيني ايطالية ـ بولونية وسويسرية ـ المانية وحملة ماسيا ايطالية ـ كتالانية)، وكانت كافية بينما كانت تنقصها الجدارة العسكرية. وكان لكل من الحملتين خونتها الكبار، إذ أنه في الحملة الكتلانية فقد مثّل مارس ريتشيوتي (Ricciotti) دور الجنرال رامورينو (Ramorino) في حملة مزيني. وفي كلتا الحالتين كانت الشرطة في البلدان المعنية على اطلاع واسع بما يجري. لكن رتل مزيني استطاع قطع الحدود بلا عائق، بينما استُقبل رتل ماسيا بمجموعة كاملة من القطعات الفرنسية ـ الاسبانية التي كانت تنتظره منذ ٢٤ ساعة.

كثرت الأصداء على هاتين المحاولتين بعد حدوثهما. إذ أن الرأي العام يهمل أحياناً التفاصيل التقنية وتَلفت انتباهه القيمة الأخلاقية الشاملة. وأن تتمكن الأرتال من التسلح والتقدم، في أوقات بتلك الصعوبة، كان يمثل بعين الجمهور عملاً ناجحاً. ترجع شعبية غاريبالدي الكبيرة والحقيقية في ايطاليا الى معركة فيليتري (Velletri) الصغيرة التي حدثت في ١٩ أيار ١٨٤٩ ضد جيش البوربون خلال الدفاع عن الجمهورية الرومانية. تلك لم تكن حتى معركة بالمعنى الحقيقي بل طفرة طليعية. كانت أيضاً مخالفة عسكرية خطيرة. لكنها لفتت نظر الرأي العام.

لقد حمّل المَزّينيّون كلهم مسؤولية عدم نجاح حملة السافوا للجنرال رامورينو (Ramorino) الذي لم يتجرأ أحد، على أي حال، باتهامه بالخيانة إذ ان سطوته كانت عظيمة، هذا المغامر البائس، بالرغم من سلوكه الفوضوي والملتبس. ويُشكل تسليمه مقادير الحملة بأكملها خطأً لا يُغتفر. إنّما عن إمكانية تحول الانتفاضة في السافوا بدونه الى انتفاضة ايطالية، كما يؤكد مزيني، فهذا لا نستطيع تصديقه. لم يكن الوضع الايطالي ناضجاً من أجل الانتفاضة. حتى السافوا لم تكن كذلك. إن الرتل المستقل المكون من ٢٠٠ فدائي، الذي انطلق من غرينوبل ليلتحق برتل مزيني، لم يكن في صفوفه خونة. ومع ذلك فقد لقي لدى سكان سافوا وضعاً لامبالياً تقريباً وأجبر على السقوط في الأيشيل (Echelles) بعد معركة صغيرة. فلم يكن الوقت مؤاتياً بعد.

كانت الحملة ستفشل تقنياً من خلال الطريقة التي نظمها بها مزّيني ورفاقه الأكثر

إخلاصاً، وذلك حتى لو كان رامورينو قائداً بالغ الثقة. فبعد ان حُددت في شهر تشرين الأول ١٨٣٣، أرجئت الى تشرين الثاني ثم من اسبوع الى اسبوع حتى ٢٥ كانون الأول وأرجئت مرة اخرى الى كانون الثاني، حيث لم تبدأ إلا في أول شباط ١٨٣٤. كانت الشرطة في بزن وجنيف وفرنسا والنمسا والبييمون على علم بكل ما يجري. في ظروف مشابهة، نتخلى عن المشروع نهائياً من أجل إعادة تنظيمه إذا اتيحت الفرصة برجال آخرين وفي أوقات أفضل. لكننا لا ننجر أبداً وبأي ثمن مع ألف رجل تقريباً (متطوعو الحملة لم يكونوا أقل من سبعمئة) إلى هزيمة مؤكدة. كتب مزيني: «عندما يصل مشروع الى درجة ما من التطور، يسيطر على الانسان ولا يعود يسمح له بالانسحاب». عسكرياً هذا خطأ. ففن الحرب يفرض الانسحاب أيضاً عندما يكون هذا الانسحاب ضرورياً للخلاص من هزيمة محتومة لا لزوم لها. كان تجميع المتطوعين حول جنيف كرنفالاً بكل معنى الكلمة ساهمت فيه الشرطة بنزع السلاح ومظاهرات شعبية ومواكب وصخب وخطابات وتصفيق.

بلغت حملة السافوا قيمة سياسية عالية. عسكرياً كانت مزيجاً من الأخطاء التي لا تُغتفر.

لقد وُجدت النواقص نفسها في تقنية التنظيم في جميع المحاولات المتتالية التي قادها مزيني. التحضير ناقص دوماً، على أمل ان الشعب يصحح بمبادرته نواقص الطلائع المتهورة. لكن الشعب ليس آلة اوتوماتيكية تنطلق بإرادتنا. لقد كان الوضع كذلك في محاولة ٢٨ تشرين الأول ١٨٤٨ في لومبارديا العليا التي انتهت في وادي انتلفي (Val d'Intelvi) بشكل يُرثى له. كذلك بالنسبة لمحاولة السادس من شباط ١٨٥٣، في ميلانو، التي كان لا بد ان تثير عاصفة من الانتقادات والمجادلات فيما بعد بين خصومها كما في صفوف انصارها أنفسهم. كذلك بالنسبة لحملة عصابة اورسيني (Orsini) الذي كاد ان يصل؛ بأربعين من رجاله، مصب نهر الماغرا في الثالث من أيار ١٨٥٤ والذي كان لا بد ان يثير الاعتراض العام والمستنكر من قبل غاريبالدي. كذلك أيضاً بالنسبة لحملتي جنوى واليفور (Livourne) اللتين كانتا ستتوافقان ختماً مع حملة بيزاكان (Bisacane).

كانت حملة بيزاكان تشكل عبئاً على بيزاكان نفسه وليس على مزيني رغم الرأي العام العالمي المناهض. بالطبع، كان مزيني هو المحرض على المشروع لكن القائد العسكري.

المسؤول كان بيزاكان وحده. وحتى اليوم، يبدو غريباً ان يكون هذا الرجل قد انجر الى سلسلة من الأخطاء بهذا الحجم، هو الذي كان يملك ثقافة مهنية عالية، والذي حارب سنة ١٨٤٨ برتبة نقيب، والذي تبوأ بامتياز رئاسة أركان الجيش في الجمهورية الرومانية عام ١٨٤٩. لقد كان من قبيل المغامرة ان ينطلق بيزاكان باثنين وعشرين رجلاً (٢٢ بالضبط، بما فيهم بيزاكان، بعد اخفاق لقائهم بعصابات روزولينو بيلو (Rosolino Pilo) الذي كان برفقة ١٧ رجلاً) للاستيلاء على مملكة، حتى ولو كانت مملكة نابولي التي احتلها شارل السابع «بسهولة كلية». اثنان وعشرون كانوا قليلين حتى بالنسبة لنابولي بحكم البوربون. بعد ثلاث سنين انطلق غاريبالدي بألف رجل (لقد أركب في جنوى ١١٢٠ رجلاً وانزل منهم في مرسالا (Marsdala) ١٠٨٩ بعد تقاطع تالامون) وذلك فقط بعدما وُضعت باليرمو وترابانى (Trapani) وميسينا وكتانا (Catane) ومرسالا (Marsala) وأغريغنتي (Agrigente) وكالتانيسيتا (Caltanisetta) وكورليوني (Corneone) في حالة تمرد.

في حملة سابري (Sapri) المشؤومة تلك، كان غاريبالدي قد رأى الأمور بوضوح منذ شباط عندما رفض قيادتها لأنه لم يرَ فيها أي إمكانية للنجاح. وعندما شاهد، في أيار الذي تلاه، خطة العملية والمراسلات المتبادلة بين فانيلي (Fanelli) ومزّيني، خلال الندوة بين نيكوتيرا (Nicotera) وبيزاكان (Pisacane) ووايت (White) في تورينو أكد من جديد حذره من الحملة. كذلك حصل في جنوى خلال لقائه الأخير مع بيزاكان في حزيران (يونيو). كان غاريبالدي رجلاً عملياً ذا كفاءة عالية، ولم يكن يخفى عليه اي عنصر من عناصر النجاح الضرورية، رغم رغبته الملحة في التميّز والتي غالباً ما ضحى من أجلها بكثير من الأشياء.

كان بوسعنا أن نعاقب مزيني على الحملة لو لم يكن بيزاكان قد ذهب الى نابولي قبل ذلك بيوم واحد، ودقق في كفاءة القادة المحليين وجدية التنظيم. منذ ذاك الحين أصبح بيزاكان هو الذي يقرر كل شيء ويجيب عن كل شيء. لكنه لم يرِ شيئاً لا عدم كفاءة فانيلي ولا غياب التنظيم. بل سار ببطولة الى موت محتم كأنه مشدود بقدر خفي. كانت الحملة قد أصبحت بالنسبة له أيضاً تسيطر عليه كانسان ولم تعد تتيح له مجال الانسحاب. لكن مزيني نفسه، بالرغم من احتقاره للصيغ العسكرية، كتب من لندن الى غويسيبي لامبرتي (G. Lamberti) في ٢٠ تموز (يوليو) ١٨٤٤ بعد شهر من النهاية المأسوية لحملة الإخوة باندير ا (Bandiera)، التي كان غريباً عنها كل الغرابة: «يجب ان

نكرس أنفسنا للاستعداد لحدث ما لحملة قوية يشارك فيها الكثيرون، وبشكل نتأكد معه من بقائنا خلال بعض الوقت». هذا ما سوف يفعله غاريبالدي. يجب ان تكون الطليعة المسلحة التي تُطلق الانتفاضة، حقيقية لا خيالية.

● وكتب في تشرين الثاني ١٨٤٨ بعد إفلاس محاولة لومبارديا العليا: «ان تحويل مسألة انتفاضة الى مسألة حرب واستُراتيجية هو خطأ تلميذ في مدرسة».

بينما العكس تماما هو الصحيح. على أي حال، فإن مزيني نفسه يتخذ لنفسه خطأ مناقضاً تماماً ويجعل هو أيضاً من الانتفاضة فناً، وذلك بعد عام واحد أي في عام ١٨٤٩ وقبيل سقوط الجمهورية الرومانية. ففي الثلاثين من حزيران اقترح خروج الجيش الجمهوري المكون من عشرة آلاف جندي منظم، إضافة الى ثلاثة آلاف مواطن، وخروج الجمعية الوطنية وحكومة الثلاثة (triumvirat) وكل القادة من المدينة. آخذين معهم كل الودائع المالية والذخيرة الحربية. تقضي خطته باجتياز الدرجات (les marches) سيراً حثيثاً ثم الدخول الى توسكانا من ناحية أريزو والولوج من جديد في الولايات البابوية في « رومانيا Romagne» قرب بولونيا (Bologne) من أجل إيقاظ الانتفاضة ضد النمساويين. خطة متهورة لكنها جدية تقنياً، حرب واستراتيجية لا شك فيهما ولو أُخذ بهذه الخطة لأثارت الانتفاضة في لومبارديا مرة ثانية.

لم يكن مزيني مثل انغلز وبلانكي ولينين متعلقاً بالفن العسكري تعلقاً خاصةً. كان يعبِّر من وقت الى آخر عن مقاييس تتلاءم والتقنية المهنية الأكثر دقة، لكنها كانت تأملات استثنائية، وتخيلات عبقري غريبة كل الغرابة عن المبادىء المنظمة العامة او عن عقيدة مركزية أساسية.

كان يعتقد أن الشعب الايطالي يكره الطغيان، وأنه تعب من الظلم وانه أصبح دائم الاستعداد للتمرد وأنه بحاجة الى «مبادرة» فقط. من هنا كانت ضرورة «خلق المناسبة». إنما المناسبة لا تُخلق إلا في الوقت المناسب.»إن لم تحصل الحركة، عندها الى اللقاء بعد قرون (١٨٤٤). إن الساعة لقريبة، هنا وفي أي مكان آخر (١٨٤٨، تشرين الأول - بعد عودة النمساويين الى ميلانو). الآن أو أبداً، ربما خلال عشر سنين» (١٨٥٧). لم تكن أي من السنوات ١٨٤٤، أو نهاية ١٨٤٨، او ١٨٥٧ أوقاتاً مناسبة، ولكن لم نذكر سوى تواريخ نداءاته الأكثر إلحاحاً.

«في البداية، كنا قلّة. كان ينبغي علينا ان نُعلِّم وعلى درب التعليم كان لا بد من شهداء، ومنفيين ومحكومين، الأمر الذي يسبب حزناً رهيباً بالطبع، لكننا كنا نقبل به للوصول الى أهدافنا». ثمة تبرير كامل لعمله، في هذا الاعتراف. لذلك، تناجي إخفاقاته قلوبنا اليوم بتأثير أكبر من الانتصارات الصاخبة والتنسيقات العلمية التي أعطتنا دستوراً موسعاً ووحدة تقريبية وخرافة دولة ليبرالية لا نحافظ عليها إلا بالدبابيس والتي تكفي النار التي يشعلها عقب سيكارة لانهيارها.

في سنة ١٨٣٤، كان مزيني يجهز حملة السافوا. في نفس السنة، كان الوطني سيزاري بالبو (Cesare Balbo) يحدد الوحدة الوطنية «صبيانية، وحلماً على الأكثر، من تلامذة بلاغة سيئين، من شعراء مبتذلين، من سياسيين مساومين!».

لقد كانوا حقاً قلّة.

على أي حال، لم تكن الانتفاضات المزينية باطلة. بلانكي عاش من جديد في الكومونة. كذلك مزيني في الانتفاضات المتوجة بالنجاح في ايطاليا الوسطى سنة ١٨٥٩ وفي حملة الألف (Mille). لولا مثال وتجربة الأعمال المزينية السابقة لما أصبحت تلك الانتفاضات ولا تلك الحملة ممكنة.

الفصل الخامس

التفوق العددي

في الصفحات التي أضحت مشهورة، والتي كرسها انغلز للانتفاضة في كتابه «الثورة والثورة المضادة في ألمانيا»، يؤكد ان الانتفاضة ممكنة بشرط واحد هو ان نحترم مبدأي «التفوق العددي الكبير» و«ضرورة الهجوم».

إذن، العدد هو الشرط الأول المطلوب. يقول انغلز حرفياً: «إن القوى التي تواجهونها تتمتع بالأفضلية الكاملة من حيث التنظيم والانضباط والتسلسل الهرمي. إن لم تواجهوها بتفوق عددي كبير، سوف يكون مصيركم الهزيمة والهلاك» لا نجد غير هذا في أي كتاب يبحث في الاستراتيجية او في التكتيك. المهم في الحرب هو العدد، إذا تساوت شروط التنظيم والانضباط. والمشكلة الرئيسية في المعركة هي أن نعرف كيف نركّز عدداً متفوقاً من القوات في مواجهة العدو في وقت معيّن.

يُكتب غالباً عن انتفاضة اكتوبر ان البولشفيك تغلبوا رغم كونهم أقلية صغيرة. هذا خطأ كبير ينبغي تصحيحه. كان البلشفيون كحزب يعدون ٤٠٠ الف مسجل. وكانوا يمارسون على العمال والجنود وعلى الأرياف أيضاً تأثيراً كبيراً جداً. في انتخابات الجمعية الوطنية التأسيسية، نالت لائحتهم تسعة ملايين صوت، ونال الاشتراكيون الثوريون ٢١ مليونا، ونال المنشفيك مليون و٤٠٠ الف صوت، منها ٧٠٠ الف في القفقاس، ونالت الأحزاب البورجوازية المختلفة خمسة ملايين. تسعة ملايين صوت لحزب نشيط هو طليعة للثورة يعمل على تطويع الجماهير العمالية في المدن الكبرى، وذلك من أصل ٣٦ مليون ناخب، لا يمكن أن تبدو، في حقبة ثورية، عدداً محدوداً إلا بالنسبة لمدرس رياضيات.

حتى اليعاقبة كانوا قد نالوا أقلية الأصوات في انتخابات أيلول ١٧٩٢ من أجل «المؤتمر».

قبل الانتفاضة كانت كل التنظيمات الجماهيرية في سان بطرسبرغ وموسكو بقيادة البلشفيين. في سان بطرسبرغ، مركز الانتفاضة، كانت النقابات تجمع أكثر من ٥٠٠ الف عامل في أكبر حي عمالي - حي باب فيبورغ (Vuborg) - بمتحدين سياسياً في وعي ثوري طبقي كبير جداً بقيادة كوادر بروليتارية من عائلات عمالية دربتهم تجارب الانتفاضات في شباط وتموز والحملات السياسية الكثيرة. كانت حامية العاصمة وضواحيها القريبة - قبل بضعة أيام من الانتفاضة - تميل الى البلشفيين، عدا عداوة حوالي ستة آلاف من الشبيبة (يونكر)، وثلاثة أفواج من القوزاق، وكتيبة آليات، وفرقة عربات مصفحة كانوا، على أي حال، يبدلون موقفهم من يوم الى آخر. إنما كانوا فعلاً أشياء لا أهمية لها بالمقارنة مع عناصر الحامية المئتي الف. كان البلشفيون يسيطرون على مجلس السوفيات في سان بطرسبرغ. لقد أعطت انتخابات الثامن عشر من تشرين الأول لتسمية ممثلين في المؤتمر الثاني للسوفيات، ٤٤٣ ممثلاً للبلشفيين في مقابل ١٦٢ للاشتراكيين الثوريين و٤٤ للمنشفيين. وفي اليوم نفسه أبرز مؤتمر حامية سان بطرسبرغ «بلشفة» مفارز عسكرية. وبعد أربعة أيام أبلغ المؤتمر وزارة الحربية ان الأفكار البلشفية كانت نجاحاً مضطرداً في الجيش. وفي ٢٣ تشرين الأول سار ممثلو مختلف قطاعات الجبهة، الآتون لحضور مؤتمر السوفيات، في استعراض امام مجلس السوفيات البلشفي في سان بطرسبرغ وتآخوا معه. حتى أن فيلق الحرس الثاني، الموجود على الجبهة الرومانية، وهو يضم ٦٠ ألف رجل بعيداً جداً عن مناخ العاصمة، وجيث لم يكن سوى بلشفي واحد مسجل واثنين من المتعاطفين المعلنين، ذلك الفيلق اعلن ولاءه الكلي للبلشفيين، أيام اكتوبر. بعد كورنيلوف (Kornilov)، كان البلشفيون، البلشفيون فقط، وحدهم هم الذين يمثلون تطلعات البلاد. وهم وحدهم الذين واصلوا ثورة شباط كان كرنسكي (Kerneski) بالطبع حسن النية لكنه أخطأ حين اعتقد ان البلشفية «تفاهة» لا أهمية لها، خلال زيارته للجبهة الشمالية في صيف ١٩١٧، ذلك لأنه بعد مناقشة متناقضة مع اثنين من العسكريين البلشفيين في الجيشين الخامس والثاني والعشرين أفحمهما بأربع طلقات مسدس بلاغية لاذعة جداً امام الجنود.

إن قانون التفوق العددي اساسي وليس بوسعنا تجاهله دون عواقب. لكن الذين

يعتبرونه مطلقاً يقعون في خطأ كبير جداً.

ويروي غوهير (Gohir) محادثة بين بونابرت ومورو (Moreau) توضح جيداً تصور هؤلاء لمفهوم العدد. حدث ذلك سنة ١٧٩٩ عندما تقابل الجنرالان للمرة الأولى. فنظر الواحد منهما للآخر برهة من الوقت وبقيا صامتين. عندها تحدث بونابرت أولاً ووجه الى مورو عبارات تودد.

ـ أنت تصل من مصر منتصراً ـ أجاب مورو ـ وانا أصل من ايطاليا بعد هزيمة كبيرة. . . كان مستحيلاً ان لا يُسحق جيشنا الباسل من قبل هذا العدد الكبير من القوى مجتمعة. العدد الكبير يهزم دوماً العدد الصغير.

ـ فقال بونابرت: الحق معك، العدد الكبير يهزم دوماً العدد الصغير.

ـ عندها قال مورو لبونابرت: على أي حال، أيها الجنرال إنك كثيراً ما هزمت جيوشاً كبيرة بجيوش صغيرة.

ـ حتى في هذه الحالة ـ أجاب بونابرت ـ يهزم العدد الكبير العددَ الصغير.

ثم وسع فكرته قائلاً:

ـ عندما أواجه جيشاً كبيراً بقوات أصغر، كنت أركز جيشي كله بسرعة وانقض كالصاعقة على أحد أجنحة القوات المعادية وأسحقها. عندها استغل زعزعة جيش العدو، الأمر الذي كان لا بد لهذه المناورة أن تحدثه، لأهاجمه من جهة ثانية وبكل قواي كما في السابق. هكذا كنت أهزمه بالتقسيط، والنصر الذي كنت أحققه كان يشكل كما ترى انتصاراً للعدد الكبير على الصغير.

المقصود، إذن، عدد نسبي. وإلا لا تعود الانتفاضات المنتصرة ممكنة أبداً، أو ينبغي انتظار عودة بعض الظروف الملائمة، رغم كونها استثنائية بكاملها، التي أعطت للبولشفيك التفوق العددي في سان بطرسبرغ في تشرين الأول ـ ١٩١٧. وهذا لن يتكرر أبداً على الأرجح في تاريخ البروليتاريا.

ولكن ينبغي أن لا نقع في المبالغة المضادة. بالطبع، فقد احتقر متمردو ريفال (Reval) في الأول من كانون الأول ١٩٣٤، ومتمردو هامبورغ في ٢٣ كانون الأول ١٩٢٣ معيار التفوق العددي المطلق لكنهم أخفقوا عندما استهانوا أيضاً بمعيار التفوق النسبي.

لم يكن لعاصمة استونيا، وهي ولاية صغيرة في بحر البلطيق لا تبلغ مساحتها سوى ضعف مساحة سردينيا، لم يكن لها حامية مهمة. وإلى ذلك كانت الشرطة وكتيبة مشاة ومجموعة مدفعية علاوة على مجموعة طيران قد استمالتها الدعاية الشيوعية الى درجة انهم كانوا يُحسبون كعناصر حيادية او منحازة كلياً للمتمردين. اما القوات الفاعلة بإمرة الحكومة فكانت تبلغ ٨٣٠ رجلاً تقريباً موزعة كما يلي: ٤٠٠ رجل في مدرسة الشبيبة (يونكر) أو طلاب ضباط، و٢٥٠ رجلاً في مدرسة صف الضباط، و١٢٠ رجلا في مفرزة من أفضل جنود الموقع مع قيادة أركان الفوج، و٦٠ رجل احتياط من الشرطة المدعوة للخدمة. وكان يوجد بالقرب من ثكنة الشرطة مستودع الدبابات الهجومية وبالقرب من مدرسة الشبيبة كان يوجد مخزن هام للأسلحة والذخائر.

وفي مواجهة هذه القوات كان الشيوعيون في ريفال قد جهزوا ٤٠٠ مناضل وزعوا في ثلاث كتائب. ولكن من أجل التقيد بمتطلبات السرّية نفذت التعبئة بشكل سيء في آخر وقت، ولم يصل تعداد الرجال الحاضرين بموجب النداء الى ٤٠٠ رجل بل الى ٢٢٧ أي في الكتيبة الأولى ٥٦ من أصل ١٧٠، وفي الكتيبة الثانية ٩١ من ١٢٠، وفي الثالثة ٨٠ من ١١٠. كانوا جميعهم رجالاً خارقين لكنهم غير مسلحين جيداً. لذلك، فعندما لاحظ القادة العدد المحدود للحضور، رأوا أنه من الأفضل أن يؤجلوا التحرك. لكنهم كانوا واثقين من أنفسهم الى درجة انهم فضلوا عدم الانتظار.

لقد نفذ الهجوم كما كان مقرراً عند الفجر وفق الخطة المرسومة سابقاً. وليس بوسعنا، حقاً، القول بأن ٢٢٧ يشكلون عدداً كبيراً. ولكنهم قُسِّموا وتكرر تقسيمهم حتى بلغ ست عشرة مجموعة مختلفة العدة والعدد كما لو كانوا ٢٢٧ كتيبة وليس ٢٢٧ عنصراً. فقد هاجمت الكتيبة الأولى مدرسة اليونكر بمجموعة مؤلفة من ١٦ رجلاً مع مجموعة ثانية مؤلفة من ١٣ رجلاً، وسمحوا لأنفسهم بوضع ٢٢ رجلاً منهم في الاحتياط، الذي كان عليه ان يصفي ضابط الخدمة في المدرسة وخمسة رجال في مركز قريب. وتوزعت الكتيبة الثانية الى ستة أو سبعة أقسام كُلفت بالمهمات التالية: تجريد احتياطي الشرطة الفرسان ومفرزة أفضل عناصر الحامية من سلاحهم، ثم احتلال أركان الفوج، وحمل كتيبة المشاة ومجموعة الدبابات الهجومية ومجموعة العمل على الانضمام الى المتمردين من أجل مهاجمة مدرسة الرتباء فيما بعد. أما الكتيبة الثالثة فتوزعت الى خمس مجموعات واحدة منها مكونة من عشرين عنصراً. والأربع الباقية من ١٢ رجلاً واستهدفت احتلال سراي الحكومة ودار

البرلمان ومركز البرق والهاتف ووزارة الحربية ورئاسة الأركان ومفوضية الشرطة ومحطة القطارات الرئيسية وأخيراً السجون كما في كل انتفاضة مدروسة جيداً من أجل اطلاق المعتقلين.

ليس من الضروري ان يكون المرء ملماً بالفن العسكري ليفهم ان ٢٢٧ رجلاً تبعثروا بهذا الشكل وتفتتوا، لو أنهم أحسن استغلالهم لاستطاعوا القيام بأعمال بالغة الجدية.

كان لا بد لتلك الانتفاضة من ان تفشل. سبعة أهداف فقط من أصل ١٦ سقطت وهي الأقل أهمية والخالية من المقاومة، اي محطتا القطارات، ومركز البرق والهاتف، وسراي الحكومة، والبرلمان، ورئاسة أركان الفوج، والمجموعة الجوية. قاتل المتمردون ببسالة فائقة ولا ينبغي تحميل المجموعات المختلفة مسؤولية اخفاق حملتهم المتهورة. كان الخطأ في تصور الخطة وفي استعمال الرجال. وكان الخطأ الرئيسي فقدان الاتصال بالجماهير. فلنكتف إذن ببحث الخطأ التكتيكي فقط حتى نتمكن من ايضاح مسألة العدد.

لن نفهم أي شيء قط من مسألة العدد إن لم نفهم الأهداف الرئيسية الواجب احتلالها. الهدف الأول لأي انتفاضة يجب ان يكون دائماً تدمير مركز القوة لدى القوات المعادية. ان لم نبلغ هذا الهدف، فلا جدوى من بلوغ عشرة أهداف أخرى او مئة هدف آخر. إذ لا لزوم لتلك الأهداف. إذا كان العدو يحتل عشرة مواقع، ينبغي أن لا نهاجم المواقع العشرة في وقت واحد وبقوات موزعة على عشر نقاط، بل الموقع الذي يبدو الأهم وبالقوات مجتمعة بتأمين تفوق في تلك النقطة. من حارب في إيطاليا يحتفظ بذكرى لا تمحى عن ذاك النظام التكتيكي الذي جعل الجنرال كادورنا (Cadorna) مشهوراً في السنوات الأولى من الحرب. سُمّي هذا التكتيك هجوماً جبهياً؛ الفرنسيون يسمونه هجوماً موازياً. وفق هذا النظام، يقوم عشرون لواء موزعة على جبهة عشرين كيلومتراً، بمهاجمة عدد مقابل يقل عنهم او يساويهم عدداً، كل العشرين على عشرين كيلومترا. لقد فعل كادورنا ذلك إحدى عشرة مرة في الكارسو (Carso) ونجح في التقدم عشرة أمتار في كل مرة او بقي في مواقعه. بعد أن كبّد العدو وتكبد هو نفسه خسائر فادحة. لم تكن الانتصارات الأحد عشر المزعومة والتي ذكرتها في الكارسو والهجوم الكبير على نفس النسق في حزيران ١٩١٧ بين فال داسا (Val d'Assa) وسيما كالديرا (Cima Caldiera)

سوى تفريط بالرجال واستهلاك غبي لانضباط وبطولة المقاتلين. وانفرط كل شيء امام هجوم عبقري من العدو الذي خرق الجبهة في نقطة واحدة بين كونكادي بليزو (Conca di Plezzo) وتولمينو (Tolmino) ودفع مجموعة جيوش الى كابوريتو (Caporetto) مسجلاً هزيمة تاريخية في سجل الحروب.

يستحق قادة ريفال اعتبارهم كأجود تلامذة للجنرال كادورنا، لقد دفعوا غالياً ثمن غلطتهم إذ ان البعض منهم فقط هو الذي أفلت من انتقام المنتصرين اما الآخرون فقتلوا رمياً بالرصاص.

لو كان يوجد تحت تصرف المتمردين بضعة آلاف من الرجال لتمكنت خطة هجومهم من تحاشي كل تلك الانتقادات. عندها كانوا سيتمتعون بتفوق عددي ساحق في كل مكان. ولكن في الظروف التي وجدوا فيها، لا يمكننا ان نفهم بسهولة بأي أسلوب منطقي توصلوا الى الهاء كتيبة - فلنسمها كذلك مهما يكن من أمر - حول ثكنات تلك المفارز التي لم تكن تمثل أي خطر على نجاح العمل. وكتيبة أخرى لاحتلال المباني ذات الأهمية الرمزية، الى حد ما، اي مبنى الحكومة والبرلمان حيث لم يكن هناك أحد بالطبع، وكذلك محطة السكك الحديدية ومركز البرق والهاتف. كان يكفي في مرحلة أولى ان يقطع عامل كهربائي واحد الخطوط الموصلة للطاقة الكهربائية كي نحصل عملياً على نفس النتائج. كان بوسعهم ان يوفروا هكذا ثلث عدد المقاتلين. لكن بعد أن بدأ البولشفيك انتفاضتهم في أكتوبر بالاستيلاء على محطة الكهرباء المركزية ومحطات القطارات ومصالح المياه ومركز البريد والبرق والهاتف بدا من الواجب اعتبار هذه الأهداف رئيسية. الحقيقة هي ان هذه الأهداف ما هي إلا أهداف ثانوية. ولو ان البلاشفة لم يستولوا على قصر الشتاء، المركز الجدي الوحيد لمقاومة الحكومة المؤقتة، لأخفقت الانتفاضة في العاصمة وأضحى احتلال كل محطات القطارات وكل المراكز الحيوية دون جدوى. على أي حال كان الاستيلاء على كل تلك النقاط عملية بالغة السهولة بالنسبة للبلاشفة، ولم تكلفهم أي رجل ولا أي تعب. كانت أفواج الحامية (الموقع) قد اعترفت باللجنة العسكرية الثورية على أنها الجهاز العسكري الدستوري الوحيد للسوفيات، وكان وجود مفوض واحد يكفي لانتقال اي مؤسسة عامة الى أيدي المتمردين. فقد كانت كافة تلك المراكز والمحطات، علاوة على ذلك، محروسة بمفارز من هذه الأفواج التي انضمت الى المتمردين. وهكذا كان أمر واحد يكفي لتحويل هيئة

الحراسة تلقائياً الى هيئة احتلال ثورية. مركز البرق، مثلاً، وقد اعتُبر احتلاله حدثاًكبيراً، كان بحراسة فوج كيكشولمسكي (Keksholmsky) الذي كان قد انضم الى السوفيات منذ ١٨ تشرين الأول - اكتوبر، عندما تقدم جنديان بأمر شفهي لم يعد المركز تابعاً للحكومة الموقتة.

وقد وقعت كافة المباني وغيرها، وكلها متشابهة من حيث قلة أهميتها، في لحظة ودون أي عناء، في أيدي المتمردين بعدما سيطروا على المدينة عسكرياً.

كان لدى موجهي ريفال، مع أخذ عدد رجالهم بعين الاعتبار، هدفان رئيسيان في القتال: مدرسة اليونكر ومدرسة الرتباء. وكان لا بد للأولى ان تبدو دون اي شك أهم بكثير من الثانية نظراً لعدد المدافعين عنها، وبفعل قربها المباشر من مخزن الأسلحة والذخائر. كان لها أيضاً ميزة لوقوعها في طرف المدينة على بعد خمسة أو ستة كيلومترات من مركز المدينة حيث توجد ثكنة الرتباء. مجرد قطع الهاتف كان كافياً لعزل معسكر اليونكر والعمل على توسيع العمل حولهم دون علم سائر الحامية والمدينة.

إذن، كان لابد لخطة التمرد ان تُبسَّط. كان لابد من قرار بالهجوم ضد مدرسة اليونكر ومدرسة اليونكر فقط دون غيرها من الأهداف الخمسة عشر المنتشرة على خمسة او ستة كيلومترات، دون مدرسة الرتباء إذ ان القوات المتمردة لم تكن تكفي لشن هجومين في آن معاً. كان لا بد من تركيز الكتائب الثلاث والانقضاض على اليونكر وكان لا بد لهذه العملية الرئيسية ان تتم دون التفريط بأي زمرة منها.

الفصل السادس

التفوق العددي والهدف الرئيسي

لقد هاجم متمردو ريفال، كما رأينا، مدرسة اليونكر بالكتيبة الأولى المكونة من ٥٦ عنصراً. وبما ان ٢٢ رجلاً بقوا في الاحتياط وخمسة أرسلوا لاحتلال المحطة المجاورة، فقد بلغ عدد المهاجمين الفعليين للمدرسة ٢٩ قسموا الى مجموعتين. مجموعة من ١٣ رجلاً هاجمت واحتلت الطابق الأسفل، حيث يوجد ٢٠٠ جندي تفرقوا على الأثر. ومجموعة اخرى من ١٦ رجلاً هاجمت الطابق العلوي حيث يوجد ٢٠٠ جندي ايضا. لكن المفاجأة لم تحصل وصُدَّت المجموعة. فحوّل فشل المجموعة الثانية نجاح الأولى الى عمل غير مجد. عندها تفرقت المجموعتان بعد ان لحق بهما الاحتياط تاركة على الأرض قتيلاً وبعض الجرحى.

كان قادة الانتفاضة يعتمدون قبل كل شيء على عنصر المفاجأة. وبالعكس، لقد غابت المفاجأة حيث كان لا بد من نجاحها.

لو ركزت الكتائب الثلاث على مدرسة اليونكر لكان نجاح الهجوم مؤكداً بالمفاجأة او بدونها.

ليست الانتفاضة عملية متهورة لالهاء بعض الفاسقين. بل هي عمل بالغ الجدية، بوسعنا ان نقارنه بمعركة حقيقية على أرض مكشوفة حيث يتقرر مصير جيش ومصير بلد، لا باقتحام دوريات. اليوم لا يمكن لحدث بهذه الدرجة من الأهمية أن يبقى مرتبطاً بعنصر المفاجأة دون غيرها. ان الاعتماد على المفاجأة العامة والمطلقة هو خطأ كبير وتصوّر

كيفي. تنجح المفاجأة في نقطة وتفشل في أخرى. لذلك، لا بد من ان نعوّد انفسنا على متابعة القتال بنجاح حتى ولو أخفقت المفاجأة. لا يمكننا الحصول على ذلك إلا بالتفوق العددي، فهو يضاهي عنصر المباغتة.

لو ان الطابق العلوي من المدرسة هوجم بكتيبتين بمساندة الثالثة بعد سيطرتها على الطابق السفلي بدل ان يهاجم بستة عشر رجلاً، لتمكن مركز الحراسة من اعلان النفير واطلاق النار وفق مشيئته وتابعت الكتائب القتال، وببعض الخسائر طبعاً، كانت سحقت مقاومة الجنود. انه لمن الظلم ان نوجّه اللوم الى المتمردين، كما حصل، بعد ان تفرقوا اثر المقاومة الأولى. ماذا كان ينبغي عليهم ان يفعلوا؟ تستطيع زمرة ان تنجز استكشافاً بتفوق وتستطيع أيضاً المشاركة في أي مناوشة لكنها لا تقوى على بدء قتال وتوسيعه ثم إنجازه. ثلاث كتائب بوسعهاإنجاز ذلك بل كتيبة واحدة اذا اكتملت. بوسع كتيبة من هذا النوع انجاز هذا العمل مهما كان سيره في الأصل. تستطيع الكتيبة ان تهاجم وتقوم بهجوم معاكس وتستولي على موقع ما وتدافع عنه. فهي تملك إمكانية ذاتية كاملة. ان الموقع الذي لا تقوى الكتيبة على أخذه بالمباغتة، تأخذه بالقوة. انه عمل طفولي ان نطالب زمراً مهما كانت باسلة بهذا الانجاز.

وعند السيطرة على مدرسة اليونكر، أي بالتالي على مخزن الأسلحة والذخيرة، كان ينبغي السير باتجاه مدرسة صف الضباط دون اضاعة دقيقة واحدة. كان سقوطها سيعني نجاح الانتفاضة نهائياً. الوصول الى بقية الأهداف عمل تافه. حتى السيارات المصفحة لا تستحق انتباهاً خاصاً. كان مستودعها بعيداً عن سدنة رشاشاتها الذين كانوا علاوة على ذلك حياديين. ولم يكن بين المتمردين سدنة. لو كان للمتمردين مجموعة من العمال المتخصصين بقيادة السيارات المصفحة واستعمال اسلحتها لتغيّر الوضع تماماً. لكنهم لم يكونوا يجيدون حتى استعمال الرشاشات.

إن الخطأ الذي ارتكبه المتمردون الشيوعيون في هامبورغ عام ١٩٢٣ مشابه لما سبق، من حيث استعمال العدد واختيار الهدف الرئيسي، لذا كانت انتفاضتهم مجموعة مبادرات رائعة وأخطاء جسيمة. محلياً، كان التحضير السياسي للانتفاضة ممتازاً على عكس ما حصل في ريفال. الاستعداد العسكري بالذات كان جيداً، خاصة استعداد الكوادر المأمورة، لكن القيادة العامة فقدت عقلها في اللحظة الأخيرة.

لم يكن لهامبورغ المدينة ذات المليون نسمة بأغلبية بروليتارية مفرزة من الجيش. عند حدوث الانتفاضة كانت المدينة بقيادة الشرطة المكونة من خمسة آلاف رجل مسلحين بالرشاشات والبنادق الاوتوماتيكية والمسدسات وست سيارات مصفحة كانت في ثكنات فاندسبيك (Wandsbeck) بالقرب من الحي العمالي الرئيسي في زارمبيك (Zarmbeck). كانت الشرطة موزعة على المفوضيات الرئيسية والثانوية وهي متعددة في الأحياء العمالية.

كانت المنظمات العسكرية للبروليتاريا تشمل ١٣٠٠ عنصر من تشكيلات الـ O.D. (أي المجموعات المقاتلة في الحزب الشيوعي) وحوالي ٧٠٠ رجل من وحدات المئة (السرايا) العمالية. كان استعدادهم العسكري كاملاً ولا يمكن مقارنته باستعداد الشوتزبوند (Schutzbund) النمساوي. كانوا يتمتعون بالانضباط والروح الثورية في أعلى درجاتها والاضطلاع بحرب الشوارع وماهيتها. كانت وحدات المائة اقل استعدادا من الوجهة العسكرية إنما كان بالامكان اعتبارها فعالة كوحدات مساندة. كان تسليح المنظمتين معدوماً تقريباً.

وكان الشيوعيون يواجهون ٥٠٠٠ رجل بوليس، مسلحين بأحدث الوسائل، بألفي عامل تسليحهم رديء. لكن شجاعتهم وكفاءتهم كانت تشكل عاملاً استثنائيا للنجاح. وكان يقينهم بنزول الجماهير العمالية في المدينة الى الساحة لمساندة المتمردين يعوض نقصهم العددي. كانت مشاركة الجماهير في الانتفاضة قد دُرست وأُعدت بالكامل. إنما المشكلة كانت تكمن في التصرف بالقوات الهجومية من أجل قلب ميزان القوى بشكل عام. كان ينبغي تحقيق التفوق العددي في وقت معين وفي نقطة معينة. كان يجب، إجمالاً، خلق عدد نابليوني. إلا انه كان يوجد في رؤوس أعظم القادة أشياء تختلف عما هو موجود في رأس نابليون.

يقع مركز مدينة هامبورغ على الضفة اليمنى لنهر الألب (Elbe)؛ وتحيط الأحياء العمالية الكبرى بالمدينة وتقع كلها إيضا على الضفة اليمنى للنهر. هناك أيضاً البريد والهاتف والبرق والمحلات التجارية الكبرى والبنوك والبورصة. وفي مقابل وسط المدينة، على الضفة اليسرى للنهر، لا يوجد سوى الورشات البحرية وأحواض السفن والجمارك والتفريغ. كان الهجوم مُعداً للخامسة صباحاً وفق الخطة التالية: أولا، اقتحام المسلحين للأحياء العمالية والاستيلاء على مخازن الأسلحة، ثانياً، احتلال البريد والهاتف والمطارات ونقاط أخرى بمساندة العمال. ثالثاً، مهاجمة مراكز الشرطة في وقت واحد

وتجريدها من الأسلحة هي والفاشيين الذين قد يهرعون الى مساندتها، في حال حصول تلك المساندة. رابعاً، سير الفئات العمالية نحو مركز المدينة والضغط على مراكز المقاومة لدحرها الى يسار الألب عن طريق الجسور بعد احتلالها من قبل النجدات العمالية المكلفة بتجريدها من السلاح. خامساً، اغلاق منافذ المدينة الرئيسية واقامة المتاريس عندما تكون ضرورية للدفاع فقط.

يجب أن لا يغيب عن بالنا ان المتمردين لم يكن تحت تصرفهم سوى ألفي رجل للهجوم وبالتالي لم تكن القيادة مدعوة لتحريك فيلق.

يبدو جلياً على الفور ان الهدف الرئيسي كان نزع سلاح الشرطة. كانت تلك ايضا الفكرة الأولى لدى قادة التمرد، لكنها، للأسف، طُبقت بطريقة مشوشة للغاية. ففي الأحياء العمالية الرئيسية، هوجمت مراكز الشرطة في وقت واحد. فنجح الهجوم في بعضها وفشل في البعض الآخر. والمعلومات الأكيدة التي نملكها عن مجمل العمل قليلة جداً. وبالمقابل، فالمعلومات المتعلقة بحي برمبيك Barmbeck) والأحياء المتاخمة في فلينهورست (Vlenhorst وفنترهود (Winterhude) وفاندرسبيك (Wandersbecvk) كثيرة. كانت الأحياء الثلاثة الأخيرة، في الانتفاضة، تدخل في اختصاص القادة الشيوعيين في بارمبيك وهو حيّ أهم منها بكثير. كان يكفي وجود ست سيارات مصفحة بحماية ٦٠٠ عنصر من الشرطة في هذا الحي لتصبح المنطقة أهم منطقة في الانتفاضة. كانت تلك السيارات المصفحة ومرافقوها مركز القوة للعدو.

إذن، كان لا بد من تركيز النواة الكبرى من القوات المهاجمة على ثكنات العربات المصفحة. فلو سيطر المتمردون على السيارات المصفحة وعلى أسلحة المدافعين عنها، لسقطت مراكز البوليس الأخرى الواحد تلو الآخر. ولكن اكبر قادة هامبورغ قرروا غير ذلك تماماً وأمروا بمهاجمة المفوضيات العشرين في وقت واحد. وفقاً لوجهة نظرهم الغريبة، كان ينبغي ان يتم احتلال ثكنات المصفحات فيما بعد وبكل القوى مجتمعة محصلة الهجوم على المفوضيات العشرين.

هنا أيضاً، كما في ريفال، اعتمد الهجوم، على هذا العدد الكبير من المواقع، على عنصر المفاجأة أولاً أكثر من اعتماده على قوة المتمردين. كان الأمل في نجاح المفاجأة في المفوضيات العشرين بأكملها املاً حلواً بالطبع. لكن ربط العمل بكامله بعنصر المفاجأة كان أيضاً غلطة حلوة.

لكن المفاجأة نجحت بمصادفة عرضية يجهلها المتمردون. كانت قيادة الشرطة قد أوقفت حالةالتعبئة وأعطت أمراً بالاستراحة لكل الحامية التي انهكتها المتاعب التي تحملتها دون انقطاع منذ عدة ايام، اعتقاداً منها ان كل خطر للتمرد قد أُبعد. وفوجىء جميع رجال الشرطة تقريباً وهم نيام. واستولى المتمردون على ١٧ مفوضية من أصل عشرين دون طلقة بندقية تقريباً. وصُدَّ الهجوم في المفوضيات الثلاث الأخرى. لو لم يُعطَ أمر الاستراحة لما نجح، على الأرجح، عنصر المفاجأة إلا في بعض المفوضيات. أما في سائر المفوضيات، فكان الهجوم سيصطدم مباشرة بالمقاومة كما حدث فعلاً في المفوضيات الثلاث التي لم تُفلح فيها المفاجأة. إذ أن التنظيمات الهجومية في هامبورغ كما في ريفال كانت قد تجزأت وتبعثرت وهوجمت المفوضيات بمجموعات من عشرة رجال او عشرين في الحالات الاستثنائية.

وقد تجمعت الجماهير العمالية حول المفوضيات المحتلة فور الاستيلاء عليها في سائر الأحياء. وطالب الجميع بالسلاح والانخراط في القتال. كان الحماس شاملاً وبدا ان الانتفاضة قد أفلحت.

ولكن فجأة، وصلت مجموعة الشرطة مجتمعة. ولم تنتظر المصفحات الهجوم عليها. بل غادرت ثكناتها وبادرت الى الهجوم. فانهارت خطة الانتفاضة بكاملها. ولم يُفِد احتلال المفوضيات السبع عشرة بشيء. ففي السابعة صباحاً اعطى القادة اوامرهم باقامة المتاريس فانتقلت الانتفاضة الى الدفاع اي انها قد فشلت.

في بعض الأحياء دافع المتمردون عن انفسهم بشراسة حول المتاريس وبرهنوا عن انهم كانوا أكفاء فيما لو تأمنت لهم قيادة أذكى.

يجب ان نقبل فكرة المفاجأة بكثير من التحفظات. من الممكن قطعاً، ان تُفلح المفاجأة عندما تتناول هدفاً او اثنين. ولكن حتى في هذه الحالة، يجب توقع فشل المفاجأة اذا كانت الأهداف مهمة ويجب اتخاذ التدابير لتدارك ذلك قبل المباشرة بالعمل، فإن لم يتم تدارك الأمر فإن الفشل يصبح محتوماً.

لا ينبغي ان تكمن المفاجأة الحقيقية في كوننا نستطيع الانقضاض على العدو بغتة وهو نائم. إن أحداثاً كهذه استثنائية ولا يجب الاعتماد عليها. بل ينبغي ان تكمن في المبادرة التي تعطي للمهاجم أفضلية اختيار نقطة الهجوم وتركيز النواة الرئيسيَة لقواه على هذه النقطة. تلك هي المفاجأة الحقيقية حيث لا يقوى العدو على الدفاع عن النفس. إذ

ان التدابير الأمنية التي يكون قد اتخذهـا، حتى لو لم تكن كـاملة، لن تجعله قادراً عـلى مقاومة تفوق عددي ساحق. بل تعطيه فقط إمكـانية القتـال بنظام وانضبـاط والسقوط بشرف.

كان بمقدور المتمردين تحقيق تلك المفاجأة بتركيز الف من رجالهم على الأقل وحتى الألف و٣٠٠ رجـل من المجمـوعـات المقـاتلة (O.D.) حـول ثكنـات المصفحـات في فاندرسبيك والمدافعين عنها وعـددهم ٦٠٠ ، ورغم قلة عددهم بـالنسبة للـ ٥٠٠٠ من رجال الشرطة فقد كان بإمكان المتمردين تحقيق التفوق العددي في نقطة الهجوم الأساسية وتحويله فوراً الى تفوق مطلق بالأسلحة التي يستولون عليها من الشرطة وبمشاركة غالبية الطبقة العاملة في النضال.

لم يُنسب الى قادة الانتفاضة في هامبورغ كثير من الاخطاء، ولكن ثمة خطأ رئيسيا إذا كنا قد اكتفينا بالوضع المحلي طبعاً وبالعمل العسكري. اما سائر الأخـطاء الأخرى فهي غريبة عن الموضوع الذي يهمنا حاليا.

إن اختيـار الهدف الـرئيسي بالـغ السهولـة. قد يختلف وفق طـوبوغـرافية مسـرح الانتفاضة وخاصة بحسب الوضع السياسي. ولا يمكن تحديد الهدف الرئيسي نظريـاً. فالممارسة هي التي توحي في كل مرة بنقـطة عوضـاً عن أخرى. فـطبيعة أهميـة الهدف الرئيسي يمكن ان تتبدل وفق الأحداث فقد تكون تارة عسكرية، وطوراً سياسية، ومرة ثالثة معنوية.

ليست الثكنات هي دوماً التي ينبغي مهاجمتها كهدف رئيسي، بل أيضاً سائر النقاط التي يتحدث سقوطها لغة ذات معنى موجهة للضمير الشعبي، ويتضاعف حماس التمرد عشر مرات حيث يتضاءل حماس الدفاع. الانتصار هو غالباً عمل معبِّر اكثر مما هو عمل مادي. لو وُجد في روما، خلال الأيام الأولى للاستنكار الذي أحدثـه في البلاد اغتيـال جياكومو ماتيوتي (G. Matteotti)، حزب قادر على استغـلال الاستنكار الشعبي وتجميـع بضع مئات من الرجال يهاجمون قصر الفيمينال (Viminal)، مركز وزارة الداخلية وعرين الدسائس الاجرامية، لبدا النظام الفاشي شنيعاً بـإعطائـه هيبة متنـاهية وغـير مستحقة للبرلمان الايطالي عند اغتيال احد اعضائه. عندها كان الفيمينال يمثـل النقطة الحسـاسة وليس الثكنات العسكرية، حيث الجيش لم يكن ليتصدى بـالسلاح للعـدالة الشعبيـة.

ولكن لو وجد هذا الحزب لما فكر موسوليني بـاسناد تنـظيم المجلس الى عصابـة دوميني (Dumini). وكانت مسيرته الى روما نفسها قد نُـظِّمت بأسلوب مختلف. ولكن، لسـوء الحظ، فإن الديمقراطية الايطالية كل الديمقراطية، ودون استثناء أي حزب، لم تكن قادرة على عمل شيء سوى خلق الافنتينو (L'aventinot)، الذي كان ممثلوه الأكثر بروزاً تماماً مثل قادة جمعية فرنكفـورت، الذين وصفهم انغلز: «رجـال لا قرار لهم سـوى التردد، رجال قد بلغ بهم الخجل حد الجمود، فوجدوا انهم بكونهم لا يعملون شيئاً فهم يفعلون بالتحديد ما ينبغي فعله».

ولسوء الحظ، مشى الكثيرون في أوروبا على خطى الافنتينو القليلة الابداع، فضلوا طريقهم.

الفصل السابع

الجماهيـــر

لا بد للتفوق العددي النسبي، الذي تستطيع البروليتاريا الحصول عليه في الهجوم الانتفاضي ضد القوى المعادية مستعملة منظماتها المسلحة بالشكل المناسب، لا بد لهذا التفوق أن يُدفع فوراً كي يصبح تفوقاً عددياً مطلقاً. ولا يجب قياس الانتفاضة بنفس مقياس الحرب في كل مراحلها وتفاصيلها وقوانينها، رغم وجود تشابه بينهما في نقاط عدة. ففي الحرب التقليدية بين جيشين، يحاول أحدهما الانتصار على الآخر إذ ان استسلام السلطة السياسية للعدو مرتبط بهذا الانتصار. عند هذه النقطة، ينتهي عادة واجب الجيوش ويبدأ دور الدبلوماسية العادية. اما في الانتفاضة، فالوضع يختلف. لا تنتصر الانتفاضة إلا إذا أحبطت التنظيم العسكري والنظام السياسي للدولة المهاجَمة بآن واحد. وتنعدم الاتصالات السياسية بين الفريقين بعد الفوز العسكري كما تنعدم امكانيات المصالحة. إن الانتفاضة تدمر بانتصارها السلطة السياسية المنازعة، وتقيم في مكانها سلطة أخرى هي سلطتها. عندئذ، يصبح ضرورياً تحول التفوق العددي النسبي الى تفوق مطلق من أجل التمكن من مساندة الطليعة المتمردة في كل قطاعات الجبهة، وحتى الهزيمة التامة للهجوم المضاد، الذي يحتمل القيام به من قبل العدو، ومن أجل مساندة السلطة السياسية الجديدة. والخلاصة ان التفوق لا يجب ان يبقى محلياً بل عاماً، ليس فقط عسكرياً بل سياسياً أيضاً. ولا بد للانتفاضة ان تحظى بأغلبية البلاد. وهذا أحد الأسباب التي دفعت لينين الى مناهضة انتفاضة تموز ١٩١٧ بينما حرض حزبه على انتفاضة أكتوبر. في انتفاضة الثالث والرابع من تموز في سان بطرسبرغ، لم تُفلح

البروليتاريا حتى بالاستيلاء على قصر التوريد (Tauride) مقر اللجنة التنفيذية لعموم روسيا في مؤتمر السوفيات واللجنة التنفيذية للسوفيات في بطرسبرغ، والتي تركزت ضدها كل جهودها وجهود الأفواج الثورية. واكتفت الحكومة بإرسال وحدات من القوزاق لايقاف التمرد. ولو كان البلشفيون موالين للانتفاضة، أو لو استعدوا لها وقادوها بدل ان يتبعوها، كما فعلوا في الواقع حتى لا يغضبوا الجماهير التي نزلت الى الشارع، لتمكنوا ليس فقط من إسقاط قصر التوريد بل أيضاً أهداف أخرى بالضربة الأولى. ولكن من كان يمكن أن يساندهم ؟ لا حامية العاصمة التي كانت تتفرج حيادية وغير مبالية، ولا جيوش الجبهة، ولا الرأي العام في المدينة والأرياف، الذي لم يكن مُهيأ لمثل هذا الحدث. اما انتفاضة اكتوبر فكانت مختلفة، حيث كانت الحكومة الموقتة معزولة كأنها هيئة غريبة عن البلاد. وقد أثبتت محاولة الثورة المضادة التي أطلقها اليونكر في الثامن والعشرين، وكل المحاولات المتعاقبة، ان الانتفاضة لم تكن تعتمد أصلاً على جرأة بعض المتهورين بل على الانضمام الحماسي للأغلبية الساحقة والناشطة من الشعب.

وتبقى الانتفاضة البروليتارية اسماً مجرداً ان لم يؤيدها الشعب والجماهير. ولا بد من تصحيح بعض الانحرافات العقائدية التي تجعل من الشعب قوة مناهضة لقوة البروليتاريا. ليست البروليتاريا نفسها سوى جزء من الشعب. الشعب بمعنى الجماهير، الذي كان الفلورنسيون، زمن الكومونات، يسمونه «الشعب الصغير» (Popolo minuto) بالمقابلة مع تعبير «الشعب السمين» (Popolo Grasso) الذي كانوا يلقبون به الأقلية البورجوازية الكبرى. إنه التناقض نفسه بين الفقراء والأغنياء. «الشعب !» هي صرخة التجمع، التي كانت الجماهير الفلورنسية تواجه بها طغمة المديتشي (Medicis). فمنذ أوائل القرون الوسطى لم تعن كلمة شعب كل الناس بل ذلك الجزء منالناس الذي كان يستغله الحكام، أي النبلاء أولاً ثم البورجوازية الكبرى. إن تسمية شعب هي تسمية ديمقراطية انبثقت عن صراع الطبقات. إن كلمة شعب لم تعنِ أبداً الجماهير الكادحة وفي نفس الوقت الأمير والأسقف والمصرفي. كذلك اليوم، الشعب لا يشمل الشعب بحد ذاته مع بيرلّي (Pirelli)، والكونت فولتي (Volti)، والملك، أو كرادلة الادارة البابوية. لقد حاول المحافظون في كل زمان اعطاء الكلمة معنى جامعاً توفيقياً، لكن كان هذا عملاً لا جدوى منه. لقد اعطى موسوليني عنوان «شعب ايطاليا» للأصل السياسي للرجعية الايطالية بعد الحرب، كما فعل كوتي (Coti) في فرنسا عندما عنونَ صحيفته «صديق الشعب» (l'Ami du peuple)؛ لكن المقصود هنا خدع بلاغية. لقد نسخ

موسوليني اسم الصحيفة المزّينية (نسبة الى مزّيني)، في القرن الماضي وكوتي اسم صحيفة مارا (Marat). كل منا يدرك طبعاً ان كلمة شعب كانت تعني لمزيني ومارا مفهوماً آخر.

إذن، فالشعب، في المفهوم السياسي والانتفاضي، له معنى ديمقراطي، أي الجماهير الشعبية وليست البروليتاريا سوى طليعتها. ولا يمكن تصور انتفاضة بروليتارية وحدها، اي دون أغلبية الشعب. وذاك مستحيل عملياً. كأننا نتكلم في العصور الحديثة عن حرب بالخيالة فقط. تستطيع الخيالة اعطاءنا معركة طليعية خارقة، ولكنها جزئية وذات أهمية محدودة فقط. ذلك ان المعركة الحقيقية، اي المعركة الحاسمة التي وحدها تحقق النصر، هي نتيجة مشاركة كل الأسلحة او على الأقل الأسلحة الرئيسية، وقبل كل شيء المشاة. اذا تابعنا المقارنة نرى ان الجماهير الشعبية هي في الانتفاضة كالمشاة في المعركة، فبدونها لا نحتل موقعاً ولا نحافظ على أي مركز.

تحتاج الحرب الأهلية الى قاعدة واسعة في البلاد، تماماً مثلما تحتاج الحرب الى جيوش. هل يستطيع جيش ان يخوض اليوم حملة من دون مساوندة الأمة معنوياً ومالياً واقتصادياً وسياسياً؟ كذلك البروليتاريا، فلا بد من مساندتها كي تتقدم وتنتصر. يجب انْ تبدو لسائر الشعب وكأنها ممثلته في وقت حاسم للغاية. وترتبط إمكانية نجاحها بقدرتها على استمالة بقية الشعب الى جانبها. إذ انها بحد ذاتها وقبل كل شيء أقلية صغيرة.

ليس ثمة بلد ذو أكثرية بروليتارية. في أوروبا، اذا استثنينا بعض المراكز المنجمية، وبعض المدن الصناعية التي تُعدُّ على الأصابع، نجد في الريف والمدينة أغلبية من الحرفيين والبورجوازيين الصغاّر والفلاحين. وفي ايطاليا، لا تصل البورليتاريا بعائلاتها الى ثلث عدد سكان البلاد. هذا الواقع يفرز نتائج هامة على صعيد العمل السياسي. وفي الحقبة الثورية، تتأثر الاستراتيجية والتكتيك الانتفاضي بهما. وتجاهل الضرورات المترتبة عليه يعني تجاهل القوانين التي تحكم الانتصار. ومع ذلك، فبإمكاننا وصف حقبة ما بعد الحرب، بالنسبة للبروليتاريا الثورية، بتجاهل هذه القوانين. وتحتل ايطاليا مع الأسف مكان الصدارة في هذا المجال. عندما كانت البروليتاريا الايطالية، في أحلك أيامها وحين كانت تتأرجح بين الحياة والموت، جعلت الشرائح الكبيرة من البورجوازية الصغيرة والفلاحين معادية لها او لا مبالية. وعزلت نفسها عن أغلبية البلاد مدَّعية أن بإمكانها العمل منفردة، في الوقت الذي كانت فيه بحاجة ماسة للمساندة.

هكذا نفهم كيف نجحت الفاشية بالاستيلاء على السلطة دون مقاومة تذكر، رغم كره البروليتاريا لها ونظرة البلاد السيئة لها.

نحن في حقبة سياسية، أصبح فيها الاعتراف بالأخطاء الخاصة أمراً شائعاً. ولكن ماذا ينفع الاعتراف عندما نكون مستعدين لتكرار الأخطاء التي نحن نعترف بها ؟

فلنعترف بأخطائنا إذن، ولكن لغاية واحدة هي تجنبها. لقد ارتكبت البروليتاريا سلسلة من الأخطاء الفادحة.

في هذا الوقت، يُمكن ابراز قضية التمييز بين البروليتاريا وقادتها. من منهم المُخطىء ؟ المشكلة معقدة جداً، وتذكرنا بقضية البيضة والدجاجة. وأترك لغيري مهمة حلها. فمن المؤكد ان البروليتاريا لم يكن لها حزبها السياسي كما تدعو الحاجة. وبهذا فقدت القوى التي كان لا بد ان تكون قواها المساندة الطبيعية، إذ من المنطق البالغ الوضوح أنه لا بد ان نتعلم تسيير أنفسنا للتمكن من قيادة الآخرين. لكن البروليتاريا سرعان ما أضاعت الاتجاه. وبدأت بعدم تقييم كاف للقوى المقاتلة ـ أي تقدير وجود كتلة مؤلفة من بضعة ملايين من المحاربين القدامى ـ وانتهت على أمل أن تحتمي بالدولة. ماذا كان حلّ في روسيا عام ١٩١٧ لو تجاهل عمال سان بطرسبرغ الحامية، أو لو وثق الحزب البلشفي بالحكومة الموقتة ؟

العدو هو الدولة الفاشية بكل هيكليتها البورجوازية والاكليريكية والملكية. وعلى الضد، **يجب ان تنهض البروليتاريا في الوقت المناسب، وتجر وراءها القوى الشعبية. ولكن قبل كل شيء، ليس عليها فقط أن توجد، بل عليها ان تعد نفسها قوة. إذ ان من** يُعلن نفسه عاجزا عن العمل، لا يتلقى المساعدة من أحد. إن انضمام الجماهير الشعبية الكبرى الى البروليتاريا يرتبط بإمكانيتها تلك على الوجود والظهور بمظهر القوة. وهذا الانضمام سوف يرتبط ارتباطاً وثيقاً بقدرة البروليتاريا على الخروج من موقع ذاتي والتحدث ليس باسمها بل باسم البلاد، الى ان تظهر مصالحها على انها مصالح البلاد العامة.

ان التقلبات الدورية للشرائح الكبرى في الرأي العام في الأزمنة الثورية، كما في الحقب الحساسة من الأزمنة العادية، ترتبط بسلوكها. لا شيء يثبت هذه الظاهرة أفضل من القاء نظرة على الانتخابات العامة الانكليزية في الأعوام ١٩٢٩ و١٩٣١ التي جرت

في مناخ من الهدوء الكامل والحرية السياسية. في العام ١٩٢٩، أحرز حزب العمال، على اثر معارضة لبقة ضد حزب المحافظين، ثمانية ملايين و٣١٧,٢٠٥ صوتاً وانتدب ٢٨٨ نائباً الى مجلس العموم. في العام ١٩٣١، وبعد سلسلة من الأخطاء والتدابير المبهمة التي افقدته الثقة، حصل على ٦,٦٥١,٨٠٣ أصوات وأحرز ٥٢ مقعداً في البرلمان. حوالي مليونين من الناخبين سحبوا من الحزب تلك الثقة التي كانوا أولوه إياها قبل سنتين. ومع ذلك، كان الحزب قد حافظ على كل قواه النقابية والسياسية دون مساس. في الواقع كان الحزب يَعُدُّ، سنة ١٩٢٨، ٢,١٠٢,٨٤٩ مسجلاً بما فيهم أعضاء النقابات والأعضاء الفرديون واعضاء المنظمات الاشتراكية والتعاونية. وفي العام ١٩٣١ كان يعد ٢,٠٠٠,٠٦١٠٦٣. هذه الكتلة الكبيرة والمتقلبة المكونة من مليوني مواطن، إذا أخذنا بعين الاعتبار، وهذا ضروري، اعضاء عائلاتهم الذين لا يصوتون، هذه الكتلة تصل حتماً الى رقم يفوق خمسة ملايين فرد. تحتاج البروليتاريا الى قسم من هذه الكتلة البشرية فقط كي تنتصر، واستمالته هو واجبها السياسي الأهم.

والظاهرة ذاتها تحققت، إنما بالعكس، في روسيا، للحزب البلشفي بين انتفاضة تموز ١٩١٧ وشهر أيلول الذي تلاها بعد محاولة كورنيلوف الفاشلة. الحزب الذي فقد الثقة في الثالث والرابع من تموز استعاد هيبته وأحكم سيطرته على البلاد بشكل مذهل. وارتفع عدد المسجلين فيه من ٢٨٠ الفا الى ٤٠٠ الف وكان الفارق كبيراً في جذب الجماهير!.

«الجماهير! الجماهير!»

نتحدث عنها بتشكيك وحتى بسخرية، ولكن بدون الجماهير نستطيع التآمر وليس التمرد. تتمكن البروليتاريا من إبراز مشاهد بطولية مثيرة كما فعل الشوتزبوند (Schutzbund) في النمسا ولكن بدونها، لا يمكن قلب السلطة السياسية.

إن الذين ينتظرون من البروليتاريا أعمالاً ملحمية كتلك التي لا تقوى عليها ارستقراطية منظمة، لا يثقون بها. إن المثقفين الذين وقعوا بيان كروتشي (Groce) في ١٩٢٤، كانوا ينظرون الى الجماهير كاحتياطي من الضباط، ولكن ماذا فعل هؤلاء الناس أفضل من ذلك وأنبل؟ لقد استسلموا، مثل الجماهير، امام الأرهاب والمتطلبات البائسة للحياة، ولكن الطبيعية منها. فانحنى العقل ـ صاغراً أمام المعدة. وقد نجد متعة أدبية معينة في الاجابة عن السؤال التالي: ماذا كان فعل بنديتو كروتشي لو طردته

الفاشية من نابولي، ومن مجلس شيوخ المدينة، وصادرت أملاكه، وانتزعت منه حتى كتابه الأخير، وارسلته أخيراً الى ليباري (Lipari) او الى بونزا (Ponza) بمرتب يبلغ خمس ليرات في اليوم ؟

الجماهير تشبه جيشاً له كوادره وقيادته، فهي قادرة على القيام بالحملات الكبيرة. واذا تشتتت، لم يعد بوسعها القتال. ليس ضعف المعنويات الذي يُفضي الى التشتت ظاهرة خاصة بالجماهير. بل هو ظاهرة بشرية مشتركة للجميع. إن الذي يُهزم او يعتبر نفسه كذلك - في الحالتين نحصل على نفس النتائج تماماً - يفقد ثقته بنفسه. ومن هُزم مرة ومرتين وعشر مرات، مثل الجماهير الايطالية والجماهير الالمانية، يفقد ثقته بنفسه وبقادته. ان سلسلة لا متناهية من الهزائم ليست كفيلة بدفعنا الى حملات مجيدة وغير متوقعة. رأينا ذلك في السّار حيث صوّتت الجماهير، عندما دُعيت الى التعبير عن رأيها باستفتاء، صوتت لهتلر، رغم وجود نظام شبه عادي من الحريات السياسية وفي وضع ضمنته القوى العظمى. تلك كانت نتيجة الهزيمة التي كانت قد منيت بها، قبل سنتين ودون معارك، كل الأحزاب الجماهيرية والتي لا تشكل ذكراها دفعاً دائماً لانتقامات مجيدة، بعكس ما حصل في هزائم عمال المناجم في الاستوري (Asturies) وفي التشوتزبوند النمساوي. لو افترضنا إمكانية إجراء انتخابات عامة في الخارج، لحصلت الحركة الايطالية المناهضة للفاشية على نفس النتائج، ولما اعطتنا الجماهير الايطالية المهاجرة أكثرية أصواتها. لا تتحمس الجماهير إلا بعد النجاح، مثلها مثل الجيوش ومثل عامة الناس. وحده النصر يضاعف القوى المعنوية، بينما الهزائم تُحبط وتُذِلّ. ويشبه الساسة، الذين يلقون، عند هزيمتهم، تبعة هذه الهزيمة على الجماهير فيما يكونون هم أول المسؤولين عنها، يشبهون الجنرال كادورنا (Cadorna) الذي لا يُنسى والذي اعتقد، خلال كابوريتو، انه ينقذ شرفه المحطم كقائد للمرتزقة بعد سنتين من عدم الكفاءة الواضحة بإبراز عدم كفاءة بعض الألوية للأمة.

إن الشجاعة ذاتها ظاهرة بعيدة عن البساطة تحكمها ظروف مسبقة تبدو متشابهة لدى الجماهير الشعبية والجيوش في الريف والأفراد المعزولين. الشجاعة تتناسب عكسياً مع الخطر المحدق. عندما يكون الخطر كبيراً، تصبح الشجاعة نادرة، وعندما يقلّ الخطر تزداد الشجاعة. لهذا السبب يُحقق الكثيرون في الخارج الشجاعة التي لم تكن لديهم في بلادهم. لهذا السبب أيضاً، كل الايطاليين الذين أثاروا ضجيجاً صاخباً من

عام ١٩١٩ الى عام ١٩٢٩ آثروا الصمت الهادىء بعد ذلك.

لا بد من ضعف العدو كي تولد الجرأة في المعسكر الآخر. كم من اعتراض ظهر في ايطاليا في قضية ماتيوتي (Mateotti) : كانت الفاشية عندها في تقهقر. كان خطاب الثالث من كانون الثاني ـ كافياً لاعادة احترام ظاهر وامتياز دبلوماسي الى الذين أضاعوا صوتهم في الضوضاء: خاصة الى المثقفين المهنيين الذين كانت الدولة تدفع لهم ليصبحوا أساتذة في مدارسها.

هذا قليل من الاطراء بالنسبة للطبيعة البشرية، ولكنها هي كذلك، وليس بوسعنا تحطيم الواقع. ينبغي ان يبدأ العدو بالهرب كي لا تعرف شجاعة من يلاحقه حدوداً.

إن الشجاعة المطلقة التي لا تتغير أبداً، لا في الحرارة ولا في البرد، لا في الليل ولا في النهار، لا في البيت ولا في الخارج، ان هرب العدو وان قاتل هي ظاهرة غريبة واستثنائية. انها على الأرجح مرض في الكبد أو في المعدة.

الاستخفاف نفسه، الذي نستلهمه الشجاعة غالباً، ينقص حسبما يبدو أمام ضغط الخطر. ولكن اذا اختفى الخطر يتخذ الاستخفاف أحجاماً هائلة. وإن نهار السادس من شباط في باريس هو نهار مميز. لم ينطفىء بعد غضب الشباب الوطني، بالعكس فقد زاد أكثر فأكثر، إذ انه خلال هذا النهار المشؤوم، تجرأ الحرس الجمهوري والحرس المتحرك على اطلاق بضع طلقات مسدس ضد الذين كانوا يطلقون العيارات النارية من مسدساتهم. ولكن ماذا كان سيحصل لو زُجّت القوات الجمهورية المسلحة ببنادق او رشاشات او ببعض المدافع من عيار ٧٥ (Deport).

هذا ما كان سيحصل: كان السيد دي لاروك (de La Roque) أخذ المجهول وكتب أطروحة حول القناعة. وليون دوديه (Daudet) كان قد جهز حقيبته مرة اخرى بدل ان يُبرز نزاعات حول اقتحام المنازل ضد القضاة المحققين.

إن بونابرت مدين ببداية سَعْدِه للفهم الدقيق لهذه الحقيقة، عندما حيّا الشبيبة الوطنية في ذلك الوقت ببضع طلقات من المدفع يوم الثالث عشر من فنديمير (أحد شهور التقويم الثوري). بالطبع، تبخرت الصلبان النارية، وتبخر الجنود المجربون في ذلك الوقت، كذلك الشبان الفرسان الأنيقون وخطاب السيد دي لاروك لهذه السنة التاريخية: فلم يسمع أحد شيئاً.

ثمة مثل آخر قدمته لنا الألوية الفاشية الأولى، وهـو بالـغ التثقيف، فقد اكتسبت سمعة كبيرة من خلال أعمال بالغة الجرأة. وثمة في المقابل اخصام معدومون وتواطؤ من قبل السلطة. ولكن عندما انشقت لأسباب معقـدة (سالا Sala، فـورني Forni، تورّي Torre الخ. الخ. . . وأخيـراً أربيناتي Arpinati) وسارت بعكس التيار، أزيلت بالقوة دون إبداء أية مقاومة. ومع ذلك، بقي الأشخـاص انفسهم، فقط الوضـع هو الـذي تغيّر. وترددت الظاهرة ذاتها، بشكل علمي أكثر في المانيـا، عندمـا اعدم هتلر في ليلة واحدة روم (Röhm) وهرنست (Hernst) وشتراس (Strass) ونخبة الألوية النازية دون ان يرف لجيش انصارهم جفن.

إن قلب وضع سياسي عام، هو في الغالب، خارج عن إرادتنا وعن عملنا. لكن واجب القادة السياسيين الأسمى هو استغلال وضع يبـرز في الوقت المـلائم، لاضعاف قوى نظام متقهقر وتحطيمه، ثم بعث الثقة والشجاعة في الجمـاهير من أجـل دفعها الى العمل. الخوف مُعدٍ غالباً لكن الشجاعة هي أيضاً كذلك.

الفصل الثامن

الجماهير: البورجوازية الصغيرة

يُقصد بالجماهير، علاوة على البروليتاريا، البورجوازية الصغيرة والفلاحون بشكل رئيسي.

ثمة مذهبية في التعبير أوجدت معنى غريباً لمصطلح البورجوازية الصغيرة بل أضحت البورجوازية الصغيرة اهانة في الجدل السياسي ونوعاً من المواطنين بالغ الالتباس، ومكيدة دائمة ضد البروليتاريا، ونوعاً من الدمى المتحركة مرتبطة بالبورجوازية الكبرى والدتها، ومرتدية فوق ذلك، رداء دائماً من الحماقة الواضحة والتآمر الخفي.

ومع ذلك، فالبورجوازية الصغيرة هي الحليف الرئيسي المفروض بالبروليتاريا الاعتماد عليه.

أما الجمل الشائعة المحقّرة بحقها فتعود الى خلفيات سلوكها في القرن الماضي - ١٨٣٠ - ١٨٤٨ - ١٨٥١ - ١٨٧١ - وبالأخص الى الرأي الشائع ان الفاشية كانت ظاهرة من صنعها، لا يتوافق والواقع.

البورجوازية الصغيرة هي طبقة عاملة تعيش من عملها الخاص دون استغلال عمل الآخرين، وتشمل الملاكين الصغار، والشغيلة، والموظفين، والمزارعين، والعمال الزراعيين، وصغار الصناعيين، وصغار التجار، وهي طبقة متوسطة بين البورجوازية والبروليتاريا، تقترب غالباً من البروليتاريا اكثر مما تقترب من البورجوازية. بل انها

تقترب منها خلال بعض الحقب الى درجة الذوبان الواضح فيها.

هذه الطبقة التي كانت في القرن الماضي واضحة المعالم حيث بلغت الحرف نمواً كبيراً، فيما كانت البروليتاريا الصناعية لا تزال تتكوّن كقوة نقابية وسياسية، هي اليوم أقل تحديداً بكثير وتبدو متبعثرة بتداخلاتها المتعددة، ولكنها تبدو مستقلة في الوقت الذي تشكل فيه اكثرية البلاد. حتى في القرن الماضي، لم يكن للبورجوازية الصغيرة موقف مسيطر. فكانت القيادة السياسية لطبقات البورجوازية المتوسطة. هذه الطبقات هيمنت على البورجوازية الصغيرة والبروليتاريا في آن واحد، لأنها كانت أفضل استعداداً ومصالحها المناهضة للاقطاع أفضل تحديداً، رغم كونها أقلية في البلد، كما في كل البلدان. وقد أفسحت كلتا الطبقتين المجال لها غالباً ودون مقاومة تقريباً، فقامت إذ ذاك بعمل سيء إذ ان الأنظمة البرلمانية للديمقراطية الدستورية التي أثبتت وجودها خلال القرن الماضي في أوروبا هي قبل كل شيء من صنع البورجوازية المتوسطة. فجنت البورجوازية الصغيرة والبروليتاريا من هذه النظم منافع هائلة.

إن خيانة البورجوازية الصغيرة خرافة، وإن كان ثمة خيانة فالبورجوازية الصغيرة ضحيتها وكذلك البروليتاريا، إذ ان الظاهرة الأبرز بعد الثورة الفرنسية هي التحول في ذهينة الطبقات الوسطى، التي ما إن وصلت الى السلطة حتى أبعدت الفلاسفة والطروحات الفلسفية من أجل الاهتمام بالأسلحة الحربية وبالدفاع عن تلك المصالح نفسها التي بدا انها تمردت ضدها. ذلك ان مصالحها كانت تزداد مع ازدياد نجاحاتها. ويعود إخفاق الثورات الشعبية في فرنسا والمانيا والنمسا وايطاليا خلال القرن التاسع عشر الى هذ التحول السريع لدى البورجوازية الوسطى.

إن قناعة العديد من اختصاصيي الفاشية الايطالية، التي تقول ان الفاشية ربما هي من إفراز البورجوازية الصغيرة، ليس لها قوام أكبر. فلم يكن للفاشية قط مميزات بورجوازية صغيرة لا من قبل ولا الآن. ليست البورجوازية الصغيرة هي التي أفرزت الفاشية بل البورجوازية الكبرى الصناعية والمصرفية والزراعية التي كانت قد اجتذبت اليها البورجوازية الايطالية المتوسطة منذ زمن بعيد. ففي المناطق التي كان ينقصها الرأسمال الكبير، ذبلت الفاشية وأصبحت ضعيفة وغير فاعلة، أقلية نادرة ومبتذلة. وبعد ان اجتاحت الأراضي والمصانع عندها فقط تحول ذعر الطبقات المالكة الى قوة محركة للفاشية. لولاها لما استولى موسوليني على السلطة. فقد موّل الملاكون العقاريون والتجار

والمصرفيون والصناعيون الزمر القتالية وتنظيم الحملات ضد البروليتاريا لمعاقبتها في البييمون (Piémont) ولومباريا، وليغوريا (Ligurie) ورومانا (Romagne) وأومبريا (Ombrie) والبوي (Pouilles) وسردينيا. وهم أيضاً الذين تحملوا النفقات الكبيرة في انتخابات عام ١٩٢١، ثم في تهيئة واطلاق ومساندة تلك المغامرة الغريبة التي اتخذت اسم المسيرة الى روما. وقدمت البورجوازية الصغيرة الكوادر الصغيرة والجنود العاديين، كما قدمتها الشريحة الأكثر بؤساً من البروليتاريا، دون ان يكون بوسعنا القول عندها ان البروليتاريا هي التي ساندت الفاشية.

إن تكوين الألوية، قبل ان يكون ظاهرة واسعة بعد ١٩٢٥، وبخاصة في جنوب البلاد بكامله وفي الجزر حيث نظمته الدولة، كان ظاهرة محدودة، مجموعات متناهية في الصغر مكونة من مغامرين منبوذين ومن أحط طبقات البلد التي تشمل البورجوازيين والبورجوازيين الصغار والبروليتاريين، خاصة البروليتاريين العاطلين المشردين الذين يساوون بين فكرة الثورة وفكرة الدخل الثابت. لكن هؤلاء الرجال لم يكونوا سوى اقنعة تخفي وجه الفاشية الحقيقي: أي الرأسمال. كانت الألوية الفاشية في حقبتها الكلاسيكية مجموعة من المرتزقة والعبيد مثل شركات المغامرين الكبرى. كانت الزهرة الصافية من الرعاع في فترة ما بعد الحرب بحاجة الى العيش. فانضمت اولا الى أحزاب اليسار وساهمت فعلياً بإظهار قبحها امام الناس بسلسلة من التحديات وأعمال العنف المثيرة واللامجدية، ثم انتقلت دفعة واحدة الى المعسكر الفاشي وطوّرت بالحديد والنار السلطة العسكرية «لمحلوقي الرأس» (Ras)، الذين سرعان ما أصبحوا يتمتعون بقدرة كلية في الاقطاعات التي كانوا يقضمونها شيئاً فشيئاً من الدولة الليبرالية المندحرة. ففي هذا المجال أظهرت الألوية، للمرة الأولى في اوروبا الغربية فعالية الرعب كنظام تربوي يجعل ورثة جيوفاني جنتيلي (G. Gentile) التربويين يهتزون إعجاباً. بينما في السنوات الماضية لم يكن العنف الاشتراكي سوى تظاهرات ديماغوجية للعجز الثوري، متقطعة ومتباعدة، فوضوية وعشوائية، وأصبح بالمقابل عنف الألوية المرتزقة منهجياً ومنتظماً تحكمه هرمية منطقية ومركزية منسقة تنسيقاً رائعاً وتتقدم باضطراد. ومع ذلك، اعطت تلك الهرميات، كنظام مؤقت للسيطرة، نتائج غير متوقعة وهائلة، إذ ان النفس البشرية تبدو في هذه الظروف الخاصة أكثر تأثراً بالعصا منه بالوازع الصارم. لقد احتلت مدن مثل فيرون وبادو (Padue, Verone)، وتورينو وفلورنسا التي كانت في لغة الصور تُعدّ مهداً للحضارة والحقوق، واستولت عليها الألوية بسرعة البرق، بحوالي مئة ـ لا أكثر ـ من

القتلة المنظمين جيداً، كانوا قد تخصصوا عملياً في الحرائق والقتل ببرودة التقنيين. والخراب الذي حل بالبعض دوّى كتهديد للجميع وجمّد الذعر أقدام العالم.

بهذا الجهاز البالغ الحداثة سُحقت البروليتاريا بسهولة. وإذ جُرَّت الى ميدان البطالة في المستوى والمهنة، كانت لا تزال تجهل العديد من التجارب: وخاصة كون الثورة شيئاً محسوساً وبالغ الجديّة لا ينجز بالكلام. فحصل الرجعيون على نتائج هائلة. وصفق الجميع للعنف، في المؤتمر الفاشي سنة ١٩٢١، لأنه يكسب الكثير بتكاليف قليلة. وكان موسوليني لا يزال خصماً للعنف الفردي ومخلصاً كاشتراكي لذكرى بلانكي الذي كان يدعي التبعية له، لا لكاترين دي مديتشي. فتحول هو أيضاً الى نظام الرعب بعد أن قدم زهرة أدبية مؤثرة لصوفية القديس فرنسيس الاسيزي (F. d'Assise)(١).

لم يكن للبورجوازية الصغيرة دخل في هذا المجال أبداً لا من قريب ولا من بعيد.

وكانت فترة الألوية المتوحشة او المرتزقة قصيرة. وكان الفاشيون المدّعون، في نهاية العام ١٩١٨ وفي ١٩١٩، غرباء عن هذه الحقبة وكلهم عناصر عادوا لتوّهم من الخنادق وفي رؤوسهم خلط بسيط، لكنهم كانوا رومانسيين يناهضون اخلاقيا الضجة المبتذلة، التي بقي بوكو (Bucco) في بولونيا رمزها الأزلي، أكثر مما يناهضون الخطر الاجتماعي الذي يشكله صعود البروليتاريا الى السلطة. وكانت الشبيبة أيضاً، بما فيها البورجوازية، غريبة عن تلك الحقبة. ولم تصبح الفاشية، إلا فيما بعد، حركة واسعة يؤمها البورجوازيون من كل الأعمار، وأيضاً شباب من البورجوازية الوسطى وبورجوازيون صغار وبروليتاريون ومثقفون وطلاب، ليس بدافع من الحقد الطبقي بقدر ما هو احتقار صادق للجمود الاشتراكي وللكرامة البرلمانية الضعيفة لدى الديمقراطية الايطالية التي اضحت تهريجية.

أما البورجوازية الصغيرة التي كانت غريبة عن الفاشية البطولية، فقد كانت أيضاً غريبة عن الفاشية الشعبية. إذ ان الحركة الواسعة، رغم فوضويتها التي خلقتها

---

(١) في هذا المؤتمر كان غراندي (Grandi) هو مُنَظِّر العنف وانتهت الخلافات بينه وبين موسوليني حول المسألة بالمعانقة؛ لكن تلك الخلافات كانت قوية، بين ذهنيتين ونظامين: نظام الريف ونظام المدينة، الملاكين العقاريين والصناعيين. كان الملاكون العقاريون دون مواربة الى جانب ذبح الفلاحين، بينما طالب الصناعيون بالالغاء التدريجي والقانوني للمنظمات العمالية. غراندي الذي كان يمتدح ميلتون ولوك في الصالونات اللندنية كان يمثل في هذا النزاع الملاكين العقاريين. وانتهى بفرض وجهة نظره حتى على الصناعيين.

البروليتاريا ما بعد الحرب، ؛ لم تروّع البورجوازية الصغيرة بل الرأسمال الكبير. لذلك لم يعد بإمكان الفاشية حتى سنة ١٩٢٣ ان تضع رجلها في اية منطقة من الجنوب او الجزر، حيث تسيطر بورجوازية صغيرة مدنية وريفية. ويجب استثناء بعض مناطق البوي (Pouilles) التي كان يمتلكها كبار الملاكين العقاريين وبعض المراكز المنجمية في صقلية وسردينيا. وفي كمبانيا (Campanie)، بقيت الفاشية محصورة بحركة القائد بادوفاني (Padovani) الطريفة، وهو شاعر جوّال مبرقش يحمل قيثارة ولكنه غير رجعي. ويجب البحث عن أصول ذلك في الجمهورية التي أسسها الفرنيون في نابولي سنة ١٧٩٩ وفي «الموراتيه» (Muratisme) خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، وليس في المصارف الصناعية او الزراعية التي يرتبط بها الحزب القومي وكان فاشياً من نوع آخر. كانت الفاشية النابوليتانية لدى النقيب بادوفاني، بالنظر الى انتخابية جيوليتي (Giolitti) وهي مجموعة من الحكام حملة العصي، حركة ديمقراطية شريفة قامت ضد طغمة اللصوص في النضال السياسي. لهذا السبب بالذات لم يحالفه الحظ ولم يبعث بأي نائب الى المجلس في الانتخابات العامة لسنة ١٩٢١.

ومقاطعة الأبروز (Abbruzes) (وليس المولیز Molise) هي التي انتدبت نائباً فاشياً، ولكن هذا، أي اسيربو (Acerbo) كان إفرازاً هزلياً للمافيا الديمقراطية و«القتالية» الهادئة دون مطرقة ولا زيت خروع.

بعد المسيرة الى روما، أصبح، حتى الجنوب والجزر فاشية. هذه المناطق اطاعت دوماً، باخلاص، وبشكل أعمى، الرجل الذي استولى على السلطة إن كان ريكاسولي (Ricasoli) أو ديبريتيس (Depretis) او كريسبي (Crispi) او جيوليتي (Giolitti) او نيتي (Nitti) او موسوليني. لكن البورجوازية الصغيرة لا تمثل فيها حصة تختلف عن حصة البورليتاريا.

كانت البورجوازية الصغيرة الايطالية ضحية للفاشية وليس سنداً لها.

عندما تعي البورجوازية الصغيرة واقعها، تصبح الحليف الطبيعي للبروليتاريا ولا تعود الانتفاضة مشكلة نظرية. المهم ان تستطيع البروليتاريا اعادة تكوين نفسها كطبقة تشكل نقطة اجتذاب للطبقات الدنيا بعد ان انحدرت الى اوضاع امبريالية مثل وضع العامة القيصرية. وإن لم يحدث ذلك، تصبح يقظة البورجوازية الصغيرة او غفلتها بلا أهمية. أما البروليتاريا ـ ونعني هنا ممثلي البروليتاريا، أي نحن بالذات ـ فبدل أن تفرق

تفكيرهما بالشك حول ما ستفعله البورجوازية الصغيرة، عليها ان تفكر بمشاكلها هي، وهي خطيرة ومعقدة إلى أقصى حد. وليس بوسع البورجوازية الصغيرة أكانت منظمة ام لا إلا ان تقاتل الى جانب البروليتاريا ان لم تقع في أخطاء فادحة.

يتبع تروتسكي انغلز في نقده لسلوك البورجوازية الصغيرة الالمانية سنة ١٨٤٨، ويلاحظ التقلب الدائم لكل بورجوازية صغيرة، بما فيها الروسية بين البورجوازية والبروليتارية. ويستنتج من ذلك انه بين كل الظروف الملائمة للانتفاضة، يبدو وضع البورجوازية الصغيرة هو الأكثر تقلباً. لو تخلى البلشفيون عن الانتفاضة في شهر اكتوبر، أو في أي تاريخ قريب جداً، لكانوا أضاعوا هم أيضاً هذه الشروط الأساسية المقدمة والتي تعتبر الأكثر ثباتاً: وهي حامية العاصمة، والبروليتاريا بشكل خاص. إن البروليتاريا ـ كونها جسماً بشريا وليس ميكانيكياً ـ هي نفسها غير ثابتة. كانت سنة ١٩١٧ في سان بطرسبرغ مهيئة تهيئة استثنائية للأحداث التي تلت. وكانت الحرية، التي لا حد لها التي تمتعت بها منذ شهر آذار حتى شهر اكتوبر، قد اعطتها، من خلال الصحافة والمنتديات وجمعيات المعامل وجمعيات السوفيات والحزب، وعياً سياسياً واطلاعاً على قوتها. ومع ذلك، ففي هذه الشهور نفسها بين أيلول وتشرين الأول، وقبل الانتفاضة ظهرت بعض بوادر أزمة هي قلة الثقة بالنفس وبالقادة ودسائس الحكومة الموقتة والمحاولات المتتالية للسيطرة على السوفيات وفشل انتفاضة تموز وجرأة كورنيلوف بالذات، وبالرلاغم من خروج البروليتاريا منتصرة من الصراع، كان التردد الملاحظ في اللجنة المركزية للحزب البلشفي قد انتزع منها قسماً كبيراً من هذا الاصرار وهذا الاندفاع وهي المميزات الأهم للثورة الروسية. الويل لها لو لم تأخذ السلطة بالعنف في تلك الفترة. ربما ولّد التأخير سلسلة من الأخطاء، وربما انتهت البروليتاريا ذاتها الى الحذر ثم التشتت والاستسلام. تلك هي الظاهرة التي تحققت في البروليتاريا الايطالية والالمانية والنمساوية بالذات حيث يعود اخفاق انتفاضة الشوتزبوند الى غياب البروليتاريا من النضال في فيينا وفي المقاطعات. ذلك ان البروليتاريا كانت قد هُزمت قبل ان تُهزم طليعتها المسلحة الرائعة، اي الشوتزبوند في حملة عسكرية يائسة، تمت فقط لانقاذ شرف الاشتراكية امام العالم.

ليست البورجوازية الصغيرة أكثر تقلباً من اي شريحة أخرى من الناس.

حتى في الحرب، إن حماس الجنود، وهو شرط لكل انتصار، بعيد جداً عن الاستقرار. فهو يتأرجح تأرجحاً هائلاً.

وفق التجارب التي قدمتها لنا أحدث الانتفاضات، لا تظهر لنا البورجوازية الصغيرة اي نزعة للهروب. في روسيا، أنقذت الثورة بمساهمة البورجوازية الصغيرة في انتفاضة اكتوبر، وفي الحرب الأهلية ضد جيوش الروس البيض التي تلتها. من ١٩١٧ الى ١٩٢٠ قاتلت البورجوازية الصغيرة وضحت الى جانب البروليتاريا. انتفاضاتها أتت فيما بعد عندما تحقق، سريعاً جداً، منهج إضفاء الطابع الاشتراكي التام، مما ألحق الأذى بمصالح العديد من الشرائح في البورجوازية الصغيرة المدنية والريفية. لكن كلمات السر التي كانت قد جمعت البورجوازية الصغيرة والبروليتاريا لانتفاضة اكتوبر والدفاع عنها تغيرت. وهذه أمثولة للثورة الايطالية. لن تنضم البورجوازية الصغيرة قط الى انتفاضة تعلم مسبقاً انها ستخرج منها مُغتَصَبة. إن مشكلة التحريض السابق للانتفاضة هي مشكلة اساسية. ويجب على أحزاب البورليتاريا مواجهتها باخلاص وجدية، وليس بواسطة خدع تكتيكية مقنعة. إن البلشفية في روسيا ارعبت بتطبيقها للاشتراكية، البورجوازية الصغيرة في كل البلدان. ويجب على البروليتاريا الثورية ان تأخذ في اعتبارها هذا الواقع.

في انتفاضة آذار - نيسان ١٩٢٠ في منطقة الرور (Ruhr) - وهي الانتفاضة المسلحة الكبرى للبروليتاريا الالمانية بعد الحرب - اتخذت البورجوازية الصغيرة بكاملها موقفاً موالياً للبروليتاريا ضد كاب (Kapp) وضد جيش الدفاع عن الامبراطورية، خاصة في هوغن (Hogen) ورمشايد (Remscheid) وبصورة عامة في كل مكان حول ايسّن (Esen).

وفي الانتفاضة الاشتراكية الاسبانية، التي وقعت في مدريد خلال اكتوبر ١٩٣٤، دعمت البورجوازية الصغيرة الشيء القليل الذي حصل. فقدمت السلاح والمواصلات والمخابىء والتستر على فصائل العمل. كذلك في كاتالونيا. صحيح أن البورجوازيين الصغار الذين كانوا يقودون حكومة كتالونيا نادراً ما تصرفوا تصرفاً حربياً، لكن المسألة كانت مسألة رجال وليس طبقات اجتماعية: لو كان الكولونيل ماسيا (Macia) مكان كومبانيس (Companys) لتصرف بشكل مختلف تماما[1]. لو تأمن للبورجوازية الصغيرة في برشلونة قيادة مختلفة، لأتت بالمعجزات. يعطينا البرهان على ذلك الاتحاد المستقل لمستخدمي التجارة والصناعة، وهو أول من بادر إلى فتح النار ضد القوات المسلحة

(١) في هذه الحملة، كان الشرق الوطني الكتلوني يوشك ان يتلوّث. والذي انقذه هو الجنرال باتيه (Batet) الكتلوني، الرجل الوحيد المتفوق في أيام برشلونة.

للحامية التي تمركزت امام قصر «الجنراليداد» (Generalidad) اما في الريف، فقد شاركت البورجوازية الصغيرة بكاملها مشاركة فعالة في الانتفاضة.

وفي الأستوري (Asturies)، ضاهت بطولة البورجوازية الصغيرة بطولة البروليتاريا وفي مدينة أوفييدو (Oviedo)، تعرضت بكاملها تقريباً للخطر. وعقاباً لها قصفت الحكومة بالطائرات الأحياء الأكثر مركزية في المدينة دون الاهتمام بالتمييز بين الأحياء المكتظة وغيرها. وفي الريف، وبعد سحق الانتفاضة، وُجد بين الموقوفين المتهمين عدد كبير من الباعة والحرفيين والأطباء والموظفين. كانت البورجوازية الصغيرة متضامنة مع البروليتاريا الى حد التهور. وجدير بالذكر المثل الرائع لمجلس البلدية في لافيانو (Laviano). فقد عينته الحكومة بمرسوم من البورجوازية الصغيرة الصرفة، لتحل محل البروليتاريين الثوار الذين كانوا يشكلونه وقد حصل هذا في قلب منطقة منجمية، وفي فترة تميزت بالتعسف، ومع ذلك فقد صوت المجلس، بكل تأييد وإعجاب الى جانب المتمردين.

الفصل التاسع

الجماهير: الفلاحون

يشكل الفلاحون مجمل البورجوازية الصغيرة في الريف. وقد تمتعوا دوماً بتقدير ضعيف جداً لدى الأحزاب الثورية. فمنذ احكام «البيان الشيوعي» حول الحياة الريفية حتى الدستور السوفياتي للبولشفيك، حيث اعتبروا فكرياً، كنسبة دنيا في الحياة الوطنية، واجتماعياً كخطر رجعي دائم.

لقد سخرت المدينة دوماً من الريف، والمثل الشعبي «حذاء كبير ودماغ صغير» ليس مطلقاً سوى تعزية ساذجة من أصل ريفي. ان تعابير مثل «قروي» و«ثقيل الظل» هي تعابير مدينية تودّ الاشارة ليس فقط الى تفوق مدنية المدينة على مدنية الريف - مما لا نقاش حوله، إذ ان المدينة والمدنية كلمتان مترادفتان - ولكن الى تفوق الذكاء أيضاً. فالتناقض بين المدينة والريف قديم قدم العالم. وقد كانت نتيجته دائماً على حساب الريف. فحَذَرُ الريف تجاه المدينة له ما يبرره. وليست عبودية الحقل، اذا كان لا بد من تصديق فوستل دي كولانج، سوى شكل مسبق من أشكال وضع اليد التي سخر فيها المدني الفلاح في سبيل استيفاء ديونه. ان حضارة اشتراكية، فقط، هي التي بوسعها حل هذا التناقض.

يبقى لدى كل شخص مثقف شكل من أشكال عدم تقدير الفلاح حق قدره. وفي إيطاليا، كان لا بد من مثل مولينيلا (Molinella) للدفع باتجاه تحليل أكثر نضجاً.

غير أن الفلاح يجب ان يحذر الذين يتحدثونه اكثر من الذين لا يكنون له سوى إعجاب ضعيف. فالكنيسة والملكية والرجعية تتغنى بانتظام بأمجاد الفلاح، الذي يصبح

بالمناسبة الرمز الحقيقي للوطن. ويصبح العقداء البلسودسكيون نسبة للمارشال البولوني الدكتاتور بلسودسكي والملاكون البلطيون، والعنصريون الالمان، والفاشيون الايطاليون، والعمل الفرنسي والفاشيون الاكليريكيون في النمسا واسبانيا، يصبح كل هؤلاء متيمين بالفلاحين. فالايطالي الذي يأكل عشباً، اي الفلاح، كي تستطيع الدولة صنع المدافع، هو بنظر موسوليني المواطن المثالي. وكما نرى، يدفع الفلاح غالياً جداً ثمن هذه المودة المتناهية التي يكنونها له.

ليس المقصود هنا البحث في المقارنات بين حماقة الحقول وحذق الشوارع. بوسعنا وضع ذكاء الفلاح وذكاء المديني، ولا ريب، في نفس المستوى. كما بوسعنا القبول بالرأي القائل ان الأحمق أحمق حيثما وُلد، في المدينة او في الريف، على انه رأي مسالم. وهو يبقى أحمق رغم تغيير اماكن اقامته. ما يهمنا فقط هو ان نرى الى اي مدى بوسعنا الاعتماد على اسهام الفلاحين في الانتفاضة البروليتارية.

إن الاستغلال - وهو الدافع الرئيسي لكل تمرد - يطال البروليتاريا كما يطال الفلاحين وبنفس القدر. عموماً وفي القاموس السياسي الشائع، الفلاح يعني الملاك الصغير، الذي يعمل بنفسه والمزارع والمخابر، وليس العامل الزراعي والمياوم الذي نسميه بروليتارياً. لكن الفرق ليس كبيراً. وفي بعض مناطق ايطاليا، من يعمل في الأرض بيديه، يسمى فلاحاً، أكان مياوماً او ملاكاً. وفي الحقيقة ليس المياوم او العامل بالمقطوعية سوى فلاح يُدفع له أجره يومياً بينما الفلاح المالك لا ينال أجره الا عند الحصاد. فالحياة شاقة بالنسبة لكلا الاثنين. والاستغلال الرأسمالي للأول - أي المياوم - هو استغلال مباشر؛ أما بالنسبة للثاني، فهو خاصة غير مباشر إذ تمارسه الدولة. وإذ تختلف الذهنية في الأحوال العادية، فهي تتشابه في الأزمنة الثورية. لذلك، لا تغرف الجماهير الريفية المتمردة فرقاً بين المياومين والمالكين المستغلين.

رغم التجاذب الذي يجعل التفريق، في حقبة انتفاضية، مستحيلاً بين سائر العناصر الجماهيرية التي تساهم في العمل كتلة واحدة، يجب ان يشمل الفلاحون ايضا البورجوازية الريفية الصغيرة المالكة والكادحة. أولئك الذين كان كاتانيو يسميهم الدولة الخامسة وهو بين ساخر وبين علمي.

إن إسهام هذه الجماهير الريفية، كمشاركة البورجوازية الصغيرة المدنية، لا بد منها

لإنجاح الانتفاضة الاشتراكية. ويجب ان تعني الانتفاضة الاشتراكية تمرداً بروليتارياً وفلاحياً. فوحدة الطبقتين، وكلتاهما كادحتان، إجبارية.

والرأي العام هو ان الفلاحين من وجهة النظر الانتفاضية، أي العسكرية بشكل رئيسي، تصعب تعبئتهم. ففي الواقع، هم واسعو الانتشار وعلى مساحات كبيرة. ومن الصعب، لذلك أيضاً، الحصول على تطلع سياسي مشترك وهذا شرط مسبق لعمل عسكري مشترك. فالفرق بين التجمعات الريفية والتجمعات المدنية، لا سيما تجمعات المصانع، كبير جداً. على أي حال، فالتاريخ الأوروبي غني بالانتفاضات الريفية الجزئية منها والعامة. ان ثورة الفلاحين في فرنسا، وانتفاضتهم في المانيا في القرون الوسطى، والانتفاضة المسلحة لاتباع جان هوس (J. Hus) في بوهيميا، وما الى ذلك حتى حركة الأرياف خلال الثورة الفرنسية الكبرى، وحركة الفلاحين البلغاريين في هذا القرن، هي ملاحم ريفية حقيقية. حتى في إيطاليا، فالحركة الأولى، التي ترتبط بالثورة الفرنسية وتسبق الجمهورية المُجهَضَة، هي الانتفاضة الجمهورية المناهضة للاقطاع في سردينيا، وهي أساساً ريفية، وقد فشلت بسبب عدم كفاءة قادتها العسكريين.

لقد سجلت الثورة الروسية التي ثبتت بانتفاضتي شباط واكتوبر، المشاركة الرئيسية للأرياف في التحركِ العام. فقد قاد عمال سان بطرسبرغ وموسكو - وهذا يعني أكبر المراكز العمالية في أوروبا - النضال السياسي والانتفاضة، ولكن الفلاحين هم الذين دفعوا بتمردهم الطليعة العمالية الى الاستيلاء على السلطة. وبقي التحرك العمالي - بأقلية الطليعيين - محدوداً؛ فيما كان تحرك الفلاحين عاماً. فكان مزيجاً من سلسلة من الانتفاضات الفلاحية المتواصلة والغنية بالشهداء عبر الدهر. وكان عام ١٩٠٥، أخيراً تجربة كبرى وأمثولة مفيدة لجماهير الفلاحين أيضاً. وقد قيَّم لينين، منذ ذلك الحين، أهمية سكان الأرياف في النضال العام، وساند في مؤتمر ستوكهولم ضرورة تنظيم لجان فلاحية ثورية.

شارك في الثورة الروسية عشرات الملايين من الفلاحين. وكانت بؤرهم المراكز الزراعية الكبرى المتخلفة والفقيرة في روسيا الكبرى والمناطق الوسطى من الفولغا. وكانت اوكرانيا ذات الزراعة المتقدمة، رغم فوارق الانعتاق الوطني، كلها متمردة. من أصل ٦٢٤ مقاطعة في روسيا القديمة، حصلت ثورات فلاحية في ٤٨٢. وشذت مناطق الشمال والقفقاس، ومنطقة السهوب، وقسم كبير من سيبيريا، وهو منطقة زراعية

منتشرة على أراض شاسعة، حيث عرف السكان استقلالاً اقتصادياً نسبياً. اما سائر المقاطعات فشاركت في التململ. ومن أصل ٤٨١ مقاطعة، اجتاحت الانتفاضة الفلاحية ٤٣٩. ولم تكن النخبة العمالية فقط هي التي تمد الانتفاضة. فمن آذار الى اكتوبر، حصلت سلسلة من الانتفاضات، التي كانت السلطة المركزية تكبحها أحياناً دون ان توقفها قط. وسارت الصراعات من أجل زيادة الأجور الى جانب الصراعات من أجل الحصول على تعديل عقود إيجار الأرض والمزارعة. واجتيحت اراضي الملاكين الكبار في كل مكان، واقتسمت دون إضاعة الوقت. ويروي لنا سفير فرنسا في سان بطرسبرغ الاعترافات اليائسة للارستقراطية العقارية التي لجأت الى العاصمة.

وكان الفلاحون الفقراء يتزعمون دائماً كل الانتفاضات، ويعطون للحرب الأهلية طابع القرار الأخير. فلم يرضوا بالخفض بل رفضوا دفع إيجار الأرض وتسديد الضرائب بتاتا: تمرد مزدوج، إذن، ضد الملاكين وضد الدولة. قطعوا أحراج المالكين أو أحرقوها للحصول على الوقود او تهيئة المراعي والأراضي الزراعية. وقد أحرقوا حتى المحاصيل أحياناً، في اندفاعهم وتمردهم. وغالباً ما استولوا على المحصول والماشية وعلى الآلات الزراعية. وخُرِّبت أملاك عديدة وهوجمت قصور واجتيحت بقوة السلاح وقُتل ملاكون كثيرون مع مزارعيهم على الفور. كانت آلام الف سنة هي التي تتفجر. وكان الجوع يزيد في الغضب، وكانت مخازن القمح تستباح وتهاجم، والموظفون المكلفون بالاستدعاءات، عسكرية أو مدنية، يطردون ويقتلون. كان القمع مستحيلاً والجنود المرسلون الى المكان يتعاطفون مع المتمردين إذا لم يتآخوا معهم. وقد أصبح الوضع متوتراً أكثر فأكثر،وبعد محاولة كورنيلوف أضحى الفلاحون أكثر تصلباً تجاه الملاكين. وأخذوا يربطون مصيرهم بمصير السوفيات، وبانتظار المؤتمر أقاموا عدالتهم بأنفسهم بينما ساند الاشتراكيون الثوريون والمنشفيك، الحكومة الموقتة غير قادرين على الرؤية لا من بعيد ولا من قريب، وكأنهم عميان تماماً، وكانوا يناقشون إمكانية اصلاح القانون المدني اذا سنحت الفرصة.

من جهة ثانية، لعب الفلاحون المعبؤون، الجنود، دورهم. وعندما نتكلم عن الجنود في الثورة الروسية، يجب ان نفهم ان المقصود هم الفلاحون.

فهم مفارز من الجماهير الريفية ذاتها يصبحون طليعة النضال ضد القيصرية أولاً، ثم ضد البورجوازية المتمردة فيما بعد. ان انتفاضتي سان بطرسبرغ هما انتفاضتان

عماليتان وفلاحيتان. ففي شباط، تآخى الجنود والعمال الذين نزلوا الى الشارع فانهارت وتفتتت روسيا القديمة، رغم مظاهر مؤسساتها الرسمية العليا، لأن الثورة كانت مقادة من قبل السوفيات حيث يسيطر الفلاحون المسلحون.

وتدل انتفاضة اكتوبر ايضا بوضوح اكثر على الأهمية الحاسمة لحامية سان بطرسبرغ في الأحداث التي قضت على الدولة البورجوازية. فهذه المرة، كانوا هم أول المبادرين. فردوا على هجوم الحكومة الموقتة بهجوم مضاد. فكان ثمة سلطتان تتواجهان. وقد فكرت الحكومة باستغلال النجاح الذي أحرزه الالمان في البلطيق في الأيام الأولى من اكتوبر، داخلياً، واعلنت سان بطرسبرغ في خطر. إذن يجب ان تنقل العاصمة الى موسكو وتفقد البروليتاريا في سان بطرسبرغ الحامية الثورية ومساندتها. فكان الفلاحون هم الذين جاؤوا بالاجماع بالأمر اليومي الداعي الى الحذر، اعني فلاحي فرع سوفييتات الجنود في سان بطرسبرغ، وذلك في اليوم السادس من تشرين الأول. وهو يعني أنه إذا كانت الحكومة الموقتة تشعر بأنها غير قادرة على الدفاع عن سان بطرسبرغ، فلتوقع الصلح فوراً او تستقيل. وساند العمال الجنود. فأجبرت الحكومة على الرضوخ. وبعد يومين حاولت الحكومة الثأر. فلم تقوَ على إبعاد العاصمة من سان بطرسبرغ، فتمنّت عند ذلك، ان تتمكن من إبعاد الأفواج المتمردة عن العاصمة بحجة تبديل الفرق التعبة الموجودة في الخط الأول. وهنا أيضاً، الفلاحون هم الذين أجابوا بالنفي.

هذا هو الحدث الأكثر ثورية الذي يسبق ويجسد انتفاضة اكتوبر. إن فكرة الانتفاضة لم تبدأ باتخاذ مظهر شيء بالغ الحسّية إلا في ذاك الوقت. فقد استعد جنود الحامية للدفاع عن انفسهم، وساند العمال بعد بضعة أيام، أي في الثالث عشر، الحرس الأحمر، وتحدث مؤتمر للحامية في الثامن عشر بوضوح عن العصيان المقبل، ثم في مؤتمر الحادي والعشرين، اتخذت المفارز الموجودة بكاملها، باستثناء بعض الممتنعين الحياديين، موّقفاً ضد الحكومة الموقتة. تلك كانت خطوات كبرى على طريق الانتفاضة!

من غير المجدي، الضياع في السفسطة العقائدية. تلك هي الحقيقة: فقد أصبحت انتفاضة اكتوبر ممكنة، فقط يوم أصبح للفلاحين تطلعات ثورية خاصة تتفق مع تطلعات البروليتاريا. وأضحوا قوة تملك ديناميكية لا متناهية وأثبتوا بطلان الطرح الذي يظهر بأن الفلاح مرتبط بالتقاليد، بطيء جسدياً وروحياً، ثقيل في مسيرة الأحداث السياسية. لقد سارت أفواج الفلاحين بسرعة غير متوقعة. وفي سنة ١٩١٤، ساروا

وأعلامهم مزينة بالايقونات المقدسة؛ وفي العام ١٩١٧ اختفت الايقونات المقدسة وكانت الأعلام محاطة بأعلام أخرى حمراء. وفي أكتوبر، اعلام حمراء ورشاشات.

اما في الوضع السائد حالياً في ايطاليا، فانه يصعب توقع المكان الذي ستنبت فيه البذور الأولى للانتفاضة. في المدن ام في الأرياف؟ ليس مستبعداً ان تخبىء الجماهير الفلاحية الايطالية بعض المفاجآت للذين رسموا لأنفسهم مخططاً أدبياً محكماً عن الانتفاضة الاشتراكية. حتى الآن، كانت كل الانتفاضات التي حصلت ضد النظام الفاشي، ريفية.

والواقع ان الفاشية حولت كل تنظيمات الدولة الرسمية او شبه الرسمية، السياسية او النقابية او غيرها، الى أشكال من الاستعباد الكلي. ولم يعد المصنع، مركز الحياة العمالية، هو المكان الذي يتكون فيه الوعي السياسي للبروليتاريا، وحيث تُجهَّز الأسلحة. بل أصبح سجناً حيث المراقبة والتجسس السياسيان يمارسان بوسائل إرهابية. فالبطالة عظيمة، ولكن من يعتمد عليها يُخطىء: في النظام الدكتاتوري، يفقد العاطلون عن العمل بسهولة وعيهم الطبقي وكرامتهم البشرية مع فقدهم الخبز.

في الريف، يمارس القهر ذاته، لكن هذا القهر ليس له كما في المدينة الحدود الضيقة للمشغل والشارع والساحة العامة. فالريف يقدم تماسك أقل، نظراً لاتساعه. حتى لا يمكن، كما في المدينة، تجميع المجموعات المسلحة من أجل المقاومة او من اجل القمع المباشر في بضع دقائق. والريف يجعل التجسس صعباً ولو مورس، يكتشف سريعاً، إذ في حياة القرية، بوسع المرء مراقبة الأرباح والنفقات وعمل كل فرد مراقبة دقيقة. وفي المراكز الريفية الكبرى في صقلية والبوي (Pouilles)، يختلف الجو قليلاً، ولكن هناك نجد غالباً حسنات المدينة وحسنات القرية جنباً الى جنب. ويصبح القهر الاقتصادي ضاغطاً أكثر فأكثر. ويرى الفلاح الذي جمع صابراً، ثمرة عمله - الغلة - يراها تختفي في يوم واحد مع الضرائب المباشرة وغير المباشرة والرسوم والرسوم المضافة وفوائد الربى. فيبدو الظلم أكثر لمساً وأشدّ إثارة.

من المرجح جداً ان تأتي الانتفاضات الكبرى ضد الفاشية من الريف. إن اجتياح الأراضي بعد الحرب ظاهرة خاصة في وسط ايطاليا والجزر، وقد أجبرت الحكومات على معالجتها بقوانين ملائمة بعد أن عجزت عن قمعها بالقوة.

غير أن الفلاحين، من اجل ان يتحركوا، يجب ان يجدوا في الانتفاضة انتفاضتهم. والويل للقادة السياسيين إن هم وقعوا في خطأ استخدام لغة غير موافقة وغريبة، متناسين تطلعاتهم ونفسيتهم. فقد فقد الاشتراكيون الثوريون في روسيا، لهذا السبب بالذات، فقدوا في شهر واحد، الجماهير الفلاحية التي جمعوها في ثلاثين سنة. وارتكب البولشفيك الخطأ نفسه، بعد بضع سنوات ولكنهم كانوا قد قووا انفسهم في السلطة وأصبح بوسعهم ارتكاب هذا الخطأ وغيره دون عواقب.

وفي الانتفاضة الاشتراكية الاسبانية في تشرين الأول ١٩٣٤، شارك الفلاحون بقدر أصغر[١]. غير ان الفائدة التي جنوها من قلب حكومة ليرو - جيل روبلس (Lerroux-Gil Robles) كانت ضعيفة جداً. كانت الحكومات الجمهورية السابقة، بنظرهم، تتساوى في الدفاع عن الاقطاعيين الكبار. ففي اسبانيا كلها، في الواقع، لم يتجاوز عدد الفلاحين الذين استفادوا من الاصلاح الزراعي الذي حاربته أحزاب اليمين وقاطعته بشراسة، لم يتجاوزوا البضعة آلاف.

أما في كتالونيا، فكان الوضع مختلفاً. هناك، حقق الفلاحون منجزات مهمة بفضل التشريع المستقل للجنراليداد (Generalidad)، وكان كومبانيس (Companys) نفسه قد ترأس خلال عدة سنوات اتحاد المزارعين بالمناصفة[٢] (Rabassaires) وكانت حكومة اليرو - جيل روبلز تشكل تهديداً جدياً لهم. في خطابه أول تشرين الأول في الكورتيس (Cortes) (مجلس الشعب)، اسقط جيل روبلز الوزير سامبر (Samper)، لسبب رئيسي هو استلطافه او ضعفه تجاه قانون الايجارات الذي أقره البرلمان الكتلاني. كان كبار المالكين إذن يستعدون مرة أخرى لتكبيل الفلاحين. وإمعاناً في الغرور، اسندت في

(١) فلاحو الاندلس والاسترمادور (Estremadure)) - البوي الاسبانية - حيث من اصل ٨٠٠ ٠٠٠ من صغار الملاكين، يعيش بضعة آلاف فقط في اراضيهم الخاصة، دُفعوا منذ نصف قرن الى صراع الطبقات، حتى في اشكالها الأكثر عنفاً، هؤلاء الفلاحون كان قد انهكهم الاضراب السابق وكانت آلاف كثيرة من مناضليهم الأكثر نشاطاً وجميع قادتهم في السجن وهكذا لم تعد مشاركتهم في الانتفاضة ممكنة.

(٢) المزارعون بالمناصفة ليسوا، كما كتب في بعض الصحف، بروليتاريين. والـ (Rabassa morta) هي شكل من أشكال المزارعة بالايجار، التي تشبه، ولكن من بعيد، الاجارة الطويلة الأمد في ايطاليا. وهي لا تشمل سوى زراعة الكرمة. فالمالك يقدم الأرض والفلاح يفلحها ويقسم الربح. وتصبح الكرمة ملكاً للفلاح بعد عدد معين من السنوات فقط. وقد تركز النزاع بين الفلاحين والملاكين على هذ العدد. معظم الفلاحين الكتلانيين مكونون من المزارعين بالمناصفة.

الوزارة الجديـدة، حقيبة الى الكتـلاني أوغيرا دي اسويو (Auguerra de Soio) من أقصى اليمين في الرجعية الكتلانية، ممثلاً ولا ريب مصالح كبار الملاكين الزراعيين الذين تناولهم قانون الايجارات. لذلك كان تمرد الفلاحين فورياً وعاماً. كانت كل القرى الكتالونية في حالة تمرد. وقد نجح المتمردون، في كل مكان، في الاستيلاء على البلديات، حيث لم تكن بعد في حوزتهم، والبريد والبرق، مجبرين الحـرس المدني عـلى الاستسلام، أو كـما حصل في بعض القرى أجبروهم على البقاء في ثكناتهم سجناء. وبعد ظهر الخامس من تشرين الأول أي قبل إعلان كومبانيس الدولة الكتلانية بيوم واحد في برشلونـة، كانت الجمهورية الكتلانية تُعلن في بلديات مختلفة من المقاطعة. أي نجاح هائل، لو كان لهم قائد! إنما هذه الانتفاضة كانت تنقصها القيادة تحديداً: فلم يكن كومبانيس قائد متمردين.

الفصل العاشر

المساندة الأولى للجماهير

لو كان على حركة سياسية ان تتأكد مسبقاً من حصولها على غالبية البروليتاريا والبورجوازية الصغيرة والفلاحين، للتمكن من مجابهة العمل الانتفاضي بثقة، لما حصل إلا القليل القليل من الانتفاضات على مر التاريخ. هذه الأكثرية لا بد وان تكون مفترضة. والافتراض، على أي حال، يجب ان ينتج لا عن تفاؤل كيفي بل عن وقائع ملموسة. **علاوة على ذلك، ينبغي على اية حركة انتفاضية ان تتمكن دوماً من الاعتماد على** الصدى المباشر لنجاحها الأول. فالحماس الذي يثيره هذا النجاح سيكون بالتأكيد وعلى الدوام عاملاً غير عادي لكسب قوى جديدة. والنجاح وحده هو الذي بوسعه مضاعفة تأييد الرأي العام دفعة واحدة. فهو يجعل المترددين يتخذون قراراً، ويحول الخجولين الى شجعان، والمتفرجين اللامبالين الى أناس نشيطين، ويصل الى شرائح عريضة من السكان كانت لا تزال غريبة عن أي مشاركة سياسية عادية. وليس الرأي الشعبي هو الذي ينحني امام النجاح فقط: بل الارتسقراطية الفكرية والتقنية تجد نفسها هي أيضاً في مكانها.

إن جعل هذا النجاح الأول ممكن هو الهدف الأول للانتفاضة، سياسياً وعسكرياً.

ومن أجل هذا الهدف، لا بد من مساهمة الجماهير بتفوقها العددي. والتي يتوجب عليها ان تشكل السند الأول المباشر للطليعة العسكرية المتمردة التي تهاجم في قطاع ما. إن هذا التنسيق هو نتيجة تحرك سياسي قبل كل شيء، وهذا العمل ليس عملاً سهلاً.

عندما تتمخض الانتفاضة عن الاضراب العام المخطط طوعاً، او تضاف اليه، يصبح التنسيق مشكلة سهلة الحل. هذا ما حصل على أثر عصيان كاب (Kapp) المسلح وفي اسبانيا خلال تشرين الأول ١٩٣٤. أما في روسيا فلم يحصل إضراب عام قبل انتفاضة أكتوبر، لكن التظاهرات السابقة، لا سيما مظاهرة الثاني والعشرين، التي شاركت فيها كل جماهير العاصمة، جعلت الاضراب غير ذي قيمة. وبالمقابل، كان الاضراب العام قد أعلن في شباط ومعه توسعت الانتفاضة بصورة تلقائية.

غير ان الاضراب العام ليس ممكناً دائماً. وعندما تكون البروليتاريا قادرة على اعلانه في سبيل أهداف سياسية، تكون قد أصبحت في مناخ ملائم للغاية. إن إضراب عام ١٩٢٠ في المانيا، المذكور آنفاً، حصل بأمر من الاشتراكية الديمقراطية نفسها وكانت في السلطة. وأضراب عام ١٩٣٤ في اسبانيا، سبقته حملة كثيفة في نظام سياسي كان يسمح بها. في هذه الحالات، تتوقف الحياة العادية وتصبح البروليتاريا بكاملها حرة في الشوارع، سنداً للمتمردين واحتياطياً دائماً لمفارز مسلحة جديدة.

غير أن البروليتاريا قد تكون في وضع لا يمكنها من التحريض على الاضراب العام. وهذا لا يعني ان تكون الانتفاضة أصبحت مستحيلة. قد نجد اوضاعاً يكون فيها الاضراب العام ممكناً نتيجة للانتفاضة، واوضاعاً أخرى أيضاً قد يحصل فيها التمرد دون إضراب عام يسبقه او يليه. منذ عام ١٩١٧ وحتى اليوم، عرفنا الحالات الثلاث، حتى ولو لم تكن على الشكل الكامل.

إن الانتفاضة الصغيرة في ريفال في الأول من كانون الأول ١٩٢٤ هي نموذج للانتفاضة التي لم يسبقها أو يليها إضراب عام او جزئي ولا أي شكل آخر من أشكال التململ الجماهيري. ولم يفعل القادة السياسيون شيئاً لايجاد اتحاد بين المفارز المسلحة والجماهير الشعبية. لقد رأينا آنفاً أسباب فشل الانتفاضة في تطورها العسكري. ولكن حتى لو نجحت وانتصرت في الهجوم المسلح، فيجب الإقرار بأنها كانت ستبقى معزولة وبالتالي مهزومة، رغم انتصارها، إذ انها كانت ستجد نفسها دون اي مساندة فورية. فقد حصلت الانتفاضة فجأة. وكانت الجماهير تنتظر كل شيء إلا الانتفاضة. لقد سقطت هذه من السماء دون موعد وكأنها نيزك[1]. وتصرف القادة السياسيون كأنهم قادة

(١) رفض عمال المصنع الكبير للورق «سيلّيلوز» شرق المدينة، الأسلحة التي قدمت لهم عند بزوغ الفجر واثقين ان الموضوع يتعلق بعملاء محرضين او بمجانين. كان من المقرر ان يُرفع العلم الأحمر فوق برج بيك هرمان=

أفواج متمردة ذاهبة لتحقيق انقلاب عسكري وليس كقادة انتفاضة شعبية. صحيح ان الحزب الشيوعي، كونه غير شرعي، كان يلاقي صعوبة كبرى في إقامة الاتصالات مع البروليتاريا وتوجيه الشعارات الى الجماهير الشعبية وقيادتها. ولكن رغم كون الحزب مجبراً على البقاء سرياً، فلم تكن النقابات قد حُلّتْ. إذن فقد كان بوسع قادتها، خلق العمل السياسي الضروري وتغليفه بقناع، وهم يتنقلون بسهولة من الميدان النقابي الى الميدان السياسي. وكان بوسع اشهار الدعوى ضد مئة من الشيوعيين تقريباً، والتي حركتها الحكومة بفظاظة، وجرجرتها طوال شهر تشرين الثاني، تقديم المنطلق لعمل هجومي واسع، حيث تُقدِّم الانتفاضة الشعبية، ربما، على انها تهديد شرعي ودفاع وحيد عن الحريات السياسية المغتصبة. وكان بوسع إعدام قادة النقابات العمالية رمياً بالرصاص بأمر من المحكمة، خلال جلسات الدعوى، وباجراء غير شرعي، اطلاق الشرارة لانفجار الاستنكار الشعبي الذي كان كبيراً حتى بدون حملة سياسية: كما حدث في ايطاليا خلال قضية ماتيوتي.ومع هذه الأفضلية لشيوعيي الشرق: كانت البروليتاريا في ايطاليا منقسمة ولم يكن أي قسم قادراً على ممارسة لغة ثورية[1] محتملة، بينما في استونيا كانت البروليتاريا موحدة وكانت الهيبة التي يمارسها الحزب الشيوعي عليه مطلقة. لقد كان الحزب ثورياً عملاً لا قولاً.

لو قاد الشيوعيون تململاً شعبياً مشابهاً لأوصلوه حتماً الى انتفاضة يقوم بها ليس أقلية من مئتي رجل مسلح فحسب، بل نواة من الرجال المسلحين تساندها الأكثرية الشعبية الساحقة. وكان بوسع الاخطاء التي ارتكبتها الحكومة تغطية انتفاضة كهذه تحت قناع تحرك شعبي يدافع عن الدستور والشرعية. فقد كانت براعة البلشفيين رائعة في انتفاضة اكتوبر، عندما عرفوا كيف يُلبسون هجومهم ثوب دفاع مشروع عن السوفيات!

=(Pikh Hermann) الأمر الذي قد كان يشكل بالطبع عملاً بالغ الأهمية من الناحية النفسية. لكن العملية لم تنجح.

(١) في الواقع لم يتكلم احد في هذه اللغة في ايطاليا، لأن البروليتاريا كانت منقسمة الى ثلاثة اقسام، قسمان منها تفرعا عن الافنتينو (Aventino) الذي كان شرعياً. وكان القسم الثالث يشكل الحزب الشيوعي الذي كان ثورياً، وبالتالي ليس مع الافنتينو، غير انه كان يصر على ان يطلق الافنتينو الانتفاضة ضد الفاشية (تقرير المؤتمر الثاني للحزب الشيوعي الايطالي). الأمر الذي وضعنا امام المشهد التالي: الحزب الثوري الوحيد ا كان يعتبر نفسه كذلك لأنه لم يكن يؤمن بانتفاضته، بل بانتفاضة الآخرين الذين لم يكونوا يؤمنون بها. يجب الاعتراف بأنه في ايطاليا، ارتكب كل حزب اخطاء تساوي عدد شعر رؤوس اعضائه مجتمعين.

وامتلأت الأفواج قناعة بأنها، بعملها ضد الحكومة الموقتة، كانت تعمل للدفاع عن المؤسسة التي ترتكز عليها بنية الدولة الجديدة الناشئة.

ومع ذلك، لم يكن الوضع مختلفاً كثيراً في ريفال. فقد كانت الحكومة قد فقدت احترامها ولم تكن تسمع كلمتها جدياً في البلاد، وكانت القوات المسلحة للدولة بقسمها الأكبر الى جانب البروليتاريا اكثر مما هي الى جانب الحكومة. وكان القادة الشيوعيون منشغلين بفكرة ان الحكومة، ربما زادت الارهاب باعدام قادة سياسيين آخرين واضطهاد المنظمات العمالية فرأوا أنه من الملائم ألا يثيروا الجماهير. وهكذا، كان بالإمكان، وفق تفكير القادة، تحقيق الانتفاضة التي كانت الطليعة المسلحة الصغيرة تستعد لها بحماس. وهكذا، بقوا معزولين رغم كونهم في وضع سياسي عام ملائم كل الملاءمة.

أما انتفاضة هامبورغ التي جرت في تشرين الأول ١٩٢٣، فتمثل كل ما بوسعنا الحصول عليه من أجود ما يكون في تهيئة الجماهير سياسياً في سبيل عمل عنيف. وقد أخفقت الانتفاضة محلياً، لأخطاء خاصة ذات طابع عسكري، ولكن ليس بسبب نواقص سياسية لدى قادة البروليتاريا في المدينة، فقد كان تصرفهم مثالياً. وكان الحزب الشيوعي يعد ١٨٠٠٠ عضو في مواجهة ٤٠،٠٠٠ عضو من الاشتراكية الديموقراطية، ولكنه كان، في تلك الأيام، هو المحرك لكل الأكثرية في الطبقة العاملة، وقد توصل الى ضبطها وقيادتها سياسياً. وفي ذلك الوقت لم يمكن رؤية إمكانية لاضراب عام، لا سيما وان الاشتراكية الديموقراطية كانت تناهضه. إنما تحققت إضرابات فرعية ذات أهمية جوهرية بالنسبة لحياة المدينة مثل إضرابات الورش والمنظمات في المرفأ. فبين مساء الأحد ٢١ والثلاثاء ٢٣ في الخامسة صباحاً وهو يوم الانتفاضة، نشط القادة الكبار والصغار، السياسيون والنقابيون في المصانع وفي الميناء وفي الأحياء الشعبية لتهيئة الجماهير في سبيل الاستجابة لنداء التمرد. كل هذا النشاط لم يكن، بالطبع، من الممكن إخفاؤه بعيداً عن النظر. ولكن الشرطة لم تنجح في فهم طبيعته الحقيقية وردته الى هياج عابر؛ الى حد انها اعتبرت خطر التمرد غير وارد اطلاقاً.

بعد هذه التهيئة، استجابت الجماهير للنداء وشاركت في التحرك بنشاط وجرأة، موفرة له بوجودها تفوقاً عددياً ساحقاً. فقد لوحظ، في كل النقاط حيث نجح هجوم المنظمات البروليتارية، وصول فوري لمفارز عمالية ارتُجلت في نقاط التجمع الأكثر ملاءمة ترافقها عناصر شعبية مختلفة بما فيها النساء والأطفال. وقد عملت الاتصالات،

المقامة مسبقاً على مداخل تلك المصانع وسائر المؤسسات، حيث لم يعلن الاضراب، وفي جميع نقاط التجمع الرئيسية في الأحياء الشعبية، عملت بشكل رائع. فتدفقت الجماهير لمساندة الخط الأول في معركة منتظمة، مما أكد الانتصار سريعاً. ولو لم ترتكب الأخطاء الآنفة الذكر، لكانت الأحداث قد اتخذت منحى مختلفاً جداً. ومهما يكن من أمر، وحتى عندما قضت مناورة مفارز الشرطة والسيارات المصفحة الهارعة، على النجاح الجزئي آنذاك، لم تنطفيء الانتفاضة في لحظة مع تناثر المجموعات الصغيرة واللامتساوية في القتال كما حصل في ريفال، ولكن تم الانتقال للدفاع، على أمل النجاح في قطاعات أخرى من المدينة. وكانت المتاريس التي أقيمت في قطاعات متعددة، متاريس شعبية حقيقية قاومت طوال النهار ضد الهجمات التي شنتها شرطة منظمة جيداً. وفي بعض الأحياء، دام القتال حتى الخامس والعشرين.

هذا هو معنى تهيئة الجماهير للانتفاضة. ومهما استطاعت البروليتاريا ان تكون قوية في أوضاع معينة ملائمة، فلن تتمكن الا بصعوبة من ان تقدم للانتفاضة هذا العدد الكبير من التنظيمات المسلحة الجاهزة للهجوم القادرة ان تكون فعالة الى حد جعل مساهمة الجماهير الشعبية دون جدوى. هذا ما استطاع البلشفيون فعله في اكتوبر ١٩١٧ للاستيلاء على العاصمة وعلى السلطة السياسية. وفي انتفاضة اكتوبر نفسها ـ أي مجمل العمليات العسكرية التي بدأت ليلة الرابع والعشرين باحتلال الجسور على قناة نيفا، وانتهت في الثانية من صباح السادس والعشرين بالاستيلاء على قصر الشتاء ـ كانت اللجنة الثورية قد استخدمت قوى لا يُشَكُّ في أهميتها الكبيرة تجاه الـ ١٥٠٠ رجل الذين كانوا يشكلون قوة الدفاع الوحيدة، فقد كان دفاعاً اسمياً أكثر مما كان فعلياً، فهذا ما أرادت الحكومة المؤقتة ان تختصره في العاصمة. كانت الانتفاضة قد استخدمت ما بين ستة وسبعة آلاف عامل مسلح من الحراس الحمر ونحو ستة أو سبعة آلاف بحار من اسطول البلطيق وبعض سرايا كتيبة زاباتوري (Zappatori) ومفرزة من فوج سيمينوفسكي، ومفارز من فوج بولوفسكي (Paulovsky) وكتيبة شيميكو (Chimico)، حيث شكلت قوة إجمالية مكونة إذن من ١٢٠٠٠ رجل على الأقل كان بتصرفهم طراد مدرع وسيارات مصفحة ورشاشات ومدافع. وخلف هذه القطعات الموجودة في الخط الأول كانت تقف كل الوحدات العسكرية لحامية سان بطرسبرغ والضاحية، فقد كان ثمة جيش حقيقي.

إذن كان البلشفيون في الحقيقة واثقين من امتلاك هذا الدعم العسكري وبالتالي كان بوسعهم التغاضي عن تهيئة الجماهير. وبالعكس، فقد حسموها بتهيئة علمية كما لو كان عليها هي ان تهاجم لا غيرها. كانت التظاهرة العظيمة في الثالث والعشرين، قبل ثلاثة أيام من الانتفاضة، والتي ربما شارك فيها، أكثر من نصف سكان العاصمة، كانت الأخيرة من سلسلة مظاهرات، صغيرة وكبيرة توالت دون انقطاع منذ حملة كورنيلوف، فقدمت الخميرة للنجاح النهائي. ولولا هذا الغليان العام الذي دمج العمال والجنود والبورجوازية الصغيرة والطبقات الشعبية الأخرى في كتلة شعبية واحدة لما تجرأت التنظيمات المسلحة للعمال والجنود والبحارة على الانتقال بسهولة الى العمل المباشر. لكن وضع اكتوبر كان مليئاً بالظروف الاستثنائية وجميعها مناسبة ومن غير المجدي، على الأرجح، طرحها كعنصر مقارنة.

في انتفاضة الاستوري، كان اتصال الجماهير بالمفارز المسلحة لعمال المناجم مباشراً حتى في اوفيادو حيث كان القادة النقابيون يميلون الى الحذر والقادة السياسيون لا يرحبون بالعمل الثوري. فاذا استطاعت الانتفاضة في هذه المنطقة الوحيدة من اسبانيا الانتشار بهذا القدر من حيث عدد مقاتليها، ولمدة طويلة، فهذا يعود الى ذاك الواقع. إن مثل هذه المساهمات لا يمكن أن ترتجل او تصطنع. فهي نتيجة جهد دؤوب ومنهجي ومقرر وليست نتيجة ضربة حظ بسيطة، وفيها تمثل الشعارات دوراً حاسماً.

الفصل الحادي عشر

الشعارات

إن الانتفاضة هي دائماً انفجار نتيجة ضغط اقتصادي او سياسي أصبح لا يطاق. فيغلي المرجل الى حد يطير معه كل شيء في الهواء. فإذا لم يتوافر هذا الضغط، او لم يتطابق مع حالة متفشية من نفاد الصبر، فلا جدوى من الحديث عن انتفاضة وعن شعارات. وعندها لا تكون الانتفاضات إلا في خيال فرد متفرد فتسقط الشعارات كلها في الفراغ. وتصبح كلمات ذات مغزى سياسي لا يزيد عن العبارات الرائجة: ما هذا النهار الجميل، والحب لا يموت، وتعابير اخرى من هذا القبيل. ولكن الأدب السياسي الثوري في أوروبا عامة وايطاليا خاصة غني بهذه الشعارات منذ ما يقارب العشر سنوات.

ففي فترة سياسية ملائمة، تلعب الشعارات المناسبة دور دليل ومحرض للجماهير، التي بعد فقدها كل ثقة في الطبقة التي تدير شؤون الدولة، تبدأ بالشعور بالحاجة لقلبها. تلك هي كلمات توجيه تُطلق وسط الفوضى العامة، ويحتاجها الشعب لأنه ليس حزباً سياسياً يناقش ويقرر في مجلس أو في مؤتمر، بل هو البلاد بأسرها وعلى تنوع أشكالها، يتألم ويحاول التعبير.

لذلك يجب ان تطلق الشعارات بالتوافق مع هذا الزمن الخاص، وتوجه الى غالبية البلاد، وليس فقط للبروليتاريا او للفلاحين او للبورجوازية الصغيرة الخ. ويقدم لنا الشعار الذي أطلقه البلشفيون لانتفاضة اكتوبر مثالاً للشعار الكامل: كل السلطة للسوفيات (للمجالس). بهذا الشعار كانوا يتوجهون الى اكثرية الشعب الروسي؛

وكانت كل الشرائح الشعبية تفهم ان المقصود ليس سلطة مجردة بل سلطتهم الخاصة. وكان العمال يعلمون ان كل السلطة للمجالس (السوفيات) يعني نهاية نظام أرباب العمل التعسفي في المصانع، وكان فلاحو الريف يعلمون ان الأرض قد تمنح للفلاحين واقعاً وقانوناً. وكان الجنود يعلمون ان السلام قد يعقد فوراً؛ وكانت الشرائح الأخرى في البورجوازية الصغيرة الكادحة تعلم ان خطر الجوع والفوضى العامة قد يُبعد نهائياً. وباختصار، كان شعاراً له مغزى أكبر من مغزى الشعار الذي أطلقه ميليوكوف (Milioukov) «روسيا حتى الدردنيل»! وبه كان يعتقد بنية صادقة للغاية إدارة ظهور القوى الحليفة الى الحائط وفي الوقت ذاته إثارة الشعب الروسي. ولكن إعلانه الذي تأكد رسمياً، كان كافياً لتحريض الفوج الفنلندي في الحرس الذي تبعته تظاهرة عسكرية وعمالية مسلحة في شوارع سان بطرسبرغ. وكان أيضاً شعاراً أبلغ بقليل من الشعارات التي أطلقها كرينسكي(Kerensky) والمصالحون، تارة مع ما قبل المجلس النيابي (Pré-parlement) وتارة مع مؤتمر الدولة للقومية الروسية، وتارة أخرى مع الجمعية التأسيسية، التي لم يكن يهتم بها أحد من الشعب قطعا.

وإطلاق الشعارات يتطلب قبل كل شيء امتلاك السلطة الكافية لاطلاقها. هذا شرط مسبق. وإلا اعتُبر كلام أرسطو حديث أحمق ونظراً للتأثير الذي كان يمارسه الحزب البلشفي في اكتوبر ١٩١٧ على الجماهير العمالية وعلى حامية سان بطرسبرغ، كان بإمكانه الاستيلاء على السلطة لحسابه الخاص. إنما سان بطرسبرغ لم تكن روسيا بكاملها وسلطته الهائلة في العاصمة، لم تكن مماثلة في المقاطعات. كانت تلك السلطة للسوفيات حيث أُطلق النداء باسمهم. جوهرياً لم يختلف الوضع، إذ كان البلشفيون يسيطرون على السوفيات، ولكن في السياسة، للشكل أهمية لا تقل عن الجوهر.

«الشعار»[1] عبارة مستعارة من اللغة العسكرية. فهي في الجيش الكلمة التي تعطيها القيادة وتوصلها الى الخفراء للتمييز بين الأصدقاء والأعداء. كذلك في السياسة. بمجرد إعلان الأهداف، الصديق هو الذي يقبلها والعدو هو الذي لا يعترف بها. ولكن كما في الجيش، يجب ان تكون الشعارات (كلمات المرور) السياسية مقتضبة وواضحة للغاية. فالشعب كالخفراء لا يعرفون لا اليونانية ولا اللاتينية.

---

(١) الكلمة الأصلية تعني بالروسية: كلمة المرور (Propousk) ويستعمل في جيوش أخرى تعبير «كلمة السر» من أجل نفس الغاية.

لا يُبحث عن الشعارات في قاموس الكلمات الجاهزة. لا سيما وان قاموساً يشرح لغة بلد ما، ليس بوسعنا استخدامه في كل البلدان. هذا التفصيل مهم نوعاً.

يجب ان تتوجه الشعارات الى البلاد لأنها تختلف عن الأوامر التي قد تعطيها قيادة حزب الى اعضائه. لذلك يجب ان يكون التعبير الملخص لتطلعاتها. إذن ليس بوسعنا ان نتوقعها مسبقاً. فاليوم مثلاً في كانون الأول ١٩٣٥، نستطيع فقط ان نحفظ تقريباً، انه بالنسبة للانتفاضة المناهضة للفاشية الايطالية، سوف يُستلهم الشعار من حرب أفريقيا للدفاع عن اقتصاد البلاد وعن حياة شبابنا الذين أرسلوا الى الموت في أرض غريبة، ضد كل المسؤولين السياسيين.

ولكن لا يمكننا استبعاد مساهمة أحداث أخرى تفرض ضرورة وجود شعارات أخرى. كما في اكتوبر ١٩١٧ في روسيا حيث كان توقف الحرب احد الحوافز، ولكن ليس الحافز الوحيد أو الأهم. إذ كان داخلاً في الحافز الآخر، الذي كان يشملها جميعاً، ألا وهو: كل السلطة للسوفيات. «كل السلطة للسوفيات» ربما لم تكن كلمة فعالة في شباط او في حزيران ولربما كانت أقل فاعلية في تموز. أصبحت بعد مغامرة كورنيلوف، حيث هددت الرجعية العسكرية والرأسمالية السوفيات بشكل مفضوح، التنظيم الشعبي الوحيد من حيث كبره وهيمنته والموجود كمؤسسة سياسية بعد انهيار الدولة الاستبدادية.

يشكل تطابق الشعار مع الشعور الشعبي في فترة ما شرطاً أساسياً وضرورياً للنجاح.

لم يكن للانتفاضة الاسبانية سنة ١٩٣٤ شعار متوافق مع تلك الفترة. على أي حال، لم تُدعم الكلمة التي أطلقت بكل الممارسة العملية التي كان لا بد ان ترتبط بها في سبيل النجاح. كان الشعار: «إنقاذ الجمهورية».

هل كانت الجمهورية الاسبانية في خطر ؟

طبعاً كانت في خطر؛ حتى لو كان مجيء «السيدا» (C.E.D.A) الى السلطة مع ليرّو (Lerroux) شرعياً وفق التفسير الحرفي لمواد الدستور. فحتى مجيء حزب تسالداريس (Tsaldaris) الشعبي وحزب كونديليس (Condylis) الراديكالي في اليونان الى السلطة، بعد الهزيمة الانتخابية للحزب الليبرالي والتحالف الجمهوري، كان شرعياً. كان كونديليس في اليونان مثل ليرو في اسبانيا: لقد ساهم الاثنان في قلب الملكية. وتسالداريس يشبه

جيل روبلز (G. Robles) في اسبانيا عندما اعلن انتسابه الى الجمهورية. فلقد رأينا نوع الجمهورية التي ظهرت في اليونان مع جمهوريين من هذا الطراز.

كانت الجمهورية في اسبانيا، إذن، في خطر. وكان الحزب الاشتراكي مستعداً لهذا الحدث منذ بداية عام ١٩٣٤ وأصبح لارغو كاباليرو (L. Caballero) بعد هزيمة الاصلاحيين رئيساً للجنة التنفيذية للحزب والأمين العام للاتحاد العام للشغيلة (V.G.T.) والمبشر بالحقبة الثورية الجديدة. إنما، مع لارغو كاباليرو والحزب الاشتراكي الذي كان يقوده، حالت تحفظات فكرية واضحة وأخطاء هائلة واضحة جداً، دون الدفاع الفعلي عن الجمهورية.

لو كانت الجمهورية في خطر، ولو كان الشعار هو «إنقاذ الجمهورية» لتوجب العمل من أجل انقاذ الجمهورية حقاً وليس مزاحاً. تلك الجمهورية لم تكن جمهورية افلاطون ولا جمهورية السوفيات، بل كانت الجمهورية الديموقراطية-البورجوازية الناتجة عن انهيار انتخابي للملكية سنة ١٩٣١، والتي أعلنت في شوارع مدريد وبرشلونة على انغام «نشيد رييغو» و«المارسيلياز». وقد نأسف لأن الأمور جرت كذلك وليس بشكل آخر، ولكن الأمور كانت تحديداً كذلك وليس بشكل آخر. كانت هذه الجمهورية من عمل التنظيم الذي وقع ميثاق سان سيباستيان واختار الكالا زامورا (Alcala Zamora) قائداً محافظاً، وسمّاه رئيساً للمجلس أولاً وللجمهورية فيما بعد. فقد كان ينبغي إذن طلب مشاركة هؤلاء الجمهوريين الذين بقوا كذلك، إذ كان الحزب الاشتراكي وحده غير كافٍ، وقد كان هذا واضحاً. كذلك كان مع الحزب البلشفي، فقد توجه من اجل انقاذ السوفيات المهددين من قبل الرجعية والحكومة المؤقتة، الى كل تنظيمات السوفيات وليس فقط الى الحزب البلشفي. على أي حال، كان الحزب البلشفي في اكتوبر ١٩١٧ أقوى قليلاً من الحزب الاشتراكي الاسباني في تشرين الأول ١٩٣٤.

وعلى العكس، فقد أهمل الحزب الاشتراكي الاسباني، كل الجمهوريين وبملء إرادته، وعلى رأسهم انزانا (Anzana). الأمر الذي كان يعني في ما يعنيه، إهمال الجيش أيضاً، وكان مصلحه وقائده من عام ١٩٣١ الى عام ١٩٣٣، وحيث كان له الكثير من المعجبين في كوادره.

إن الشعار «إنقاذ الجمهورية» لم يكن الأكثر ملاءمة لدفع الشعب الى الانتفاضة،

نظراً لكون أول صانعيه والمدافعين الطبيعيين عنه بمواجهة البلاد، مبعدين عنه. كان يبدو جلياً ان القادة الاشتراكيين لم يكونوا ينوون القتال من أجل انقاذ الجمهورية بعد ان أقصوا عنها من لهم حق الدفاع عنها.

ولقد حدث أمر آخر: فقد كان الاتحاد العمالي الذي تشكل تحت هيمنة الحزب الاشتراكي والكتلة العمالية والفلاحية يشمل علاوة على هاتين المجموعتين الأوليين الحزب الشيوعي والاتحاد النقابي الحر وكل النقابات الموجهة من قبل هذه التنظيمات وبعض النقابات المستقلة. كانت جميع هذه التنظيمات تؤمن بالدفاع عن الجمهورية مثل لارغو كاباليرو الذي كان، بالمناسبة، يُهتف له بلقب لينين الاسباني، وهي تسمية مديح طبعاً، وإنما ليست الأكثر تكيفاً لتجسيد رمز الدستور الجمهوري الذي كان عليه الدفاع عنه.

ولم ينتسب الى الاتحاد العمالي والى الدفاع عن الجمهورية الذي كان يرعاه، لا الاتحاد الفوضوي الايبري ولا الاتحاد الوطني للعمل الذي كان مرتبطاً به. ليس هذا فحسب بل أعلنا نفسيهما مناهضين.

بوسعنا سوق اتهامات عديدة ضد الفوضويين الاسبان بسبب مشاركتهم المبتورة في الانتفاضة، ولكن ليس اتهامهم بقلة الولاء. إذ كنا نعلم منذ زمن بعيد انهم كانوا يعتبرون (خطأ) حتى الجمهورية بقيادة انزانا ـ كباليرو ـ برييتو كجمهورية بورجوازية لا تستحق انقاذها من الخطر الفاشي. ولقد ساهم في هذا الموقف الذي تبنوه التشريع الاجتماعي البطيء والخجول للجمهورية الأولى الذي أعاد الثقة الى الرجعية. وأكثر من ذلك أيضاً كونها حافظت على جهاز الحرس المدني الذي اعطى البرهان الواضح مع سانجورجو (Sanjurjo) في اشبيلية، في أول آب ١٩٣٢، على كونه ظهير الملكية ليس إلا. وأيضاً أعمال كازاس فياجاس (Casas Viejas) التي أظهرته في القوات الجمهورية المسلحة، رجعياً قذراً اختبأ وماطل طويلاً. انما غياب الفوضويين عن الدفاع عن الجمهورية لم يكن فقط عملاً عدائياً نظرياً ضد الدولة، بل ممارسات عملية. كانوا وحدهم يعتقدون بأن كباليرو يريد فعلاً الدفاع عن الجمهورية: تلك الجمهورية البورجوازية.

لو كان دافع التململ الانتفاضي غير ذلك، أي لو كان الشعار مختلفاً، لكان مرجحاً

مساهمة الفوضويين في الانتفاضة ولكانوا رجحوا ميزان القوى بثقل له قيمته.

لقد بدا الشعار «الدفاع عن الجمهورية» إذا كلمة غير فعالة، حيث بقيت قوى ثورية وجمهورية هامة جداً غريبة عن النداء او مناهضة له.

وهكذا نفهم كيف انه، باستثناء الاستوري وكتالونيا، بقيت اسبانيا لا مبالية، ولم تعرف العاصمة مدريد الا بعض اطلاق النار من قبل مجموعات متناثرة من المغامرين. لم يتحمس أحد فعلاً للدفاع عن الجمهورية. ويعود التطور الكبير في انتفاضة الاستوري الى وجود كتلة مؤلفة من ٣٠ الف عامل مناجم، تملك انضباطاً تنظيمياً تكوّن خلال عشرين سنة من النضال القاسي من أجل الحياة. كانوا رجالاً صقلتهم الهزائم والسجون والانتصارات وكانوا يفهمون معنى رجعية أرباب العمل في الحكم بالنسبة للجميع. لقد جرف وعيهم السياسي وإيمانهم كل الأستوري واعطى للبروليتاريا العالمية مثلاً لا يمحى.

ليست الشعارات انتاجاً أدبياً ذا إنشاء تزداد صعوبته او تصغر. وهي كذلك ليست حيلاً لخداع الأغبياء. فهي إما ان تكون صدى لآلام البلاد أو لا تكون شيئاً. ومن الأفضل عدم اطلاق الشعارات ان كنا سنطلقها في غير مكانها.

وقد تحولت الشعارات، في التعامل السياسي الحديث، الى أوامر تطلق من فوق، أوامر الحزب. الكل الى اليمين، الكل الى اليسار، نصف دورة! أوامر عسكرية حقيقية. هذه لا علاقة لها بالشعارات ولكن لن يكون عبثاً القول انه مع الأوامر العسكرية أيضاً يجب التعامل بهدوء، وإلا لكانت الفوضى كبيرة. ويتوجب بعد اطلاق هذه الأوامر ألا تُستتبع بأوامر مضادة. فإذا لاحظ الجنود تسرع الأمر الأول وعدم ملاءمته، مالوا الى الحذر من جدية الأمر المقبل ولو ميلاً غير متساوٍ. ويجب ان يفترض مسبقاً أيضاً ان الذين سيتلقونه هم قادرون على تنفيذه في وقت تلقيه. ولا يجب ان يُعطى أمر إذا كان الذي يعطيه لا يملك اليقين المطلق بإمكانية تنفيذه. إن لم يوجد هذا اليقين، فالصمت هو الأفضل.

كذلك لا يجب إصدار أمرين دفعة واحدة: «الجميع الى اليمين!» قد يكون أمراً بالغ الذكاء وقابلاً للتنفيذ في وقت من الأوقات. ولكن اذا أُعطي في الوقت ذاته الأمر الآخر: «الجميع الى اليسار»، فما من شك انه لن يعود بوسعنا التحرك لا الى اليمين ولا الى

اليسار، بل ندور حول أنفسنا.

أمر واحد في كل مرة إذن، ولن يتبعه الأمر الثاني قطعاً اذا لم نتحقق من تنفيذ الأول. إذ ان الذين لم يكونوا قادرين على تنفيذ الأمر الأول، لا يمكننا الاعتقاد بقدرتهم على تنفيذ الثاني. وإن لم ينفذ الأول قبل اعطاء الثاني، فيجب اكتشاف وتصحيح الهفوات التي حالت دون تنفيذ الأول. عادة، يجب تحميل مسؤولية التنفيذ الناقص للأمر او سوء تنفيذه للذي أعطاه.

وليضع القارىء، مكان تلك الأوامر التي ذكرت هنا بطابع عسكري، أوامر أخرى ذات طابع سياسي، مستوحاة من تجربته السياسية الخاصة. وعندها سيجد كثيراً من الاشياء التي يجب ملاحظتها.

الفصل الثاني عشر

الحرب والانتفاضة

تستلهم استراتيجية وتكتيك أركانات الجيوش الأوروبية العظمى، حالياً، المقياس السياسي التالي: يجب ان تكون الحرب القادمة سريعة للغاية، إذ في الحالة المعاكسة، سوف تندلع الثورة في الداخل. من هنا التطور العام للطائرات المطاردة والقاذفة وللفرق العسكرية الآلية والدبابات الهجومية والصناعات الكيميائية. لا نكترث بالانسان أكان جندياً ام مواطناً عادياً. ولا نكترث بالجماهير أكانت جيشاً ام شعباً. بودنا لو نُحِلُّ مكانها بدائل ميكانيكية أكثر سرعة ومرونة، بلا روح ولا دماغ.

إن تجربة الحرب العظمى لا تزال حية: فقد انهارت امبراطوريات ثلاث: المانيا، والنمسا ـ المجر، وروسيا، دون ذكر تركيا التي كانت تعاني من زمن وضعاً حرجاً. في اليونان تبخّرت الملكية، وفي بلغاريا كاد تنحي الملك ان يقود الى القضاء على النظام. بالطبع كانت الدول المهزومة في الأسفل، ولكن حتى الذين ابتسم لهم النصر، فقد عانوا من اضطرابات عميقة. في ايطاليا، كان كابوريتو (Caporetto) يمثل التمرد السلبي لجيش متعب من المذابح، التي أمروا بها باستخفاف ومن حرب المواقع؛ فعرفت تورينو أيام انتفاضات عمالية جدية.

في فرنسا، وهي بلد محارب تقليدياً اكثر من غيره، أخذت الانتفاضات أحجاماً خطرة وكادت فرق غاضبة ان تسير من الجبهة نحو باريس. وعرفت انكلترا كابوريتو لا يقل تعليمية عن الكابوريتو الايطالي أحاطه الكبرياء الأمبراطوري بغشاء سميك؛ فدفعت الانتفاضة الجمهورية في دبلن المسألة الايرلندية المزمنة.

في الحرب الحديثة، تكبر الابادة وتقسو التضحيات المفروضة على البلاد الى حد ان المنتصرين والمنهزمين، إن طالت مدتها، لن ينتظروا منها سوى الكوارث، إنما ينتج عنها مشكلات رئيسية بالنسبة للفن العسكري ولنظرية الانتفاضة. وهذه الأخيرة هي التي تهمنا.

بعد هزيمة البروليتاريا الباريسية في حزيران ١٨٤٨، رفعت الرجعية البروسية والنمساوية رأسها بعد هزيمتها في انتفاضات برلين وفيينا والمجر. وكانت روسيا نقولا الأول تقدم له الذهب والقوزاق. في هذا الوقت، حث ماركس وانغلز الديموقراطيين الالمان على الحرب ضد روسيا. وكان يجب على هؤلاء تثبيت الثورة في أرض مفتوحة كما فعل اليعاقبة. كانت الاطروحة أدبية، طبعاً، لأن الديموقراطيين الالمان لم يكن لهم من اليعقوبية شيء، حتى نعل أحذيتهم. مهما يكن من أمر فقد كان الطرح يجاري الحرب الثورية.

بعد خمس سنوات كان اسكندر الثاني يذهب بتطلعاته حتى الدردنيل. واعلنت فرنسا وانكلترا، وهما القوتان العظميان، في ذلك الوقت، اللتان تناديان بالسلام، وقوفهما الى جانب تركيا في الحرب التي تلت. كان الحكم في تركيا حكما رجعياً لا مثيل له في العالم؛ أما انكلترا فكانت تقوي امبراطوريتها تارة بمظاهر محافظة وطوراً بمظهر ليبرالي؛ وكانت فرنسا لا تزال غارقة بدماء الانقلاب العسكري البونابرتي. وعليه، بارك ماركس وانغلز تلك الحرب التي كان عليها تدمير الاستبداد الروسي. وانتقلت هكذا الطاقة الثورية للديمقراطية الالمانية في عام ١٨٤٨ الى الامبراطوريات الثلاث. كانت تلك، بالطبع، عملية مبنية في الهواء مثل سابقتها. مهما يكن من أمر، فالطرح السياسي واضح: تطوير الثورة. في هذه المناسبة، ولنفس الأسباب، كان مزّيني مناهضاً لتدخل المملكة السردينية في الحرب، لأن هذه الحرب كانت تضع في المرتبة الأولى ملكية أسرة السافوا وتوقف التحرك الديموقراطي للثورة الوطنية. ولنفس الأسباب، سيكون مزّيني في المستقبل ودائماً الى جانب الحرب، في كل مرة كان هناك أمل التقدم في سبيل تحرر الشعوب. وهكذا نبقى دوماً في الميدان النظري للحرب الثورية.

في عام ١٨٥٩، استطاع نابليون الثالث ان يبدو كبطل ليبرالي، حتى في مواجهة النمسا التي كانت تواصل السير على خطى مترنيخ. اما الثوريون الذين حرضوه، تارة بالكلام وطوراً بالقنابل، فكانوا معه الى حد كبير: كان المبعدون البولونيون والمجريون

يتطوعون في جيشه بارادتهم. اما لاسال، الذي لم يكن مبعداً، والذي كان بالعكس يمارس سياسة واقعية جداً في بروسيا، فكان يلتهب حماساً غير متوقع لامبراطور الفرنسيين ولملك سردينيا، اللذين رغم دعم روسيا الاوتوقراطية لهما، كان عليهما تفتيت النمسا الرجعية في سبيل تحريض أكبر للديموقراطية الالمانية الغافلة. حتى انه لم يكن يصغي لنداءات الاستغاثة من العسكريين النمساويين الذين كانوا يقسمون انه، في سبيل حماية نهر الرين يتوجب حماية نهر البو. هنا أيضاً، كانت الأطروحة السياسية هي الحرب الثورية.

وكان ماركس وانغلز هما أيضاً مع الحرب إنما بأسلوب آخر. فبالنسبة لهما كان امبراطور فرنسا يتساوى مع امبراطور النمسا: كانت الرجعيتان متساويتين. لا جدوى قطعاً، إذن، في انتصار هذا أو ذاك. ولكن لو تدخلت روسيا، المحور الدائم للرجعية الأوروبية في الحرب الى جانب فرنسا، عندها وعندها فقط، يتوجب على المانيا التدخل للدفاع عن النمسا. ولكن لا بد ان تكون المانيا ثورية. كان ذلك ثعباناً بحرياً لا يقل غرابة عن ثعبان لاسال، إذ اننا لا نرى كيف كان بوسع المانيا في ١٨٥٩ الرجعية مثل المانيا ١٨٤٩، ان تصبح ثورية لرغبتها في سحق روسيا. ولكن الطرح هنا أيضاً هو الحرب الثورية.

أبقت الحرب الفرنسية البروسية سنة ١٨٧٠ ماركس وانغلز لا مباليين: فالامبراطوريتان رجعيتان وامبرياليتان.

ووجدت الحرب الروسية اليابانية الأحزاب الاشتراكية متطورة جداً في اوروبا. وكان أعضاؤها في غالبيتهم يفضلون اليابان، متيقنين ان هزيمة الجيش الروسي كانت سوف تعني نهاية القيصرية. ففي سبيل تحرير روسيا يجب ان نكون ضد روسيا نفسها. كان غيسد (Guesde) المهووس بفكرة الحرب الثورية لمصلحة البروليتاريا، يصرخ وهو دائم الاستعداد «لمنح الحرية المطلقة لإله المعارك»: يحيا اليابان!. فقد بلغ طرح الحرب الثورية ذروته.

لم يكن كاوتسكي قد نسي بعد تجربة حرب القرم: هُزم الجيش الروسي واستمرت القيصرية. كان يستبعد أية ثقة في تلك الحرب. ولكن عداءه لم يكن عداء عقائدياً ومطلقاً. كان نتيجة خيبة أمل فقط. ولو أمل في انهيار القيصرية لوقف مع الحرب. وقد

عمّق مهرنغ (Mehring) القضية، ظاهرياً، أكثر من الآخرين. إنما كان المقصود لعباً على الكلمات، ليس إلا: مصلحة البروليتاريا ليس مع الحرب إنما في الحرب. ويصل هكذا الى استنتاجات غيسد العملية نفسها.

وقد عدّل المهاجرون الروس، مع بليخانوف ولينين على رأسهم، وللمرة الأولى، طريقة اعتبار الحرب حرباً ثورية، من موقع المتفرجين، تاركين للجيوش فعل النصر او الهزيمة. وبالعكس أخذوا يبشرون بالانهزامية ويمارسونها ويعملون على إقحام البروليتاريا مباشرة في الأزمة ودفعها للتمرد في سبيل الاستيلاء على السلطة. هذا التكتيك الجديد سوف يقود الى الانتفاضة البروليتارية والى سوفيات ١٩٠٥. وسوف يوقع جميع الأنصار القدامى للحرب الثورية من أجل الحرب الثورية ـ وكان غيسد التجسيد الأكثر مبالغة لهم ـ هذا الطرح الذي سوف يلتبس مع الطرح القومي، الأمر الذي ستبرزه استثنائياً التدخلية الثورية الايطالية سنة ١٩١٥. وتصل جرأة التكتيك الجديد هذا الى حد التآمر مع عدو البلاد بالسلاح، الأمر الذي سوف يمارسه لينين ممارسة كاملة في الحرب الكبرى. ورغم مظاهره المشابهة، فهو يختلف اختلافاً كبيراً عن تكتيك الحزب الاشتراكي البولوني الانضمامي والقومي الذي بعث بمندوبين الى طوكيو للتفاهم حول العمل الواجب القيام به ضد روسيا. وفيه كثير من نقاط الالتقاء مع تصرف مزّيني، الذي طلب مساعدة بسمارك سنة ١٨٧٠ في سبيل انتفاضة «جمهورية» في الجنوب والجزر.

في هذا الصراع الروسي الياباني، بقي جوريس (Jaurès) وحده مسالماً لا يتزحزح وحاول جاهداً وقف الحرب. وسوف يتصرف في ١٩١٤ بنفس الانسجام السياسي.

في الحرب الأخيرة، أعلنت الأحزاب الاشتراكية للبلدان المشاركة، بكاملها تقريباً، وقوفها الى جانب الدفاع الوطني معتبرة نفسها معتدى عليها، باستثناء بعض الأمثلة النادرة من الحيادية او الانهزامية الانتفاضية.

إن التجربة الحاصلة منذ ١٨٤٨ حتى يومنا هذا كافية؛ وبوسعنا ان نستخلص منها استنتاجات جذرية.

فالحرب الثورية غير موجودة، وكذلك الحرب الرجعية. إن أي حرب، بإمكانها ان تقود إما الى الثورة او الى الردة، وفق شروط تحديدها. ومن الواضح بأن حرباً محدودة

مفترضة، تضع المانيا واليابان بمواجهة روسيا، قد تبدو رجعية وفق كل الترجيحات، في حين أن حرباً محدودة مفترضة تضع روسيا وفرنسا والتحالف الصغير ضد المانيا، قد تبدو، باحتمالات متعادلة، حرباً ثورية. قد ترغب الرجعية الروسية في الأولى، فهل يتوجب على البروليتاريا الثورية الالمانية الثانية ان ترغب فيها أيضاً ؟

إن السؤال الذي يطرحه الكثيرون هو التالي: «هل ينبغي على البروليتاريا اشتهاء حرب قد تكون بالنسبة لها ثورية ؟»

ثمة عقيدتان، الأولى اخلاقية والثانية سياسية تجيبان للوهلة الأولى بالسلبية المطلقة.

العقيدة الأخلاقية مكونة من اعتبارات اخلاقية فقط: «الأعداء كالأصدقاء هم اخوة لك. وعندما يكون عدوك في وضع صعب، أوقف القتال وساعده». هذا هو ناموس المهاتما غاندي. وهذا موقف ديني يُدين العنف بشكل مطلق وغير مشروط، حتى في حالة المقاومة او الدفاع المشروع عن النفس. ومن نفس النوعية، هي نظرية تلك المسالمة الأوروبية التي كان لانسبوري في انكلترا، لسان حالها في مؤتمر حزب العمال في برايتون سنة ١٩٣٥. «من يضرب بالسيف فليمت بالسيف ويجب كره العنف مثل المسيحيين الأوائل»، الخ. كذلك أيضاً هي عقيدة اللامقاومة، التي تمارسها جمعية معارضي الخدمة العسكرية منذ الحرب الأخيرة. وهي تتبع، بكلمات مختلفة، القانون الأخلاقي الذي يتبعه الصاحبيون (Quakers) الانكليز والاميركيون.

تلك هي طروحات أخلاقية لا سياسية، بوسع المرء ان يقبلها او يرفضها، ولكن لا فائدة من مناقشتها، كما في كل التأكيدات الدينية.

وتنحو العقيدة السياسية غير ذلك. فهي أيضاً مصممة على رفض الحرب ـ أي حرب ـ لكنها تتكون قبل كل شيء من اعتبارات سياسية: عجز الحرب عن حل المشكلات التي فرضتها، ودمار واسع للحياة البشرية والثروات القومية، واستفادة البعض والفقر العام الخ. هذا هو الطرح الاشتراكي. ان خيبة الحرب الثورية المزعومة ليست غريبة عن هذا العداء. في الحرب الروسية اليابانية، حصلت، فعلاً، انتفاضة ١٩٠٥، وهي في أصل الثورة الحالية. ولكن الامبريالية اليابانية التي كانت، من خلال هذه الحرب، تواصل القتال ضد صين ١٨٩٤، ليس إلا، خرجت منها أكبر. إن احتلال منشوريا وشمال الصين ليس إلا تتمة لحرب ١٩٠٥، وكانت الأركان العامة اليابانية

تحلم باعتداء مقبل مرتقب على روسيا السوفياتية، كما كانت تحلم بمرحلة رابعة. وكانت دروس الحرب الأخيرة كبيرة أيضاً. ثورية في نتائجها المباشرة، ورجعية في تطوراتها المتتالية. وترجع الاشتراكية الديموقراطية أصلَ الفاشية، الى تلك الحرب، اكثر مما ترجعه الى أخطائها الخاصة. إذن، فبُعداً وسحقاً للحرب.

«إن الأممية الاشتراكية لا تستطيع الرضوخ للحرب، في أي حال من الأحوال، حتى لو كانت وسيلة لتحرير الشعب» هذا النداء أطلقته لجنتها التنفيذية عشية الاشتباكات الايطالية الاثيوبية وأيدته بالاجماع. ثم وسع ليون بلوم (L. Blum) تلك الفكرة بالتعبير التالي: «نحن لا نفكر إلا بالسلم، ولا نريد سوى السلم. نفضل اعادة العدالة التي لا تخطىء على دكتاتور دموي ونفضل الحفاظ على السلام». وهذا يعني انه حتى لو تيقنا من ضمان سقوط الفاشية في حرب مماثلة، فيجب، رغم ذلك، منعها بكل الوسائل. وكون العدالة المعصومة تفشل غالباً وبإرادتها، فهذا يعني انه يجب منعها حتى لو أرجأنا موضوع القضاء على الفاشية الى ما لا نهاية. تلك هي أطروحة المسالمة الكاملة.

كان مزّيني يقول بعد سقوط الجمهورية الرومانية: «سقطت المجر، سقطت البندقية... في روما يوقفون وينفون ويدانون... في بولوني (Bologne) وفي ترني (Terni) يقتلون شبابنا. وفي ميلانو يضربون الرجال والنساء والأطفال... سوف نحاصر مثل حيوانات مفترسة وعندها سوف نتكلم عن السلام والنظام. ويقول اللورد بالمرستون (Palmerston) بأنه يريد السلام في أوروبا...». إن الوضع حالياً في إيطاليا وأوروبا، أسوأ وأسوأ بكثير مما كان عليه عام ١٨٤٩. إن جماهير شعبية واسعة تسير مقيدة وتُقطَّع قِطَعاً. وكل الدبلوماسية تقريباً متوافقة في إرادتها مع نزع السلاح الثقيل وقنابل الغاز والقنابل الجرثومية. آفات البشرية: فقط العصي والنار البطيئة مسموح بها ضد الشعب. حتى ولو افترضنا امكانية حرب تحريرية، فقد تدان بحزم وصلابة ويستمر السلام، لا مبالياً بمضغ أوراق الزيتون الجافة.

لم يعد هذا التعلق بالسلام، في ايامنا هذه، ميزة من مزايا الاشتراكية. ان السلام مرغوب فيه بإخلاص، ليس فقط من قبل جماهير بروليتارية هامة، بل من قبل قوى لا تقل أهمية عن البورجوازية الكبرى. ومع السلام، تمارس هذه القوى سياسة المحافظة. إن الأمبراطوريات الراسخة عليها ان تدافع عن وضعها القائم: لأنهم في الحرب، سوف يفقدون كل شيء دون ان يربحوا شيئاً. فمن الطبيعي ان تتطابق الدوافع الأخلاقية مع

الدوافع السياسية فتقوّي تلك الدوافع بعضها بعضاً. ولكن، ينتج عن ذلك، بالنسبة لقضية السلام تشابك بين تيارات اليسار وتيارات اليمين، يضاهي في اكتماله وتعقيده تشابك الليبراليين والمحافظين والاشتراكيين في مجلس العموم في انكلترا، حول مسألة التعليم الديني للكنيسة الوطنية. إن موقف بعض الدول الحربية التي تهدد البروليتاريا والبلدان الرأسمالية على حد سواء، تجعل تشابكاً كهذا قابلاً للتفسير.

بمثل هذا التصرف تُمارَسُ البورجوازية الذَريعية. وهي لا تستلهم نظاماً نظرياً جامداً للسلام، بل واقعاً تجريبياً. فالحرب كانت تفيدها في أزمنة سابقة: أما الآن فالسلم هو الذي يفيدها. ذاك هو التكتيك ذاته الذي استخدمه الحزب البلشفي بممارساته سياسة الحرب والسلم، مستلهماً دوماً مصالح الثورة الواجب انقاذها. وليس بوسعنا القول انه تكتيك مغلوط رغم وجهات النظر المضادة.

ينبغي على أية نظرية جدية في الانتفاضة ان تكون متحررة من كل تصلب. فالتجربة والممارسة هي القوانين الرئيسية التي تحددها. وليس للمسالمة التامة، على أي حال، قيمة عملية. إن الرغبة في الحرب بأي ثمن هي جنون، ولكن من الجنون أيضاً ان نرغب في السلام بأي ثمن. كانت الصين تريد السلم بأي ثمن واليابان تواصل قضمها وابتلاعها. فرنسا أيضاً تريد السلام ولكن هل بوسعها البقاء مسالمة إذا اعتدت عليها المانيا الهتلرية ؟ روسيا السوفياتية تسعى الى السلام، ولكن ماذا سيحصل لو بقيت لا مبالية تجاه اجتياح أراضيها ؟ نحن في ميدان سياسي وليس في ميدان أخلاقي مجرد؛ فالافتتان بالكلمات لا يقدم أية فائدة.

إن مشكلة الانتفاضة هي مشكلة ثورية. لذلك، فهي تفلت من اختصاص العقائد المسالمة. من يقبل بالانتفاضة يقبل بالحرب. فالانتفاضة هي في السياسة الداخلية كالحرب في السياسة الخارجية. هي العنف الذي نقره كوسيلة ضرورية للنضال السياسي في بعض الأوقات الاستثنائية، مهما كبرت التضحيات التي تفرضها. لو تستطيع حرب ضمان نجاح الانتفاضة المناهضة للفاشية في ايطاليا والمانيا، لتوجب اعتبارها شرّاً لا بد منه. لذلك تخلق عبارة الأممية الاشتراكية، المحترمة أخلاقياً، الكثير من الارباك على الصعيد السياسي. قد تستجيب هذه العبارة، حسياً، لتطلعات ثلاثة أرباع البروليتاريا الأوروبية. إنما هل تجيب عن تطلعات البروليتاريا الايطالية ؟

عملياً، لا تطرح المسألة هنا كما تطرح نظرياً. ففي الحالة الخاصة للحرب الايطالية الأثيوبية، مثلاً، لم تتمكن البروليتاريا الأوروبية إلا عمل القليل، بينما لم تفعل البروليتاريا الايطالية شيئاً لمنع هذه الحرب او لتسهيلها. هي مسألة إذن غير موجودة من الناحية العملية، فمسألة معرفة ما إذا كان علينا تجنب هذه الحرب ام لا. وبالمقابل، تطرح المسألة بهذا الشكل: «إن الحرب التي أطلقتها الفاشية ضد أثيوبيا خاطئة. ويجب على البروليتاريا استغلال هذا الخطأ بكل الوسائل في سبيل تخريب الحرب والعمل على تسريع سياق الانتفاضة الشعبية».

في وضع معقد، الى الحد الذي تظهره أوروبا اليوم في تناقضات حادة بين المصالح الرأسمالية والقوميات المتفاقمة، لا نستطيع سَنَّ قوانين عامة. حتى البروليتاريا، فإنها لا تملك نفس المصالح في كل مكان. ففي صراع الماني فرنسي، سوف تعمل البروليتاريا الالمانية في سبيل هزيمة النظام والانتفاضة. اما البروليتاريا الفرنسية، فسوف تساهم، بالمقابل، في الدفاع الوطني، إذ ان هزيمة جيش الجمهورية قد يعني انهيار المكتسبات الديموقراطية والفاشية في الداخل. إن تصلب الأممية الثالثة تضاءل واضطر المؤتمر السابع، سنة ١٩٣٥، الى أخذ الوضع الأوروبي الجديد بعين الاعتبار. فالدفاع الذي قد تُدعى البروليتاريا الى تقديمه عن الديموقراطية البورجوازية، حتى بالسلاح، يعيق كثيراً تحول المجتمع الرأسمالي الى مجتمع اشتراكي ولكنه يوقف الرجعية. لذا يصبح النضال من أجل الديموقراطية نضالها هي.

ليس بوسع البروليتاريا، حتى ولو كانت ثورية، تمجيد اي حرب بورجوازية حتى لو كانت ثورية، دون المجازفة باعتناق قضية الطبقة التي أطلقتها. ولكن العداء الذي تظهره لها ليس له قيمة مستقلة وليس هدفاً بحد ذاته. هو وسيلة تحريض لدفع الشعب ضد الطبقات المهيمنة والمسؤولة وإظهار الانتفاضة امامه على انها الوسيلة الوحيدة للخلاص.

غير ان البروليتاريا المقهورة لا تخاف الحرب إذا كانت حربها. فهي تشارك فيها بكل إيمانها مستعدة لتحمل كل التضحيات حتى النصر. لذلك تدين البروليتاريا الثورية أدب المسالمة التامة التي إذ تسحب منها الزخم الضروري لمواجهة القتال برجولة، تطيل حالة العبودية ليس إلا. فهي تمجد البطولة التي بمظاهرها الفردية او الجماعية تظهر كالتعبير الأسمى لوعيها السياسي. ليس المسالم الانجيلي هو النموذج المثالي للبروليتاري الثوري.

بل هو عامل «الشوتزبوند» (Schutzbund) وعامل المناجم في الاستوري؛ وهو المقاتل في الجيش الأحمر الشعبي الذي دافع في حقول المعارك عن الثورة السوفياتية ضد الرجعية الأوروبية وضد الجيوش البيضاء.

الحروب اليوم نتاج طبيعي للمجتمع الرأسمالي وللقوميات المتعصبة. والقضاء على الفوارق الطبقية والقوميات والامبرياليات هو وحده الذي يستطيع تحقيق استقرار سلمي طويل الأمد. وسوف يكون السلام ميزة أوروبا الغد الاشتراكية.

الفصل الثالث عشر

قتل الطاغية والارهاب

هذا الموضوع، يتكلمون عنه، عامة، بكلمات مغلفة. وليس هناك مسألة سياسة أخرى يختفي خلفها هذا القدر من التحفظات الفكرية. ولكن عندما تمكنت امرأة من جرح لينين بطلقات مسدس، انتشى نصف أوروبا. وعندما ثقبت امرأة أخرى، في لحظة إلهام صوفي، أنف دكتاتورنا الامبراطوري، باطلاق النار عليه عن كثب، انتشى النصف الآخر. ولو جمعنا النصفين المعاديين والمنقسمين، لكان لدينا أوروبا كاملة تؤيد الاغتيال السياسي، باستثناء نسبة لا أهمية لها. هذا الواقع خطير. ولكن، حتى قبل ماركس، كان الشك قد برز في ان عواطف البشر تُستلَهم من ظروف خاصة. وهذا قد يقوينا، إذا اعتبرنا انه اعتباراً من اليونانيين الى الرومان، ومن آباء الكنيسة الى رجال الثقافة الكلاسيكية، لاقى قتل الطاغية لدى الجميع ما بوسعنا ان نسميه اليوم سمعة حسنة. ولا يعتبر هذا سبباً يبرر حتمية الرعب في المظاهر الرسمية. فهذا أيضاً طبيعي.

تتحدث أحزاب البروليتاريا عن هذا الموضوع بحذر. وقد يعطي اي اشتراكي وأي شيوعي، في قرارة نفسه، بضع سنوات من حياته من أجل رؤية هتلر وموسوليني محنطين، لكن الأدب الاشتراكي التقليدي يميل الى القسوة في طريقة حكمه على العمل الفردي الذي نقضي به على دكتاتور ما. وحول هذه النقطة، يتفق الاشتراكيون والشيوعيون. وفق الرأي السائد، ليس بروتوس وغليوم تل سوى بورجوازيين يائسين. آه من تلك البورجوازية الصغيرة!

كل ذلك مضاد للعقلانية، إن من وجهة نظر أخلاقية او من وجهة نظر سياسية.

لماذا إذن، يجب إدانة العنف الفردي وتمجيد العنف الجماعي ؟ أخلاقياً، لا فرق بينهما. وسياسياً الفارق أصغر. فالطاغية يضع نفسه آلياً خارج القانون. هو الحَكَم. وهو المعتدي على الأكثرية في بلاده. فعمل العنف ضده هو عمل دفاع مشروع. وإذا كنا نؤيد التكتيك الثوري في النضال السياسي، بات من غير المنطقي ان لا نؤيد العنف ضد الدكتاتور. فالكل في حالة حرب ويجب الحكم على الأشياء والتصرف بذهنية حربية وليس بروح مسالمة. ففي الحرب، كل الضربات مسموحة. فالصليب الاحمر لا يغطي خيمة القائد الأعلى. ولا فرق قطعاً إن جاء الهجوم مواجهة أو عن اليمين او اليسار او من الخلف. لا أحد بوسعه، فيما بعد، ان يدين العسكري الذي ينجح، في الحرب، بالقضاء على القائد الأعلى لجيش العدو بل بالعكس، يقضي واجبنا الاشادة بانتصاره. لنحلم بكل المجد الذي قد يكون استحقه ذلك المقاتل الفرنسي الذي، بعد تخطيه كل حواجز الخنادق في الخط الأول والخطوط الخلفية، نجح في الوصول الى القيادة العامة الالمانية، وتفريغ بندقيته في رأس هندنبرغ او لودندورف. او العسكري الالماني الذي قد يصيب جوفر او فوش او نيفيل رغم كون هذا الأخير، على صورة كادورنا (Cadorna)، مفيداً للعدو في حياته أكثر مما في موته.

في الحرب، كل ما يسيء الى العدو، نافع ويجب عمله اذا استطعنا. بالطبع، ان الأركان العامة التي قد تزعم ربح الحرب بموت القائد الأعلى للعدو، وتربط كل العمليات بذلك قد تحاط بالسخرية. لا نربح الحرب إلا بالمعركة: أي باستخدام الجيوش وتحريكها. كذلك في حقبة ثورية، لا يجد النضال السياسي حلاً إلا بالانتفاضة، أي باستخدام الجماهير وتحريكها. ولكن، إذا كان القضاء على رئيس أركان العدو، عملاً جيداً في الحرب، لا نرى لماذا قد يكون من الخطأ، في الحقبة الثورية، القضاء على الممثل الأول للنظام الذي يجب ان ننتفض ضده.

إلى أي مدى، قد يؤثر الموت العنيف للدكتاتور على الوضع السياسي؟ في حال القضاء على الدكتاتور، هل تستطيع الجماهير وعي قواها الخاصة بسهولة أكبر والاستفاقة أكثر ومساندة الطليعة المسلحة التي تتمرد حاملة السلاح ؟ هذه القضية هي قضية سياسية.

حول هذا الموضوع، نقع في المغالاة.

من رأي الكثيرين ان موت الدكتاتور يعني نهاية النظام في آن معاً. في هذا يكمن

خطأ فادح. قد لا تسقط النازية في المانيا بموت هتلر. وقد لا تسقط الفاشية في ايطاليا بموت موسوليني. كما لم تسقط الدكتاتورية الرجعية في النمسا بمجرد موت المستشار دولفوس (Dolfuss) صانعها الأكبر وسندها.

في ندواته مع لودفيغ (Ludwig)، أخطأ موسوليني بادعاء مغال عندما قال: «اعتقد انه لن يأتي دوتشي رقم اثنين، ولو أتى لما تحملته أيطاليا». إيطاليا، ايطاليا رجال الدين، الرأسمالية والملكية، قد لا تتحمل واحداً بل عشرة. فقد يضطلع خلفاؤه فوراً بتقطيب الحواجب الامبراطورية، ويصبحون هم أيضاً معصومين. كان غويتشياردينى (Guicciardini)، الذي ذاق الكثير من العذاب في ايطاليا عام ١٥٠٠، يقول انه عندما يموت الطاغية، قد يضع أنصاره طاغية من شمع للحصول على شبهه وتحقيق حماية مصالحهم في هذا الخلف المباشر. أما اليوم، فإن الديكتاتوريات الرجعية، كما برزت خاصة في إيطاليا والمانيا من خلال الفاشية، هي واقع معقد جداً حولت الحياة الوطنية برمتها. فحول الدكتاتور، أكثر مما حول امير من عصر النهضة، يتحد ممثلو الرأسمال الكبير، والكنيسة والعائلات، والبيروقراطية السياسية والادارية، وجمع كبير من القياديين: ويعلمون ان التضامن الى أبعد حد هو وحده الذي يستطيع انقاذ ما يملكون. وقد يُصنع الدوتشي المكرر من نسختين على الأقل. وقد لا تطلب الجوقات العسكرية والمدنية أفضل من متابعة السير محاطة بالمرافقة. قد تُفتح ثغرة، ولا شك، في الجهاز الامبراطوري الواسع، إنما قد يمضي وقت، ووقت طويل، قبل ان يصبح الحذر الشعبي تمرداً مفتوحاً يدنس جثة الدكتاتور الميت وجسد الحي. في هذا الوقت ستثبت انتقامات وحشية حق الدكتاتور المتوفى في المجد الوطني. ومن يعتقد ان نبأ الوفاة قد يُستقبل بالتصفيق، يخطىء كثيراً. ففي مناخ من الارهاب الوطيد، يتطلب حتى من المسرورين أن يظهروا الاشمئزاز، وإذا لم يكونوا راغبين في التحول إلى ضحايا، وجب عليهم تحريض المنتقمين. كان لورنزو دي مديتشي، بعد قتله الدوق اليكسندر، مقتنعاً بأنه أنجز عملا كان بوسعه جعل فلورنسا بكاملها منتشية. ولو لم يهرب في الوقت المناسب، لكان قُطع أرباً. ولو لم يتوقع كتابة «تبريره» بنفسه، لما كان كتبه أحد.

يجب على حركة تميل الى الانتفاضة ان تفكر بوسائل أخرى لتحريك الرأي العام والجماهير، لا بقتل الطاغية. قد تكون إدانته خبثاً، إنما قد يكون من الخطأ إضاعة الوقت والوسائل والرجال في حملة كبيرة أخلاقياً وعادلة سياسياً، غير مضمونة عملياً او

صراحة غير فعالة. ليس بوسع الجزاء الأخلاقي الذي يمارسه المنتقم، بأسم البشرية، ان يكون إلا عملاً شخصياً وفردياً وعفوياً وغريباً عن تنظيمات المجموعات والأحزاب. ان الشهيد الذي يضحي بنفسه قد يكون تعبيراً عن وعي فردي عالٍ في حالة تمرد، لا رسولاً لفصيل سياسي.

زد على ذلك كون الطاغية العصري يعيش ضمن سور من الحراب. والوصول اليه ليس عملية سهلة. لذلك، لم تنجح اي من المحاولات الكثيرة للوصول الى الطاغية الايطالي. وكانت هيبته تتزايد تدريجياً مع ازدياد المحاولات الفاشلة. حتى ان هذه المحاولات بلغت عملياً النتيجة العكسية التي كانت تتوخاها. وقد فهم بوليس النظام ذلك فهماً رائعاً، فجهّز البعض منها لحسابه الخاص.

يجب وضع الارهاب في نفس المستوى، حتى ولو كان ذلك من أجل اعتبارات مختلفة. ان حركة انتفاضية لن تمارس هذا قط، تحت أي شكل من الأشكال.

وقد أفلس الارهاب كنظام للنضال الثوري. لقد اعتنقه الفوضويون الاسبان بانتظام، ولكن عمال المناجم في الأستوري حصلوا في يوم واحد أكثر من كل ما عملته اسبانيا في خمسين سنة.

لقد مورس الارهاب في روسيا، على نطاق واسع مع تناوب من الفشل والنجاح. وانتهى في العدم. و«مهووسو» دوستويفسكي هم لوحة خالدة في هذا المجال. وقد نظمه الاشتراكيون الثوريون، تقنياً، بمجموعات عمل متخصصة ونجحوا حتى في إنجاز أعمال فعلت فعلها في نفوس الشعب. ويعود التأثير الكبير، الذي كان لحزبهم على الجماهير الفلاحية والعمالية أيضاً، الى حد كبير للارهاب. ولكن تبعته انحرافات أضرت ضرراً لا يقاس. وواصل الحزب الاضطلاع بمميزات ثورية أكثر منها اشتراكية للوصول في النهاية الى الذروة، حيث لم يعد لا اشتراكياً ولا ثورياً. وكان عملاء محرضون قد تسللوا حتى الى اللجنة المركزية السرية، حاملين اليها الحذر والفرقة والخيانة. كم من التضحيات النبيلة والسامية والاعتراضات الانسانية بذلت ضد الطغيان واللامبالاة العالمية ولكنها كانت بدون جدوى من وجهة النظر هذه.

نستطيع، نظرياً، بواسطة الارهاب، تدمير اعلى الهرميات المعادية، والثأر لكل الاهانات، وزرع الذعر في صفوف النظام، واعادة إحياء الوعي الشعبي المنهار بأعمال

تتكرر دون انقطاع . ولكن هذا محال مطلق ، من الناحية العملية. ويُظهر كتاب فيرا فيغنر (V. Figner) ماهية الصعوبات اللامتناهية التى اضطرت المجموعات الارهابية الى تخطيها ورباطة الجأش التي كان عليهم ان يتحلوا بها. وهو يظهر خاصة، في كل خطوة، الارستقراطية البطولية الصغيرة التي سُحقت تحت وطأة الحملة الهائلة. ان تاريخ الارهاب الروسي هو سلسلة من المآسي والهزائم. حتى أفضل المقاتلين يستسلمون تجاه اليقين بالموت، وثمة سلسلة طويلة من نقاط الضعف والخيبات تلف كل عملية تقريباً. إذ ان التخطيط لا يكفي بل يجب التنفيذ. والمنفذون بشر وليسوا آلات.

في إيرلندا، برغم التواطؤ العام الذي كان بوسع المقاومة الوطنية الاعتماد عليه، كبحت قوة الانتقام جماح الارهاب، لدى متطوعي الجيش الجمهوري، ضد السلطات الانكليزية. إن حفنة من الرجال، رغم امتلاكها قلوباً من فولاذ لا تكفي قطعاً لمجابهة التنظيم البوليسي الذي تدافع به امبراطورية عن نفسها. فقد سحق المتطوعون الايرلنديون الألف الذين أطلقوا، في عام ١٩٢٠، هجوماً لا سابقة لتهوره في النضال المزمن الذي قادته ايرلندا ضد التاج. ومورست هجمات على الثكنات ومخازن الأسلحة واغتيالات للضباط وهجمات صاعقة في المدينة والريف، بدقة لا مثيل لها. لكن النصر لم يدم طويلاً. ولم يفسح للورد فرنتش (French) نائب الملك، المجال للشكوك في الاستيلاء عليه. فمارست الشرطة الملكية الايرلندية المؤلفة بكاملها تقريباً من ايرلنديين، تدفع لهم أجور مغرية، يعرفون الأرض واللهجات المحلية، مارست بدورها الارهاب وقامت بهجوم مضاد بالأساليب نفسها. وكان لا بد للأقوى من ان ينتصر.

ويعود نجاح الايرلنديين الى الحركة السياسية الوطنية برمتها، وليس الى فصيلها الارهابي.

لم تعرف بلغاريا، وهي الأرض التقليدية للارهاب، نجاحات أكبر. فالمقدونيون يمارسون الارهاب بثوارهم منذ ما يقارب النصف قرن. وتشكل حملاتهم ملحمة كاملة من البطولات. وقد بقي آلاف القتلى في الطرقات. فاذا كانوا قد اعتادوا على احتقار الموت واصطياد البشر، فقد انتهوا بالتحول الى غرباء عن الحضارة الحديثة، وسقطوا في حياة اللصوصية. وحلت الكراهية والانتقام العشائري مكان الدوافع السياسية الأولى ومنذ ما يقارب العشر سنوات، يقتتلون، متفرقين الى فصائل متناحرة. النتيجة السياسية

هي دون الصفر.

والتجربة الايطالية سلبية. ولو وجد شعب وعيه الفردي في مناهضة الارهاب، فهو الشعب الايطالي.

لا أحد يستطيع إدانة من يقيم العدالة لنفسه بنفسه، في فترة قهر سياسي. ولكن الارهاب السياسي المنظم هو انحراف في النضال السياسي. فهو يتضمن شكله الأولي ومرحلته الدنيا. وهو التمرد العفوي للشعور رغم العقل: تمرد بشري ولكنه غير فعال، نبيل ولكن بدون جدوى. يجب على التحرك الثوري ان يتخلى عن كل عمل ارهابي. بالاضافة الى انه بتحميل كل الأنصار مسؤولية قد لا تعود إلا على البعض، قد نخلق حذراً ومقاومة لها ما يبررها.

وإذ تتخلى حركة ثورية عن تنظيم أي محاولة اغتيال لحياة الدكتاتور، وعن كل عمل إرهابي ضد أشخاص النظام الذي تحاربه، فلا ينبغي ان تتخلى عن هذه الأعمال التي قد يلهب نجاحها حماس الجماهير. تعطينا عمليتان نظمتها ونفذتها الحركة الثورية الايطالية المناهضة للفاشية نموذجاً لتلك الأعمال: إغارة ليباري، والتحليق فوق ميلانو، الأول في عام ١٩٢٩ والثاني في عام ١٩٣٠.

كانت الغارة على ليباري عملية حربية حقيقية، حيث حطمت جرأة بعض الرجال حاجز جزيرة للاعتقال، بسرعة مذهلة وحررت متهمين سياسيين. كانت رائعة من حيث التنظيم كما في كل عملية حربية ناجحة ولكنها، لم تكن حقاً سوى هروب مؤقت. والعالم كله مع الهروب. وليس تاريخ السجون في كل أرجاء العالم سوى تاريخ لهروب ينجح أو يفشل. ولكن صدى هذا العمل الصغير كان، في ايطاليا وبين الايطاليين في الخارج، كبيراً! فقد سجل استعادة نشاط كاملة في مجال النضال السري، وانضماماً جماهيرياً لعناصر جديدة ـ من مثقفين وعمال وفلاحين ـ وهبّة مفاجئة من الحماس والآمال العامة.

أما التحليق فوق ميلانو فكان له أصداء أكبر. فإن ارمان الصغير، الذي انطلق من أرض محظوظة، وصل فجأة الى عاصمة لومبارديا غير مبال بأجهزة المطاردة العسكرية الجبارة في معسكر تاليدو. فحلّق عدة مرات فوق المدينة على ارتفاع منخفض، رامياً مناشير ضد النظام، ثم استعاد طريق العودة دون حرج. قسم كبير من السكان تمكن من مشاهدة المنظر الأمر الذي أربك الرأي العام. واضطرت صحافة النظام، بعد صمت

خجول الى التحدث عن هـذا التحليق، ولبستها السخـرية في ايـطاليا كلهـا. وتحركت الأحياء الشعبية والأحياء العمالية في ميلانـو الى درجة حصـول صدامـات بين فـاشيين ومناهضين للفاشية. وبعد بضعـة أيام، حصلت مواجهـة مسلحة في كاسينا كلاريتا (Cascina Claretta).

قد تبدو هذه الأعمال، التي تتطلب على أي حال تحضيراً مكلفاً وصعباً، قـد تبدو متواضعة بالنسبة لمن يجهل المناخ النفسي لبلـد تخنقـه الرجعيـة، ولكنهـا تملـك فعاليـة سياسية هائلة. فهي تبرز نقائص نظام يظهر على أنه كلي القدرة وتنسف هيبته. وتنشط المعارضة اكثر وترفع رأسها. وبوسع اعمال مماثلة، اذا تكررت في زمن متأزم وبشكـل متغير باستمرار، تحريك الجماهير الى حد جرّها الى العمل. فتزيل سحر سلبية مسترخية وتكوّن تحريضاً على التمرد.

ولكنها ليست فعالة ان لم تتوّج بالنجاح. ان جماهير فقدت كل معـاركها السيـاسية وهُزمت وتفتتت ورأت قادتها يُصفَّون او يلاحقون، ولم تعد تثق لا بهم ولا بنفسها، تحتاج الى انتصارات لا الى هزائم أخرى كي تعيد إحيـاء نفسها. لـذلك، يجب ان تهيأ هذه الأعمـال من قبل أنـاس قادرين، لا من قبـل جهاز مُرتجل. ويجب ان تُـدرس في كل تفاصيلها وتنفذ بدقة قصوى. ويجب ان تبدو اكثر من كونها احتمالا، أي يقيناً بالنجاح وان لا تفسح المجال للصدفة إلا بمقدار محدود للغاية. إن السرية والجرأة، من جهة ثانية هما ضمان للنجاح.

وإذا أخفقت تلك الأعمال، حصلنا على نتيجة معاكسة.

وهذه الأعمال، التي هي أعمال حربية، قد تخاض براً وبحـراً وجواً. وقـد تظهـر بمظاهر متعددة؛ وسوف ترجح التقنية في بعضها والشجاعة في بعضها الآخر. وقد تكون فريدة او تافهة، إنما يجب ان لا يتوقعها العدو.

إن أعمالاً كهذه قد تضطلع بمميزات الأعمال التي تسمّى باللغة العسكرية، معارك طليعية، لا سيما في حال تطور العدوى الثوريـة في البلاد. وتلك المعـارك ضروريـة في تثبيت العدو وإجباره على التعبير عن نفسه وإظهار قواه. لم نصل بعد الى الانتفاضة، إنما الى التجارب التي تحضر لها وتوضع إمكاناتها الحقيقية.

ليس المقصود أعمالاً، اعتاد اسلوب معين يتميز بالاحتقار، ان يسميها رومنسيـة. فهي تدخل في الحقل التحضيري الواسع لـلانتفاضـة. وإذا كانت الانتفـاضة فنـاً مثل الحرب، فيجب الاستعداد لها كفن، تماماً مثل الحرب.

الفصل الرابع عشر

الطليعة المسلحة

لا تنتظر حركة ثورية الانتفاضة الشعبية العفوية، بل تحاول جاهدة التحريض عليها والتعجيل بها. والمهم انها تقودها سياسياً وعسكرياً.

فبدون هذه القيادة المزدوجة، يصبح مصير الأنتفاضة الشعبية هـو الفشل. وتنتهي بممثلين، رجالاً وطبقات غرباء عن الانتفاضة وعن مصالحها. إن الانتفاضة البـاريسية التي حدثت في تموز ١٨٣٠، والتي كـان هدفهـا، ليس فقط تصفية شـارل العاشـر بل الملكية، انتهت بين أيدي تير (Thiers) والبـورجوازيـة المحافـظة، وكان خلفهـا لويس فيليب. اما انتفاضة شباط ١٨٤٨، وكانت أساساً بروليتارية وبورجوازية صغيرة، فقد سقطت في أيدي البورجوازية الملكية التي ارتجلت نفسها جمهورية، وكان خلفها الشرعي لويس بونابرت. وقد مثل انتفاضة ميلانو الديموقراطية والجمهورية سنة ١٨٤٨، الكونت كاساتي (Casati) ومعتدلون ملكيون ومحافظون كانوا، علاوة على ذلك، يستعدون للسفر الى تورينو وفيينا. وقد انتهت انتفاضتا السنة نفسها في فيينا وبرلين الى نفس المصير.

تبقى الانتفاضات الشعبية المستقلة التمهيدية وحتى الأكثر عنفاً، في كل مرة معلقة في الفراغ خلال لحظة، وهذه هي اللحظة التي تستفيد منها الطبقات المعادية. اما المثل الكبير والأخير، فتعطيه انتفاضة شباط التي قضت على القيصرية الروسية. فقد كانت من عمل العمال والجنود. وهكذا بقيت، بعد النجاح الأول، حائرة ودون أهداف لاحقة، إذ كانت ذات شعبية تامة ومن غير اتجاه متفق عليـه مسبقاً وكـاملة العفويـة. وخرجت

الحكومة المؤقتة، التي تشكلت في ذاك الوقت من الدوما التي لم يكن لها علاقة بالانتفاضة. وظهر رودیانکو (Rodianko)، وهو نموذج سلافي من الكونت كاساتي، كتجسيد لروسيا الثورية الجديدة. وقد رأى مناسباً وطبيعياً ان يعلن لأحد رسله الأكثر مسؤولية بين السفراء المعتمدين في سان بطرسبرغ «اقبل ان تبدلوا القيصر ولكن حافظوا على القيصرية». لم يعد احد يسمع برودیانکو خلال أسبوع، ولكن خلفاءه لم يتحدثوا بغير هذه اللغة.

وبالمقابل، فقد حضّر للانتفاضة، التي أدت الى كومونة باريس ولانتفاضة اكتوبر الروسية، كي نذكر أكبر الانتفاضات المهيأة والمنتصرة، وقادها ممثلو الشعب الحقيقيون، الذين كانوا التعبير الثوري له. لذلك لم تذهبا لمنفعة الطبقات الرجعية. يجب ان تتجه البروليتاريا الثورية نحو هذا النوع من الانتفاضات بالذات.

لقد حضّرت انتفاضة الكومونة من قبل الاتحاد الجمهوري للحرس الوطني ونفذت من قبل أفواج الحرس الوطني.

اما انتفاضة اكتوبر، فقد حضرتها ونظمتها اللجنة الثورية العسكرية. ونظراً لكونها الجهاز العسكري للجنة التنفيذية لسوفيات سان بطرسبرغ، فقد تشكلت لمعارضة قيادة حامية العاصمة، مباشرة بعد رفض الأفواج الابتعاد عن المدينة. وكان بين المشاركين فيها: رئاسة السوفيات الأعلى، وفصائل الجنود، وممثلو الأسطول، ولجان المصانع، والحراس الحمر، وعمال السكك الحديدية، والتنظيمات الصغيرة. كل هذه التنظيمات يمكن اختصارها بواحدة: هو الحزب البلشفي. فقد كان هو الذي يقودها ويراقبها جميعاً. وتنفذ العمل بقيادة اللجنة العسكرية الثورية، من قبل مفارز من الحرس الأحمر العمالي والبحارة والجنود. اما التنظيم الأساسي الذي كان يعتمد عليه الهجوم والذي بواسطته فرض الهجوم نفسه على قصر الشتاء، فهوالحرس الأحمر المكون خاصة من عمال بلشفيين وعمال موالين للبلشفية. فقد نظم الحزب البلشفي الانتفاضة وحضر لها وعيّن تاريخها واطلقها وقادها متستراً بالسوفيات واستولى على السلطة السياسية. لم يكن ثمة اية لحظة تردد بل افكار واضحة وبرامج محددة. فقد تُناقَش الثورة البلشفية او تُؤيّد او تنتقد، ولكنها تقدم تطوراً منهجياً ومنطقياً بين الانتفاضة والانجازات اللاحقة. فقد استولت البورليتاريا على السلاح واستولت على السلطة السياسية، دون وسائط او وكلاء؛ أي لحسابها الخاص.

لا يجب ان تنتظر البروليتاريا الثورية، من خلال منظماتها السياسية، الساعة الأكثر تأزماً لتشكل طليعتها المسلحة. إن وجود الجيش والبحرية، الى جانبنا وقت التحرك، بنفس القدر الذي كان للبلشفيين في اكتوبر، حظ لا يجب ان نحلم به في المستقبل يجب ان تجد البروليتاريا في صفوفها التنظيم الهجومي الأساسي. وإن لم يشكل هذا التنظيم أو إن لم يكن قادراً على العمل، فان الانتفاضة تبقى مجرد أمنية. هل كانت انتفاضة شباط الشعبية قد تكررت في تشرين الأول لو لم يستعد البلشفيون لها بتنظيماتهم ؟ هل كانت الانتفاضة قد اندلعت في النمسا، في شباط ١٩٣٤ لو ان الاشتراكية الديموقراطية لم تتمكن من التصرف بالشوتزبوند (Schutzbund) ضد الانسحاق الرجعي ؟ ولو لم يتمكن الاشتراكيون الاسبان من الاعتماد على الكتلة المتماسكة لعمال المناجم في الاستوري والتي كانت، رغم ذلك، سيئة التنظيم عسكرياً، ماذا كان مصير انتفاضة اكتوبر الاسبانية ؟

إن الحراس الحمر بالنسبة للانتفاضة هم مثل الجيش بالنسبة للحرب. فالجيش هو التنظيم المسلح للأمة الجاهز علناً لاحتمال أي حرب. فإن وقعت أمة تحت وطأة التهديد بالحرب واذا لم يكن الجيش مستعداً، وجب عليها تحمل كل الاهانات وحتى اجتياح اراضيها دون مقاومة. الصين تعطينا اليوم مثالاً على ذلك. كذلك، عندما يتدهور الوضع الثوري وتأتي الساعة الملائمة للانتفاضة، قد تبقى هذه عاجزة دوماً عن المشاركة إن لم يكن بحوزتها تنظيم مسلح. وهذا ما حصل خلال التململ الذي تلا قضية ماتيوتي (Matteotti) منذ حزيران ١٩٢٤ حتى كانون الثاني ١٩٢٥.

ثمة، طبعاً، فوارق كبيرة بين الحرس الأحمر والجيش كما بين الانتفاضة والحرب رغم نقاط التشابه الكثيرة. ليس بوسعنا تحضير حرس احمر في الأوقات العادية، بينما الجيش يُجهّز في زمن السلم. وقد يكون من السخرية ان ننظم حرساً أحمر في بلجيكا أو انكلترا او سويسرا. فليس هناك وضع ثوري بل ان الحرس الأحمر قد يستحيل تنظيمه في البلدان التي يوجد فيها وضع ثوري، ولكنه ما يزال في حالة السكون، دون اي من الظروف الضرورية كي يستطيع المتطوعون الهرع وتنظيم انفسهم في تشكيلات حربية حقيقية. وفي بلد حيث تكون هذه التشكيلات غير سرية، يستحدث القليل أو الكثير من أدوات النضال الثوري. وقد يكون غير مجدٍ محاولة تنظيمه اليوم في ايطاليا او في المانيا. فقد كان هذا ممكناً وعلناً في الاستوري حيث كان يوجد منذ ١٩١٨ وضع خاص واستثنائي مطلق

في أوروبا.

ففي البلدان حيث يوجد وضع ثوري في حالة سكون، من حيث الطاقة وليس من حيث الفعل فمن الممكن تهيئة نواة مجلس قيادة فقط، لما قد يصبح في المستقبل الحرس الأحمر. ولدينا كل الامكانات لتشكيل هذه النواة بعناصر سياسية تقنية كفؤة. وخلق بنية من الكوادر. ويجب ان نعتاد على كل القضايا العائدة للانتفاضة: القضايا العسكرية والقضايا السياسية. إذ ان الانتفاضة هي أساساً ودائماً قضية سياسية حتى في مظاهرها العسكرية. ويجب أيضاً التمكن من معرفة ومتابعة كل التنظيم المسلح للدولة. ففي مراكز الهجرة، يمكن ايضا خلق نوىً - نماذج من الحراس الحمر نختارهم وندربهم بشكل ملائم. حتى ولو لم يجعلها استخدامها قابلة للاستخدام بشكل مستقل، فإن كل عضو يستطيع ان يصبح، في المرحلة الانتفاضية قائد نواة.

إن خلق نواة مجلس قيادة في الوقت المناسب، ممكن وضروري. فالانتفاضات المعاصرة اتخذت اتجاهاً عسكرياً غير كافٍ باستثناء «الشوتزبوند» الذي، على أي حال، كان قسم كبير من قادته في السجن، في وقت الانتفاضة الحقيقي. حتى الانتفاضة البلشفية لم تفلت من هذا التقصير رغم انها تُوجت بأكبر انتصار. ويكاد حكم الثلاثي (Triumvirat) تودويسكي (Todwoisky)، وانطونوف - اوسنكو (Antonov-Ossenko)، وتشونوسكي (Tchonosky). يكون غير قادر من الناحية العسكرية. ولا نفهم جيداً ماهية التحضير العسكري، من الناحية النظرية والعملية، الذي كان يتمتع به أول الثلاثة.. فقد كان الثاني ملازماً في المشاة زمن السلم. وكان الثالث يستمدّ شهرته من دورة كان قد قام بها في الجبهة، بصفته محرضاً سياسياً. ومن الكفاءة المتكاتفة للثلاثة، خرجت خطة عمل، فقد نفذوا مناورات حول قصر الشتاء، وكأن هذا القصر ليس قصراً ضلعه ٢٠٠ متر، بل معسكر واسع ومحصن. ولم يكن الهجوم على القصر، المقرر البدء به والانتهاء منه ليل ٢٤ - ٢٥، قد بدأ بعد عند حلول ليل الخامس والعشرين. ومن حظهم ان جميعهم كانوا يعزفون القصر بأنفسهم، وإلا لكان ممكناً، إذا أخطأوا خطأ كبيراً، ان يهاجموا أي مبنى آخر، إذ أن أحداثاً كهذه شائعة في الحرب وحتى بالنسبة لقادة مجربين[1]. وفي موسكو، كان الوضع أسوأ أيضاً، فقد دام القتال ثمانية أيام عوضاً عن

(١) اشتهر الجنرال فيريرو (Ferrero)، وكان في السابق مديراً للمؤسسة الجغرافية العسكرية في فلورنسا، بكونه أحد الرجال الأكثر «طوبوغرافية» في الجيش. ففي حزيران ١٩١٧، وعلى هضبة ازياغو (Asiago) العالية، خلط بين=

ساعة. ولقد حددنا سابقاً النقائص العسكرية لبعض الانتفاضات. فقد كان لانتفاضة الرور (Ruhr) حراس حمر رائعون ولكن بدون قيادة. اما انتفاضة الاستوري فلم يكن لها اية قيادة عسكرية. ولا يمكن خلق القيادة العسكرية بضربة عصا سحرية.

وليس بوسعنا تنظيم الحرس الأحمر جدياً إلا خلال الحقبة التي يزداد فيها الهيجان الشعبي، والتي يدفع الحماس فيها أفضل المقاتلين الى تقديم انفسهم كمقاتلين متطوعين للثورة. في وضع كهذا، قد يُنظم في بضعة أسابيع وحتى أقل. فبالنسبة لانتفاضة الرور، اعتقدوا ان الحراس الحمر قد أعدوا منذ شهور من خلال شبكة كاملة من التشكيلات والتدريبات السرية. وفي الحقيقة لم يكن هناك سوى كوادر تابعة مهيأة للاحتكاك بالجماهير، ان بصفتهم قادة سياسيين او بصفتهم قادة نقابيين. إنما الحرس الأحمر لم يتشكل إلا في الأيام التي تلت انقلاب كاب (Kapp).

وفي روسيا، مرّ التنظيم المسلح للبروليتاريا بمراحل شتى قبل ان يكوّن الحرس الأحمر لأيام اكتوبر. فمنذ انتفاضة شباط، كانت قد تشكلت الجمعيات العمالية، وكان لها وظيفة مشابهة لوظيفة الحرس الوطني المنبثق من الانتفاضات الشعبية للقرن السابق. ولكنها كانت قليلة العدد سيئة التشكيل، وبدون سلاح تقريباً، إذ ان الأسلحة المسروقة من المخازن العسكرية خلال الانتفاضة كانت قد أفلتت من مراقبة المنظمات العمالية. وبعد فشل انتفاضة تموز (التي كانت، على الأصح، تظاهرة عمال وجنود، دون تنظيم جدي وحيث لم يكن يملك السلاح سوى الأفواج) أصبحت الجمعيات العمالية سرية، من أجل الافلات من ملاحقات الشرطة. وتحت تهديد كورنيلوف، تطورت تطوراً غير متوقع وعدّت زهاء الف عامل مسجل. وبموافقة الحكومة، تسلحت وتدربت علناً. بعد هذه الفترة، لم تعد الحكومة تسمح بوجودها ولم يبق من منظماتها، على قيد الحياة، سوى بعض التشكيلات السرية الصغيرة والكوادر. وفي العاشر من اكتوبر، قرر الحزب البلشفي الانتفاضة، وفي الثالث عشر تشكلت بانتظام اللجنة العسكرية الثورية وفي اليوم ذاته، وُضعت فصيلة خاصة من الحراس الحمر الى جانب اللجنة. وهم الحراس الحمر الحقيقيون للانتفاضة. وفي مؤتمر الحراس الحمر في سان بطرسبرغ، في الثاني والعشرين،

=جبلين وأطلق فرقته باتجاه مزرعة، ظناً منه أنها جبل زيبيو (Zebio) الذي كان يبعد عشرة كيلومترات تقريباً. ولكن، من أجل احترام الحقيقة، فإنه بعد بضعة أيام، وبوجود مساهمة مسبقة من قبل أدلاّء ولدوا في المكان نفسه، واستدعوا بإلحاح، ولهم الفضل في ذلك، تمكن الجنرال أخيراً من تحديد مكان الجبل الحقيقي.

حضر ـ حسب أقوال تروتسكي ـ ممثلو ٢٠ الف عضو اسمي. وعلى الأرجح، لم يكن في الانتفاضة سوى ١٠ آلاف عامل مسلح في منظّمات نظامية.

اما في هامبورغ، فقد كانت وحدات المئة العمالية قد بدأت بالتشكل منذ نجاح إضراب آب. وبقدر ما كان الوضع يتوتر، كان عددهم يزداد شيئاً فشيئاً، ولكن مساهمتهم في حركة اكتوبر، كانت غائبة تقريباً، لأن القادة فضلوا العمل مع الـ (V.D.) وهي مجموعات مقاتلة كانت قد اتخذت لنفسها تنظيماً خاصاً للانتفاضة، منذ عدة أشهر، بواسطة كوادر تابعة مهيأة تهيئة عسكرية مهنية كاملة. وفي انتفاضة الاستوري، تشكل الجيش الأحمر خلال العمل، على الجبهة، وكانت المفارز الهجومية الأولى مجموعات مرتجلة من عمال المناجم المتطوعين دون تحضير عسكري مسبق، ولكنهم كانوا لا يخطئون في استخدام الديناميت.

عموماً، كان هذا صحيحاً فإنه لم يكن من الممكن تشكيل حرس أحمر، خاصة عندما لا يبدو صراحة ان استعماله قريب. ولا أحد يميل الى تلقن تدريب وتنظيم لا يقدمان سوى حياة عسكرية سرية في الثكنة، ويصبحان بالتدريج في كل يوم أكثر رتابة وثقلاً.

لكن تشكيل كوادر الحراس الحمر، الذي يحصل قبل التحرك بقليل فقط، فيه من السيئات ما لا مفر منها. فلا يمكن ان تتشكل المنظمة في هدوء الأوقات العادية، ففي آخر لحظة، لا بد من استعجالها. ثمة حشد إذن من غير الأكفّاء، ومن أشخاص مبهمين، وصعوبات في الانضباط والاعداد والتدريب. ولكن عموماً، فإن الأنظمة الرجعية، التي ينبغي على البروليتاريا ان تقود الانتفاضة الشعبية ضدها، وهي أنظمة عسكرية، تقدم بنفسها مع البلد المعسكر الحل لكثير من الصعوبات. إن الأمة الحربية، التي تقدم لنا المانيا وايطاليا الفاشيتان المثال لها، تجبر كل الناس على الخدمة العسكرية وعلى التدريب العسكري. فيعتاد الشبان إذن على انضباط الصفوف وهو عقبة جميع المتطوعين ـ والتحركات بالجماعات، الى جانب التعرف على الأسلحة والتدرب على مصاعب المناورة والقتال.

يتخرج من الطبقات المثقفة الضباط، ومن الطبقات الشعبية، الجنود والرتباء المدربون سابقاً، وكذلك فإن كثيراً من الضباط الذين كانوا قد قادوا، خلال خدمتهم

العسكرية، جماعة او فصيلة، بإمكانهم أن يقودوا في الانتفاضة، مفرزة او سرية او حتى كتيبة. إذن، ستؤمن عسكرية النظام خدمة الشعب الذي فرضت عليه. وسيكون من الممكن الحصول على اختصاصيين ضروريين لجميع الأسلحة الاضافية: مدفعيين، وسدنة رشاشات واخصائيي اشارة، هذا الأمر الذي كان يعتبر الحصول عليهم أحد النواقص الكبرى في الانتفاضات دوماً.

ولا يجب الاعتقاد ان هذا الاعداد التقني العام الذي صنعته الأنظمة الرجعية هو كل شيء. فهو لا يلزم إلا قليلاً إذا لم يتوافر تدريب ثوري، لا سيما لدى الكادرات المتمرسة في النضال السري، في مناخ مستمر من المفاجآت والمخاطر. فهذا ما يشكل القوة الطليعة المسلحة وليس العدد. وقد قدمت لنا سان بطرسبرغ أمثولة رائعة. فمنذ نهاية الحرب الروسية ـ اليابانية وحتى الحرب الكبرى، كانت البروليتاريا في سان بطرسبرغ هي طليعة الحركة العمالية في الامبراطورية. وبعد سنتين من الحرب، هي التي اعطت اشارة التمرد. وفي ١٨ تشرين الأول ١٩١٦، بلغ تأثيرها حداً من الكبر دفع فوجي المشاة اللذين استدعيا ضدها الى اطلاق النار على البوليس وهو عكس ما كُلِّفوا به. وخلال اليوم الأول من انتفاضة شباط ١٩١٧، كانت البروليتاريا في سان بطرسبرغ أول النازلين الى الشارع. وفي تموز أيضاً، كانت البروليتاريا في سان بطرسبرغ، التي ما عادت تطيق التأجيل، هي التي لم تصغ الى نصائح التعقل، وحاولت الهجوم. وفي أيام اكتوبر، هي أيضاً التي بدأت الهجوم وقررت مصائر الثورة. اما موسكو فكانت متأخرة. فعندما تعبأت البروليتاريا فيها ضد الرجعية، ضاعت في التلمُّسات. ومع ذلك، فقد كانت البروليتاريا في موسكو تتمتع بتنظيم نقابي جميل، وكان الوضع العام في المدينة أكثر ملاءمة منه في سان بطرسبرغ. «في موسكو، النصر مؤكد: ليس من احد يستطيع مقاتلتنا. في سان بطرسبرغ، بوسعهم الانتظار». كانت هناك، بالمقابل، حيوية مكونة من شعارات وإضرابات تذكرنا بأكبر المدن الايطالية في ١٩١٩ و١٩٢٠. لذلك مرّ موسوليني على ميلانو كمروره على جيفة، بينما وجد كورنيلوف في سان بطرسبرغ شيئاً أكثر جدية.

لا يمكن أن يصبح المرء ثورياً في يوم واحد. يجب ان ينبثق الحراس الحمر من قلب البلاد ومن آلامها ومعاناتها. وبقدر ما تزداد معاناة هؤلاء الحراس ومجازفتهم، تزداد جرأتهم يوم العمل.

الفصل الخامس عشر

الطليعة المسلحة بالتنظيم

لا يستطيع الحراس الحمر ان يكونوا تنظيماً حزبياً. حتى ولو شكل الذين يتكونـون منهم حزباً وليس حركة ثورية. فالحزب يضبطهم ويؤثر فيهم بالضرورة، ولكنه لن يقوى على مطالبة اعضائه بالولاء لفكره السياسي الخاص. يجب ان يظهر الحراس الحمر كطليعة شعبية وليس كمفرزة حزبية مسلحة. وإلا تقلصت هيبتهم المعنوية وأهميتهم العددية الى حد بعيد. ويجب ان يكون الحرس الأحمر مفتوحاً لكل المتطوعين الذين يطمحون الى القتال، وفق بعض التوجيهات السياسية الاساسية والعامة. كان الحرس الأحمر في انتفاضة اكتوبر يشمل بلشفيين واشتراكيين ثوريين يساريين والى حد بعيد عمالاً غير حزبيين. كذلك كان تكوين الشوتزبوند مزيجاً، رغم اعتباره التنظيم المسلح للحزب الاشتراكي الديموقراطي النمساوي. وكان الحرس الأحمر في انتفاضة الرور مكوناً بشكل خاص من عمال لا حزبيين. في الاستوري كان يشمل اشتراكيين وشيوعيين وفوضويين وغير حزبيين. وحدها ريفال كان لها تشكيلات قتالية حزبية صرفة وكان لانتفاضة هامبورغ مجموعات قتالية من الحزب الشيوعي (O.D.). ولكنها كانت تنظيمات سرية منتقاة بدقة وقليلة العدد: بضع مئات في ريفال وحوالى الألف في هامبورغ. حتى الكوادر يجب ان لا تكون من حزب واحد فقط. وعندما يتطور الحرس الأحمر على اثر النجاحات الأولى، يصبح هو الجيش الشعبي كله، والبلاد، ولكن ليس حزباً. في الجيش السوفياتي الذي هو، على أي حال، من خلق الحزب البلشفي وحده، ثمة حتى اليوم ضباط ومرؤوسون ليسوا مسجلين في الحزب.

ليس الحرس الأحمر تنظيماً سياسياً بل تنظيم عسكري. فهو يلاحق مداورة أهدافاً سياسية، ولكن أهدافه الآنية عسكرية. لذلك عمله عسكري وليس سياسيا. وفي صفوفه، يجب التداول في التقنية الانتفاضية والأسلحة والتدريب وليس في برامج الحزب والعقائد التي تفصل بينها. هذه المواضيع الأخيرة هي تلك التي يملك كل واحد حرية تعميقها، شخصياً ولحسابه الخاص في صفوف التنظيمات السياسية الحزبية. يجب ان تبقى كل المسائل التي قد يختلف فيها بعيدة عن تشكيلات الحراس الحمر. لذلك وفي سبيل تحويل الحرس الأحمر الى وحدة تقنية والمحافظة عليه كذلك، لا بد من ان يبقى دوماً وحدة معنوية. والذين يظهرون في تركيبتها، عوامل تفرقة، يجب ابعادهم. تلك هي شروط مسبقة.

الحراس الحمر هم الجيش الذي يطيع السلطة السياسية. ومن المناسب ان يكون قادتهم الكبار، اعضاء في القيادة السياسية التي يرتبط بها الحراس الحمر. إنما يجب ان يوجد بين المؤسستين تمييز مشابه للذي يوجد بين رئاسة أركان الجيش والسلطة التنفيذية في الدولة الحديثة.

يجب أن يتكون الحرس الأحمر خاصة من الشبان. ففي الانتفاضة كما في الحزب، المقاتلون الأكثر حماساً وشجاعة هم الشباب. فهم لا يجسمون الخطر. لا شيء مستحيل بالنسبة لتنظيمات شبيبية جيدة التأطير. ويجب الحصول على الكثير من الشبان، ليس فقط كمقاتلين بل كقادة. ويجب ان تكون الغالبية العظمى من القادة مكونة من الشباب. ويجب، بشكل دائم وكقاعدة ثابتة، ابعاد هؤلاء «المتقاعدين» الذين لم يقاتلوا او الذين قاتلوا بشكل سيىء في الحرب الأهلية الماضية عن مراكز القيادة. فعند هؤلاء، وبالرغم من النية الحسنة والتصميم العظيم، يسود دوماً التشاؤم وذكرى الهزيمة. إن رجالاً كهؤلاء لا نفع منهم كجنود وهم خطرون كقادة. ان الأقلية المسلحة التي يجب ان تستعد للهجوم، ينبغي ان تُنتقى على أفضل وجه. ويجب ان تسبق النوعية متطلبات العدد. هذا المعيار، يجب ان يوضع في أساس التنظيم. وإلّا، فإنه على الأرجح، لن يستجيب للنداء، وقت التحرك، لا جنوداً ولا قادة.

في انتفاضة الرور، كانت المفارز التي قاتلت بأكبر قدر من الجرأة تتكون من الشباب. وفي الاحصاءات التي أقيمت حول عدد القتلى، كانت الأكثرية من العمال الذين هم دون الخامسة والعشرين. وفي تشكيل الحرس الأحمر في الاستوري، كانت

الكثرة من المتطوعين ما بين سن الثامنة عشرة والخامسة والعشرين. ولكن المقصود كان تطويعاً جرى بعد النجاح الأول للانتفاضة، وكان له بالأحرى طابع التعبئة العامة. في الثلاثين، يصبح العامل مثقلاً بالعائلة. ولا بد، في هذه الظروف، من إيمان سياسي عميق جداً كي يكون مستعداً لبذل حياته طوعاً.

كذلك يتوجب تجنب تشكيل مفارز خاصة مكونة من طلاب وعمال مختارين. فمن أكبر الفوائد توزيع هؤلاء في التشكيلات المشتركة واعطاؤهم مراكز قيادية.

ويجب إبعاد العناصر المتذبذبة والرعاع، بحزم لا تعنّت فيه. ثمة كثير من الناس لا يزالون يعتقدون بسذاجة حقيقية وحس واقعي مزعوم، ان هؤلاء ينفعون كفرق هجومية سيئة. منذ قرن مضى، كان فيلهلم فايتلنغ (W. Weitling)، الخياط الشيوعي الذي نال في زمنه شهرة معينة، قد نقل وطوّر بعض الملامح الضعيفة في مدرسة بلانكي، الـذي كان معجباً به والذي كان قد تبعه مع مهاجرين ألمان آخرين في انتفاضة ١٨٤٩. كان يثق فقط، في الانتفاضة، بالبروليتاريين المتشردين» (Lumpen-prolétariat) وهم بروليتاريون قد يُقارَنون بنمط معين من العاطلين المحترفين والمسرورين، في أيامنا هذه، أو بالذين يسميهم الفوضويـون، بتوريـة فرسيسكـانية، البـروليتاريـة «الخفيفة». أو أيضـاً الذين كانوا، في نابولي البوربونية، يشكلون الجناح اليساري اللامع «للصعاليك» (Lazzaroni) هؤلاء الذين، بقيادة سان جينارو (San Gennaro) أو بإمرة الملك، كانوا مستعدين للقتال من أجل كل القضايا مقابل طبق هزيل من المعكرونة بالبندورة (طمـاطم). الى هؤلاء الرواد الطبيعيين للتقدم، كان فايتلنغ يضيف المجرمين المحترفين. كان على هذه العناصر المتمردة باستمرار ضد المجتمع ان تشكل النخبة المختارة من الطليعة الثورية. وقد يطلق عليهم تسميـات مافيـا وعصـابـة ولصـوص في الأسلوب الأدبي المستلهم من ايـطاليـا الجنوبية.

حتى اليوم، ثمة في خطة كل ثوري جيد مهاجمة السجون والتحرير الفوري لجميع سجناء الحق العام الذين بمجرد احتكاكهم بالحرية الثورية، قد يتطهرون حتماً ويصبحون أبطالاً سياسيين.

في مادة بهذه الحساسية، من المفيد كبح الميول الانسانية. فالمجرمون، بالمعنى المرضي للكلمة، هم متشابهـون في النظام البـورجوازي كـما في النظام الاشتـراكي. ولا بد من

أجيال لتطوير النتاج الأخـلاقي مع البيئـة. واذ ننعش الآمال في رؤ يتهم يتنـاقصون في المستقبل، فلا ننس انهم عديدون في الوقت الحاضر. وخطرون. وقد لا ينقص سوى هذا، إذا كنا، بانتظار تطويع اوسع في الحرس الأحمر، سنُرغم على ضم الذين من بينهم لا يزالون يتهمون أنفسهم علانية. ففي الحرس الأحمر لانتفاضة الرور، هاجمت عناصر مشابهة، في أوقـات فراغهـا، بالسـلاح، صناديق قيـادات المتمردين وضبـاطهم الأكثر أهمية. وفي سبيل كبح جماحهم، كان من الواجب إصدار حكم الاعدام وتنفيذه. ولم يكن ذلك سيئاً بالنسبة للمتطوعين. إن أشباههم الذين تسللوا الى صفوف مقاتلي الأستوري، لم يهتموا إلا بالخراب والنهب أما الآخرون الذين ساهموا في القتال فقد كانوا من أوائـل الهاربين، وتحوّلوا في النهاية الى واشين لا مثيل لحماسهم في ذلك بعد الهزيمة. أما في ايطاليا، فليست ذكرى المحررين من سجن بـونزا (Ponza) والـذين اشتركـوا في الحملة البيسكاكانية من أفضل ما يكون. فلدى أول إشارة خطر، هربوا بأعداد كبيرة وبسرعة هائلة، وذلك برغم الجمود الطويل في حياة الاعتقال التي قضوها. ولدينا أيضا أمثلة أكثر حداثة. ففي فترة ما بعد الحرب، تسرّبت زبدة الرعاع الوطنيين كلها الى الواجهة، إذ ان كل حقبة ثورية تبرز الحثالة التي تولدت في المجتمع والتي تمر بأزمة. محاربون قدامى أم غير ذلك، فقد نفذوا الاجرام السياسي الأكثر نشاطاً، والذي لم يحظ بالنجاح في أحزاب البروليتاريا، نال نصيبه فيما بعد في تشكيلات الألـوية الفـاشية. أبـطال ضد الضعفـاء وجبناء ضد الأقوياء، دائماً دمويون طالما تأمن لهم الافلات من العقاب، وسوف يبقون خالدين في تاريخ المرتزقين السياسيين. ويستطيع فايتلنغ ان يعتبر نفسه راضياً.

من الخطأ ان نعتقد بـأن المجرمـين مقاتلون ممتـازون. وكتاب روجيـه فرسيـل (R. Versel) «النقيب كـونـان» (Le Capitaine Conan) هـو من نسج الخيـال المحض. ففي الحـرب كما في الانتفـاضة، ليست البـطولة من نتـاج الخلل الأخـلاقي. فـالـزقـاقيـون (السفهاء) هم متبجحون بارعون لساناً وسيقاناً.

إن تجنيد المتطوعـين إذن هو عمليـة جادة. وليس الحـراس الحمر التـنظيم الأمثل لاطلاق تجارب اعادة الاعتبار الاجتماعية.

إن سُمِّيت القيادات من فوق او انتخبت من تحت، فلا فارق في التشكيلات الأولى. ولكن اذا اتسع كيان المنظمة، فلا بـد من العودة الى النـظام الأول. إن انتخابيـة القيادات العسكرية، في مفارز متعددة، لم تعطِ نتائج جيدة جداً.

كان الحرس الأحمر في روسيا منظماً على الشكل التالي: الجماعة مؤلفة من ١٢ ـ ١٥ رجلاً، والفصيلة من ٤ جماعات والسرية من ثلاث فصائل، والكتيبة من ثلاث سرايا. كانت الكتيبة إذن تعد كحد أقصى ٥٤٠ رجلاً بما فيهم قادة المفارز.

أما تنظيم الـ (O.D.) في هامبورغ، وقت الانتفاضة، فكانت الجماعة فيه مؤلفة من ثمانية رجال يضاف اليهم القائد، والفصيلة من أربع جماعات يضاف اليها القائد. وكانت السرية إذن مؤلفة من ١٣٣ رجلاً بما فيهم القادة. ويضاف الى ذلك مراسلو الدراجات والدراجات النارية المستخدمون لصالح الارتباط والممرضون والكشافون؛ وهم لا يصلون بمجموعهم الى العشرة.

وكان لدى الشوتزبوند النمساوي جماعة مؤلفة من عشرة رجال، وفصيلة من أربع جماعات وسرية من ثلاث فصائل وكتيبة من أربع سرايا، يضاف اليها المهمات الخاصة.

إن الفرق بين سائر التنظيمات ليس كبيراً.

ويقترح فرناندو دي روزا (F. de Rosa) اثر تجربة الانتفاضة الاسبانية في تشرين الأول ـ اكتوبر وتجربته الشخصية كزعيم لعصابات صغيرة شكلت المقاومة في مدريد، التشكيلة التالية: الجماعة، بأكبر عدد ممكن بشرط ان يمكن قيادتها بالصوت وبالاشارة، ولكن ليس أقلّ من ثمانية رجال وقائد ونائب للقائد. وتتكون الفصيلة من ثلاث جماعات وقائد ونائب قائد وزمرة ارتباط. ويتكون الفوج من ثلاث سرايا وقائد ونائب قائد وجماعة ارتباط. وقد يصبح لدينا إذن جماعة من عشرة رجال والفصيلة من ٣٥ والسرية من ١١٧ والكتيبة من ٣٨٨ بما فيهم القادة ونواب القادة.

إن الضرورة الأساسية التي يجب ان يستلهمها تنظيم المفارز، هي سهولة المناورة. فصعوبة تحريك المفارز خلال المعركة كبيرة جداً حتى ولو كان لتلك المفارز ثقافة مهنية كاملة. ومن لم يشارك في القتال لن يستطيع معرفة الحالة التي توجد فيها المفارز أثناء مسيرات التقرب والانقضاض والقتال. وبعد بضع دقائق، تصبح الفوضى والتشابك والتبعثر شاملة. وتكبر المصاعب بقدر ما يقل تدريب المفارز.

ولن يكون تدريب مفارز الحراس الحمر كافياً، لا في الحقبة التي تسبق الانتفاضة، ولا أثناء الحقبة الانتفاضية حتى ولو كان عناصرهم يتمتعون بتعليم عسكري كامل. وحتى في أفضل الظروف، سينقصهم التجانس وإمكانيات تدريبهم تدريباً جماعياً

والتدريب على المناورات في الريف وفي شوارع المدينة. فلا بد إذن من جعل كل مفرزة أقل ثقلاً قدر الامكان. فجماعة العشرة رجال ثقيلة جداً. وتُفضل عليها جماعة الستة رجال بما فيهم القائد. وفصيلة مكونة من أربع جماعات كل منها مؤلفة من ستة رجال قد تُحرَّك بسهولة اكبر من فصيلة مكونة من ثلاث جماعات في كل منها عشرة رجال. واذا تشكلت الفصائل هكذا (أربع جماعات من ستة رجال) يكون من الأفضل تكوين سرية مؤلفة من أربع فصائل وكتيبة من أربع سرايا.ولكن إذا كان المجموع غير كاف من حيث العدد ـ في هذه الحالة فقط ـ فبوسعنا تكوين فصيلة مؤلفة من ثلاث جماعات وسرية من ثلاث فصائل وكتيبة من ثلاث سرايا. ويصبح لكل جماعة من الجماعات وحتى الكتيبة قائدها الاسمي. ويصبح نائب قائد الجماعة الجندي الأقدم، وبالنسبة للفصيلة، الرتيب الأقدم، وبالنسبة للسرية والكتيبة، الضابط الأقدم في كل منها. ويكفي رجلا ارتباط وممرضان لكل سرية علاوة على الكوادر الثابتة. وتعود مهمة تنظيم مفارز الاختصاصيين الى قادة القطاعات، وفق الامكانات المحلية.

وسيكون التدريب العسكري الانتفاضي ضرورياً أيضاً لهؤلاء المتطوعين الذين أدوا خدمتهم العسكرية سابقاً. فلا يكفي استخدام الأسلحة، بل من المناسب ايضا ان يكون المتطوع على معرفة بشكل الانتفاضة التى تجري خاصة في المدينة بهجمات ضد المباني وحرب الشوارع والقتال في الريف أيضاً. وستكون المفارز المدينية على معرفة بشكل خاص بالقتال في المدينة والمفارز الريفية حول العمل في الريف. ويجب توسيع التدريب التقني الى الانقضاض والدفاع والتقدم والانسحاب والمتاريس والدفاع ضد المدفعية وضد الدبابات الخ، وضد الرشاشات والطائرات الخ. . إن شجاعة المقاتل مرتبطة أيضاً بمستوى تدريبه التقني. فالاندفاع والحماس من شيم الشباب ولكن بعض المتقاعدين يبدون، أحياناً، أكثر شجاعة وإقداماً. ليست شجاعتهم هي التي زادت مع الوقت، بل تجربتهم المهنية والتقنية التي يعرفون كيف يستخرجون منها كل الحسنات. ان جماعة من المحاربين القدامى، مثلاً، ستكون متأكدة من الوصول الى رشاش كامن والاستيلاء عليه. في حين قد تستطيع كتيبة من الشبان غير المجربين الوصول اليه، ولكن بعد هلاك قسم كبير منها.

هناك أيضا مسألة التسلح.

وهذه تتمتع كذلك بأهمية معنوية. لو كان بوسعنا إجراء إحصاء عدد طلقات البنادق

التي أطلقت خلال الحرب الأخيرة، من الأرجح اننا قد نجد جريحاً لكل مليون طلقة. فالجندي يطلق النار للتسلية او بدافع النرفزة او لاكتساب الشجاعة ونادراً على أمل راسخ باصابة هدف. ان الرشاشات والمدافع وحدها فقط التي لا تخطىء بعد تركيزها آليا. هذا في الدفاع. اما في الهجوم فالجندي يكاد لا يطلق النار وبندقيته تساوي عصا. إنما، بدون بندقيته،قد لا يتحرك قيد خطوة.

الوضع لا يختلف في الانتفاضة. يجب ان يكون الحراس الحمر مسلحين بالبنادق والمسدسات والقنابل اليدوية. فالبندقية هي سلاح الانتفاضة. وهي تلزم للهجوم والدفاع، أو كسلاح أبيض او للرماية عن بعد وهي تمنح حاملها الشعور بالقوة او التباهي بها وهذان أمران متشابهان.

ترتبط قضية الحراس الحمر بقضية تسليحهم. فبقدر ما يكثر عددهم، يصبح تسليحهم اكثر صعوبة. كم من الأشخاص الذين يعتقدون ان الأسلحة يجب ان نستولي عليها من العدو او من الثكنات او من المخازن التي نحتلها بالقوة، إنهم يتلفظون بجملة ليس فيها ذكاء من وجهة النظر العملية. إذ انه من اجل الاستيلاء على أسلحة الثكنات والمخازن والمفارز العدوة يلزمنا اسلحة بالذات. وأسلحة حقيقية، أسلحة يدوية لا أسلحة بلاغية. في الحرب، كان ثمة جنرالات يلحون، وهم في الملاجىء العميقة، بأن على المشاة الاستيلاء على الخنادق بأيدٍ فارغة. تلك هي الوسائل ذاتها التي يصدرها الذين كانوا يفكرون بالاستيلاء على الثكنات والمخازن بعبارات عنجهية تفخيمية. كل أملٍ بامكانية الحصول على الأسلحة والذخائر في اللحظة الأخيرة، يشكل خطأً جسيماً. كان بحوزة عمال المناجم في الأستوري كنتالات من الديناميت يستخدمونها كقنابل يدوية، وكانوا ايضا قد سيطروا على بعض مصانع الأسلحة والذخائر. ورغم ذلك، لم يحصلوا على الحد الأدنى مما هو ضروري لتسليح المتمردين. وكان كل لقاء نداء يائساً للحصول على الخرطوش الكافي لبنادقهم.

لن تكون الأسلحة والذخائر قط بالغزارة التي تتطلبها الانتفاضة ولكن لا بد من توفيرها لتشكيلات الحراس الحمر الذين سيبدؤ ون الهجوم. وإذ نتعلق بأمل الحصول عليها في آخر لحظة، لا نوشك فيما بعد، وفي اللحظة الأخيرة على فقدان الأسلحة فقط، بل أيضا الرجال لأن الذين وُعدوا بالأسلحة، سيتخلون عن النضال إذا خاب ظنهم ولم يحصلوا عليها. في هامبورغ كان بحوزة كل جماعة مؤلفة من تسعة رجال بندقية

أو مسدسان، لحظة الهجوم! ولهذا السبب، تراجع ثلث المجموعة عن العمل، بعد أن طالبوا بالأسلحة الموعودة ووجدوا انفسهم دون أسلحة في الوقت الحاسم. وقد يكون من الظلم الكبير لومهم على هذا التصرف. وحده السنجاب يتحرك بأظافره وأسنانه. وهنا كانت المسؤولية كلها تقع على القادة. مع انه حصل كثير من تبذير المال في سبيل هذه الانتفاضة، الى درجة أن القادة كانوا وجدوا بهذه الوسائل، ليس فقط مسدسات بل مدافع، لو كانت لهم عقول يفكرون بها.

لا تسقط الأسلحة من السماء. وقت العمل، سيكون بحوزتنا فقط أسلحة قد عرفنا الحصول عليها في السابق. ويجب على الحراس الحمر ان يشكلوا باكراً، تنظيماً خاصاً للتسلح. فالبحث عن مدافع ورشاشات وأسلحة أخرى معقدة هو وقت ضائع. وقد لا نستطيع ذلك قط، حتى لو كانت لنا وسائل تحريكها وتجميعها في مخازن سرية. أما نقلها فيكشف عنها. ان السلاح الذي من المناسب توقعه في الموعد المضروب هو السلاح الضروري للمشاة الأوائل المهاجمين. فالرمانات المفيدة جداً والتي يجب على كل مقاتل ان يتزود بها، قد تُجهَّز بسهولة. فالشوتزبوند كان يصنعها بنفسه مع فريق من الاختصاصيين. وقد صنعها متمردو الأستوري بواسطة الجيلاتين. ولكننا لا نستطيع صنع البنادق. فالبنادق والمسدسات وذخائر كل منها، يجب الحصول عليها بالاتفاق مع عسكريين يُستخدمون في المصانع والمخازن او بواسطة هجمات مفاجئة مُعدَّة ببراعة، او جزئياً بالشراء.

إن سوق السلاح السرية في أوروبا هي من الاتساع بحيث انه بوسائل ملائمة، لا يكون شراء المسدسات والبنادق أصعب مِن شراء البطاطا. فقضية التمويل هي من مقوّمات اي حركة ثورية.

إن اعتبارات كهذه لا تتعلق إلا بتهيئة الحراس الحمر للعمل الانتفاضي الأول. بعدها تأخذ الانتفاضة، في حال نجاحها، أحجاماً واسعة جداً وتخلق في البلاد تغييرات تقلب الوضع العام برمته. وعندها تظهر قضية تحويل الحرس الأحمر في الانتفاضة الى جيش للثورة. ولأجل ذلك، تُفرض القواعد الشائعة حول تنظيم الجيوش النظامية واستخدامها.

الفصل السادس عشر

الانضباط الثوري

إن المنظمات السياسية والمنظمات العسكرية ولجان الأولى وقادتها ولجان الثانية وقادتها تخلق في الحقبة الثورية تداخلات وتناقضات. فتصبح الخلافات الشخصية، غالباً، نزاعات سياسية وتوصل الخلافات السياسية حتماً الى نزاعات شخصية. وليس من السهل دائماً القول ان كانت هذه ترتبط بتلك او العكس. ولكن نتائج ذلك كارثية دوماً. فخلال انتفاضة الاستوري، حصل في بضعة ايام، استعراض مستمر لأشخاص ولجان. ان ثلاث لجان كثير جداً بالنسبة لانتفاضة، حتى ولو دامت سنة. في انتفاضة الرور اعلنت اللجنة الثانية بأن اللجنة الأولى خائنة. وفي الفوضى التي تلت، دعم ممثلو سائر النزعات السياسية آراءهم بطلقات بندقية. بقدر ما تصبح سفاسف الأمور كبيرة في أوقات التفكك، بالقدر ذاته ترتدي مسائل الأشخاص طابعاً عاطفياً.

إن هذه الظاهرة شائعة أيضاً في الثورات المنتصرة. فالنجاح ايضا يصعد الى الرأس. لقد أفرح موت دانتون كثيراً من الأشخاص، وكذلك موت روبسبيار. لم يكن صراع مصلحتين متناقضتين وحده الذي دفع القادة اليعاقبة الى تصفية القادة الجيرونديين ثم الى التذابح المتبادل؛ بل كان أيضاً الرغبة الملحة في الحفاظ على المركز الأول.

ولم يفلت نابليون هو أيضاً من الغيرة القاتلة. كان، القنصل الأول ثم الامبراطور بثقة جنوده التي لا حد لها، كان معبود الجماهير. ولكن جنرالاته الذين كانوا يتقاتلون ويتبادلون الاتهامات في ما بينهم، اعتبروه مساوياً لهم. حتى انهم تمنوا هزيمته أكثر من مرة،

بدافع من كبريائهم الشخصية المتمادية. هذا ما كان يأمله برنادوت في يينا. ليس ثمة صراع طبقات في هذا البغض الداخلي. وفي ايلو (Eylau)، يناديه أوجيرو (Augerau)، اوجيرو الحملة الايطالية، الماريشال وعضو مجلس الشيوخ الفرنسي، كما يخاطب بائع سمك من ضاحيته في سان أنطوان. في اسلنغ (Essling) ولان (Lannes) قال له الماريشال ودوق مونتيبلّو (Montebello)، وهو الذي تعلّم من نابليون كيف يمشي وكيف يقرأ ويكتب، وكان عندها على شفا الموت، تحدث إذن بصراحة لا جدال فيها، قال له كلاماً عنيفاً وغير ناضج. ثم خانه برنادوت وخانه مارمون (Marnout) وخانه ناي (Ney). وبعد خيانته، يكتب مارمون في مذكراته ان نابليون لم يكن يفهم كلمة في التكتيك. ومن أجل ان يتحرر مورو (Moreau) من عبء ثقيل يجثم فوق معدته، قبل موته بقليل، ردّد بعناد ان نابليون كان فقط رجلاً ساعده الحظ.

كذلك الثورة الروسية لها تعاليمها. كان لينين يتمتع بسلطة لا حد لها: كانت مقدرته تفرض نفسها. رغم ذلك، كان رؤساء الأركان يعتبرونه في السنوات الأخيرة، تقريباً، مثل هؤلاء الأبناء الذين يأملون بفارغ الصبر التخلص من أبيهم الذي يحبونه ربما ولكنه أصبح هرماً ومضجراً. إن من يسميهم تروتسكي الورثة - وعلى أي حال، يجب وضع تروتسكي نفسه بينهم حتى ولو بشكل وهمي وناقص - يقدمون لنا منظراً جميلاً. إن تروتسكي، وستالين، وزينوفييف (Zinoviev)، وكامينيف (Kamenev)، ليس صراع الطبقات هو الذي دفعهم ضد بعضهم البعض، ولا الحتمية الإقتصادية ولا المغالاة في التدقيق التي تميز النظرية الشيوعية. بل انه بالطبع هذا التناقض الأزلي بين البشر، وهو الذي يدفع الانسان ضد الانسان، إذ ان الطموح ليس نتاجاً بورجوازياً ولا نتاجاً أدبياً. فستالين في السلطة. وتروتسكي في المنفى. وزينوفييف وكامينيف في السجن. ومن قدرهم ان ستالين لم تكن له روح روبسبيار الفظة، وإلا لكانت هذه الضحايا الثلاث قد وصلت الى نهاية دانتون وديمولين ذاتها.

وبعكس الرأي الشائع، لا يعدّل النجاح قط من هذه العواطف. ففي الجمهورية الرومانية، كانت النجاحات الأولى في ٣٠ نيسان ضد الجيش الفرنسي هي التي خلقت جحيماً من التناقضات بين غاريبالدي وروزيلي وبيساكان. فالنجاح يحمل في طياته التناقضات وعدم الانضباط أكثر مما نعتقد. فالنصر يمكن ان يبطىء عمل الكوابح الانضباطية كما تفعل الهزيمة. كم وكم رأينا في ايطاليا، في أحزابنا العمالية، في فترة ما

بعد الحرب مباشرة! ففي فترة غير طبيعية، تصعد النجاحات، كل النجاحات، وحتى النجاحات البلاغية ونجاحات المباريات الصوتية، الى رؤوس الضباط وصف الضباط. وقد أتيح للنائب بربيريس (Barberis) في وقت معين أن يأمل في ان يصبح وزيراً للحربية، لأنه لفت الانتباه اليه في البرلمان، من خلال الالحاح الذي كان يُقاطِع به بصرخة: «فليسقط الحرس الملكي». الأمر الذي كان يجعله ساعتئذ كفؤاً في مجال القوات المسلحة. وقد داعب النائب بومباتشي (Bombacci) سراً، حلمه في ان يصبح المفوض الأول للشعب في الجمهورية الجديدة التي هي قيد التشكيل، فقط لأنه كان قد حفظ عن ظهر قلب نظام المجلس، واستطاع اكتشاف خطأ بعض النصابات التي لا بد منها. اما النائب بوتشو (Bucco) الأمي النذل والجبان فقد سمح لنفسه بالاعتقاد بقدرته على تحويل بولونيا (Bologne) التي يمثلها هو الى عاصمة لايطاليا يقابل بها روما الغافلة والمقطوعة الرأس، وذلك بفضل صوت ناخب ضخم فقط. ان النجاح السهل هو الذي خرَّب الى حد كبير الحزب الاشتراكي الايطالي الذي دارت في وسطه وبسرعة مباراة بين أسوأ الموظفين الكبار المغرورين والذين لم يكن يرضيهم شيء.

وعندما يأتي المثل هكذا من فوق، في السلم الهرمي، يكون النزاع عاماً.

حتى الفاشية في ايطاليا والنازية في المانيا، قدمت لنا، في حقبة تنظيمها الثوري امثلة صاخبة عن تناقضات محمومة من هذا النوع، من قبل القادة. ففي المانيا، انتهوا الى القضاء على بعضهم البعض، ومن الصعب القول اذا كان الذين قتلوا يستحقون، لمصلحة البشرية، الحياة اكثر من الذين حافظوا على القيادة الى جانب الحياة. وفي ايطاليا، كان ثمة سيرك من الفاشيات في البلديات والمحافظات والمقاطعات والأمة الخ. الخ. هجمات حقيقية على دفعات، تغطي الواحدة منها الأخرى. ان حمّى القيادة لا تستسلم أمام حمى الذهب. وليس صحيحاً انها تتماثل دائماً. لقد نتف الفاشيون ريش بعضهم البعض، ولم يهدؤوا إلا عندما أراد موسوليني، المنشغل بارهاق الساعات هذا، ان يقيم بنفسه شخصياً، نوعاً من الساعة الشرعية مع تبديل الحرس. وهذا ليس إلا إبادة شرعية ونظامية، تُفرض من فوق لتجنب مذبحة عامة ودائمة في القاعدة.

موسوليني نفسه لم يستطع قط البقاء فوق المعمعة. فقد كان يعلم ان غراندي (Grandi) يعتبره مصروعاً، وبالبو (Balbo)، رجلاً منتهياً، وفاريناتشي (Farinacci) جباناً. ودي فيتشي (De Vecchi)، دي فيتشي دي فال سيسمون، الحمار الوطني، كان

يعتبره أحمق. من الطبيعي ان كلا يعتبر نفسه أجدر ليكون دوتشي الايطاليين. يا لها من أزمنة خالدة! وتغذي الرغبة في الاندفاع والحماسة، لدى أكثر من واحد، شرارة أمل في حصول كارثة أفريقية. تماماً مثل برنادوت في يينا.

يجب على كل حركة سياسية تعمل على التحضير لانتفاضة ما، ان تفكر في الوقت المناسب في إبعاد أخطار هذه المساوىء. ويجب قبل كل شيء تقديم دستور مقبول طوعاً للتنظيم السياسي والعسكري ووضع السلطة في الأساس. ولكن القادة المخولين بالسلطة يجب ان يكونوا قادرين على ممارستها بالشكل الأكمل ولمدة طويلة. هذا هو الشكل الأول للانضباط الواجب فرضه والالحاح في طلبه. فبدون هرمية معروفة بنظاميتها، وبالتالي ذات هيبة، لا جدوى من الحديث عن انضباط ثوري.

وبقدر ما تُفهم هذه السلطة السياسية بشكل أعمق، بقدر ما تفرض نفسها أكثر ودون معارضة. كانت السلطة في انتفاضة اكتوبر في يد السوفياتات وقد أحس بها كل العالم. لم تحصل الانتفاضة ولم تُشن الثورة باسم الحزب البلشفي، بل باسم السوفيات وهي جبهة شعبية يديرها البلشفيون، لا بصفتهم بلشفيين، بل بصفتهم يشكلون اكثرية السوفيات. ولم يكن هؤلاء انضاجاً لمثقفين ولا تنظيماً بيروقراطياً، بل من خلق الجماهير بالذات، التي تمتد جذورها عميقة ومباشرة في حياة المصنع والخندق والحقول، وفي لحظة ذعر ونزاع، في حياة الطبقات القيادية القديمة.

من الصعب الادعاء حالياً كيف سيكون، في سائر البلدان، شكل السيطرة الشعبية في الانتفاضات التي تقودها البروليتاريا. فهل ستكون جمعيات عمالية تكون البروليتاريا وكل الذين يعيشون من عملهم الخاص دون استغلال عمل الآخرين جزءا منها؟ أم تكون مجالس عمالية على نمط التي في ايطاليا؟ ام مجالس نقابات؟ وتحت اي شكل سوف تتجمع أحزاب البروليتاريا الثورية فيما بينها؟ باتفاقات مؤقتة ام بشكل دستوري فدرالي. لم تكن السوفياتات تنظيماً عمالياً بل تنظيماً سياسياً بالأساس. فالى أي حد، ستكون المؤسسات المماثلة في الثورة المقبلة كذلك حتى التعابير لها أهميتها في علم النفس الثوري، وليس ثمة أغبى من نسخة طبق الأصل عن مؤسسات البلدان الأخرى. كانت تسمية مفوضي الشعب، مثلاً، تسمية ناجحة بالنسبة للثورة الروسية. وقد لا تكون الحالة مشابهة أبداً في ايطاليا، حيث يُذكِّر المفوض بما هو ملكي او إداري، او بمفوض الأمن العام وهو أكثر بشاعة. ولكن ليس الاسم هو الذي يهم بل الأهم هو المضمون.

ومن الأرجح انه، على غرار السوفيات، سيلد الابداع الشعبي العفوي، كما حصل في سنوات ١٩٠٥ و١٩١٧ في روسيا، وفي سائر البلدان خلال أزمة سياسية حادة جداً، ومن الشعب نفسه، وبصورة عفوية ومعبرة، التمثيل الثوري الضروري مع التعابير الخاصة به والميزات التي يختص بها.

ولا يجب ان يفهم الانضباط على طريقة عرفاء الامبراطورية النمساوية فالانضباط الثوري، حتى انضباط الطليعة المسلحة هو انضباط سياسي، قبل كل شيء. فيتوجب استلهام كل عمل من مضمون التوجيهات التي يحددها القادة. وليس إلغاء فردية كل واحد فقط، بل كل فردية من أجل مساهمة أكبر في القضية المشتركة. وعدم الاطاعة بشكل ظاهري وشكلي صرف، بل تفسير الأوامر وفق الروح التي اطلقت بها والتصرف على هذا الأساس حتى ولو كان ذلك يشتمل على مخاطر كبرى. وتفضيل نجاح أكثر بطأ ومنفعة على نجاح سهل ومباشر وعابر. ذلك هو الانضباط السياسي. ومن يخربه بالكلام او بالأعمال، أكان جندياً ام قائداً، يجب فضحه. ويجب القضاء على التناقضات من أساسها وبدون توان لأنها تسبب الاضطرابات.

والى جانب هذا، ثمة أيضاً انضباط عسكري حقيقي. ان الطليعة المسلحة التي تتشكل لتدمير قوى الدفاع لدى الدولة، يجب ان تتمتع بانضباط فائق. ومجموعات المتطوعين لم تشتهر قط بهذه الخصائص. ومن الصعب احتواؤهم بعد الفشل ومن الصعب احتواؤهم كذلك بعد النجاح، فإنهم غالباً ما يصبحون ضحايا الذعر أو ضحايا الحماس.

ليس المقصود هنا معرفة ما إذا كان يُسمح لنا بتدخين الغليون ام لا خلال الخدمة، او إذا كان علينا القاء التحية بأصابع ممدودة جيداً، بل جوهر الانضباط، بصفته عادة أخلاقية، لا يُكتسب في يوم واحد. ان نكون منضبطين لا يعني السكوت تجاه أي أمر، والعمل على أساس ان المسؤولية تقع دائماً على الذي يأمر، الى درجة انه لا يعود بوسعنا المخاطرة بأنفسنا؛ بل يعني معرفة كيف نتحمل هذه المسؤوليات بأنفسنا في سبيل تنفيذ ما هو مطلوب وتنفيذه دائماً بروح الأوامر المعطاة. وهذا لا يعني ايضا ان نقول نعم آليا، بل المشاركة في خطط القيادة وعمل كل ما هو ممكن في سبيل مساندتهم. إذن لا وجود لطاعة سلبية، بل ذكية ونشيطة. كل مبادرة هي مفيدة إذا كانت مظهراً لارادة شخصية تعمل باتجاه خطط القيادة. وهي خطرة، حتى ولو كانت بطولية، إذا تعارضت مع تلك الخطط.

إن الاطاعة صعبة في الأنتفاضة. إذ ان المقصود هو العمل بمواجهة العدو، وبالرغم من العدو، وسط مخاطر وظروف غير مرتقبة. وحده التدريب الملائم هـو الذي يُكسب عادة الطاعة العسكرية. لذلك، فان قضية الانضباط اساسية، الانضباط الذي نفهمـه وسيلة لا هدفاً وإلا، فإننا نصنع دمى متحركة، ولا نربي مقاتلين ثوريين.

القضية إذن هي قضية كـوادر. وانضباط المفـارز مرتبط بقيمـة القادة الشخصيـة. فالمفارز ذات الانضباط الكامل تتوافق مع قادة قادرين، وتكون المفارز بالتالي فعالة؛ بينما القادة الضعفاء تتوافق معهم مفارز مفككة. تلك هي الحقيقة الدائمة، في الحـرب وفي الأنتفاضة. يقول فوش وهو يعلق على سلوك الفيلق الخامس الذي سبب بقلة انضباطه هزيمة فريشفيلر (Frieschwiller) في آب ١٨٧٠: «المسؤول الحقيقي هو الفيلق الخامس، إذا شبهنا القائد بالجنود؛ وبالعكس، إذا حكمنا، كما هي الحقيقة، ان القادة هم الذين يخسرون الحرب او يربحونها وليس الجنود، فحكمنا خاطىء». وأكد ستالين بعـد تجربـة ثـورية دامت ١٥ سنـة، ومـرت في أصعب الـظروف، وهـو يتكلم عن ضبـاط الجيش السوفياتي: «الكوادر هي التي تقرر كل شيء».

فالجنود هم على صورة قادتهم كما الجماهير على صورة قادتها.

ويحتل المثقفون حيزاً أساسياً في تكوين الكادرات. فاسهامهم لا بد منـه. وبدونهم قد تعود البروليتاريا الى السقوط في العبودية، حتى ولو كانت منتصـرة. ولكنه صحيـح ايضا انهم هم الأكثر خروجاً عما يتطلبه الانضباط الضروري. إذ ان أكثرية المثقفين لا يزالون يعتبرون انفسهم نوعاً من الارستقراطية المحظوظة أعطيت حق الحيـاة في اجواء الأولمب. ففي خطيئة الادعاء هذا، ثمة شيء يذكر بالسان سيمونية التي اعتبرت المثقفين طبقة مميزة جداً عن سائر الطبقات، مهيأة من خلال استقلالها الخاص، لقيادة البشريـة نحو التقدم.

اليوم، لا يشكل المثقفون لا طبقة ولا فئة مستقلة لها مظهرها الخاص. فالمثقفون مبعثرون دون نظام، البعض منهم منطو على ذاتـه، وآخرون يشكلون دعمـاً للأنـظمة البورجوازية، والبعض يقف الى جانب البروليتاريا. إن المثقف النموذجي لبدايات القرن التاسع عشر لم يعد له قوام. كان أوين (Owen) وكابيت (Cabet) يؤمنان بالغاء الاستعباد الاقتصادي والسياسي والروحي للجماهير، وبتحويـل المجتمع الـذي قد ينجم عنـه، بفضل عمل المربين الحكماء والخيِّرين ـ وباختصار المثقفين ـ الطليعة المنورة الوحيدة. وقد

استعاد كاتب ايطالي هذا الطرح، فعزا الى من هم «خارج الطبقات» المنبثقين من الطبقات الوسطى او الطبقات المثقفة، فضل رؤية الخير والشر، بفعل كونها في قلب المعمعة وفوقها. لهم إذن الحق، في ان يصبحوا قادة المجتمع المتحول. وقبل ذلك ببضعة آلاف من السنين، كان كونفوشيوس الذي كان، كما يقول ماركس، اشتراكياً طوباوياً في تلك الأزمنة البعيدة، يعزو الفضائل للمتعلم، الذي يستطيع وحده ان يرى العالم بعينين مفتوحتين.

لسوء الحظ، ليس ثمة مربون حكماء ولا خيرون حكماء ولا حكماء خارج الطبقات، ولا حكماء متعلمون ولا حكماء مثقفون. فلقد سار اساتذة الجامعات في الأزمنة الحديثة، وهم الذين قد يشكلون حتماً كتيبة الحكمة المطلقة الغالية عند كونفوشيوس وأتباعه، في مسيرة البشرية نحو الخلف. فلقد أفلست الحكمة المبرأة في ايطاليا. وعلى رأسها المربون والفلاسفة.

باختصار، ليتخلَّ المثقف عن الكرامة التي تأتيه من الحكمة المزعومة وليتخذ موقفاً. إما مع الحرية او ضد الحرية. إما مع الشعب او ضد الشعب. فهو يشعر بنفسه الى جانب البورجوازية والرجعية بأنه بورجوازي ورجعي، وعندئذ تنتقل صفته كمثقف الى الأفضلية الثانية. وهو الى جانب البروليتاريا، يصبح بروليتارياً ويعتنق قضيتها ويتحدث كبروليتاري لا كمثقف. اما الفئة الوسيطة اي فئة المثقفين الذين هم لا مع هؤلاء ولا مع أولئك، المتذبذبون في رأيهم، فهم شياطين مساكين ذوو طبع هادىء، ينتهون عامة بالاستقرار، والقبول بالحلول التي تقدم قليلاً من الظل تحت الشمس. او انهم منعزلون متكبرون ورائعون، اي نوع من الكهول العازبين الذين بقوا كذلك بدافع كرههم لما ورائية الزواج.

ولكن، كم منهم الذي وقف الى جانب القضية الشعبية، وتوجب عليه قبول ارادتها وانضباطها، وأصبح ثورياً(١).

---

(١) في روسيا القيصرية، انتهت «الانتلجنسيا» وهي «النخبة» الشريفة والمحدودة من الارستقراطية، وطبقة صغار النبلاء الريفيين، واوساط ضباط الجيش والبورجوازية المثقفة، بعد ان حاولت عبثاً، وبشكل مستقل، إن تقلب الحكم المطلق، انتهت الى تقديم الكوادر للثورة العمالية والفلاحية.

الفصل السابع عشر

الانتفاضة والجيش

ينبغي على الحراس الحمر الذين عليهم بدء الهجوم ضد القوات المسلحة للدولة، ان يعملوا كل شيء من أجل تفتيتها وكسبها لقضية الثورة. إن عملاً دعائياً كهذا، يتطلب إعداداً خاصا يجب ان تقوده عناصر أكفاء من الحراس الحمر. ويجب ان يكون هذا العمل سياسياً بصورة خاصة. اما توجيه الدعاية على أساس مطالب الراتب والاطعام المشترك وكأن الجنود عليهم ان يمضوا كل حياتهم في الكثنة، فهو ذو فعالية ضعيفة من الناحية العملية. وقد يكون هذا النظام قد أعطى بعض النتائج في الصين، حيث يبدو انه مورس، ولكن ليس في الجيوش الأوروبية. ان يتمرد فوج كي يتمكن من الحصول على اكثر بقليل من مئتي غرام من البطاطا يومياً، او حتى من اللحم، أمر مستبعد جداً. صحيح لو اكتفينا بما قدمه لنا فيلم «الطرّاد بوتمكين» في السينما، فلقد تمرد البحارة لأنهم كانوا متعبين من أكل اللحم الفاسد. ولكن يجب ان لا نعمم ذلك. ان نثق جدّياً بتمرد ذي طابع مطبخي، حتىّ ولو أعلن الانكشاريون عصيانهم بقلب القِدر، فان هذا يعني جهلناً بعلم النفس البشري. وهذا يمتاز ببساطة ووضوح دائمين، في مجالُ الحياة والموت. إذا تمرد عسكري، فانه يصبح على شفا ان يُعدم رمياً بالرصاص. ويوشك، إذن، ان يعرِّض معدته لخطر أكبر من الخطر الذي قد يتعرض له إذا واصل تحمل الاقتناع بحصة أدنى من البطاطا أو اللحم. قد تبدو الحجة نثرية، إنما في هذا الموضوع، الشعر له مكان ثانوي ـ هذا إذا كان ثمة شعر في مجازفة المرء بحياته في سبيل مئتي غرام من الطعام. لقد تمردت مفارز بكاملها، زمن الحرب، إنما دائماً على أمل تجنب

مأساة راهنة أكيدة، والتعرض لخطر مأساة محتملة مقبلة وغير مؤكدة، مثلاً تجنب هجوم ضد خنادق تحميها رشاشات وأسلاك شائكة لم يمسها أحد. ليس ثمة مثال على عصيان من أجل زيادةالتموين اليومي أو لأسباب أخرى مشابهة. فالمطالبة، كما تفعل بعض الأحزاب الثورية، بالغاء الحياة الاجبارية في الثكنة، والعقوبات الجماعية، وتقديم التحية الاجبارية، او المطالبة بحق ارتداء الثياب المدنية، او الاشتراك في صحف مخربة[1] الخ. الخ، تعني توجيه الدعاية نحو السخرية. إن الحقبة التي كان فيها العسكري مجبراً على الخدمة الاجبارية لمدة عشر سنوات تقريباً، قد ولّت. واليوم، لا يمكث المون العادي سوى بضعة شهور في خدمة العلم. ويبقى عندها المواطن ـ العامل والفلاح والحرفي والموظف الخ، مهتماً بالمهنة او الحرفة التي سيعود اليها بعد مدة، والتي سوف تثبت الظروف الاجتماعية لوجوده الأكمل، أكثر مما يهتم بسلسلة من القيود العابرة. وسيكون عندها، أكثر تأثراً بدعاية سياسية جدية قادرة على تعميق بحث القهر الرأسمالي بحق الطبقات الكادحة، وإظهار طريق التحرر، منه بسخافات تململ محدود في الثكنة.

غير أنه لا ينبغي علينا ان نتوهم قط حول النتائج التي يمكن لدعاية كهذه ان تعطيها في الأوقات العادية. ففي البلدان، حيث يوجد وضع ثوري، اي فقط في البلدان التي يمكن فيها تشكيل حرس أحمر وخوض حملة تفكيك على القوات المسلحة للدولة، ليس بوسع أية محاولة للتأثير بهذه القوات ان تكون فعالة إلا في الحقبة التي تصبح فيها الأزمة السياسية اكثر حدة فقط. ان حقب التدريب تتساوى مع حقب الهدوء في البلدان التي تعيش وضعاً سياسياً يمتاز بحريات ديموقراطية عادية. ففي حقب كهذه، يكون للثكنات، اي مراكز الحياة العسكرية للشبيبة، الاحساس ذاته الذي يكون لسائر الأمة. فإذا كانت الأمة بلا إحساس، تكون الشبيبة كذلك إذ انها ليست سوى قطعة مسلوخة من الأمة. فأثناء السنوات العشر الأخيرة، لم تكن إمكانيات الدعاية الثورية في الجيش الايطالي، مثلاً، أفضل من تلك التي ربما حصل عليها حزب ثوري خيالي في انكلترا، لو حاول التأثير بالجيش. ويجب تصحيح رأي شائع آخر. يعتقد العامة ان ضباط الجيش

---

(١) هذه المطالب ومطالب أخرى من النسق ذاته، تشملها طروحات المؤتمر السادس للأممية الشيوعية. ان يتمكن الفوج مثلاً من التظاهر لالغاء الخدمة الاجبارية قد يثبت انه بلغ مرحلة من التفكك حيث يريدون ايصاله بالاضطرابات وقد يصبح التململ غير مجدٍ. او قد يتوجب توجيهه نحو أهداف اكثر جدية.

هم رجال شرطة أشرار، وأنه بإمكاننا تحريض الجنود، ضحاياهم، ضدهم. ان أفضل الجيوش الأوروبية ومنها الجيش الايطالي، لديها، عامة، ضباط ممتازون يعرفون كيف يجتذبون تقدير جنودهم ومودتهم. ومن السهل عليهم اذن خلق جو ملائم لنظام انضباطي مكوّن من طبيب العلاقات ان لم يكن لصوفية عسكرية. ان محاولة زرع البغض بين الجنود والضباط في اوقات عادية هي وقت ضائع. فآلية التنظيم والحياة العسكرية واقع أكثر جدية من الواقع الذي يستطيع الأناس العاديون تصوره.

في الأوقات الثورية، يختلف الوضع. فعندما يكون الشعب في مرحلة اختمار، حتى ولو لم يكن للجيش أعذار مستقلة تدفعه الى التمرد، كما يحدث وقت الحرب، فإن العسكريين يتحركون بنفس المشاعر. عندها يكون العمل السياسي في المفارز ذا فعالية كبيرة. فالجنود بغالبيتهم، فلاحون وعمال، ليس بوسعهم البقاء غرباء عن روح البلاد. عندها يأتي وقت التململ الثوري الكبير المبني على أسباب عاطفية وسياسية وليس على مطالب املاء القصعات.

لم تعد الجيوش الحالية مثل جيوش الدول السلالية حتى القرن الثامن عشر، نوعاً من ملكية فردية؛ فمنذ الثورة الفرنسية بدأت الجيوش الأوروبية بالتحول الى تشكيلات وطنية كبيرة. إن متطلبات الحرب الحديثة طورت التجنيد الشامل بحيث لا يستطيع أحد الافلات منه. واليوم، الجيش هو الجماهير. واذا وقعت التعبئة العامة او تعبئة عدة طبقات، يكون الجيش هو الجماهير بالطموحات ذاتها والوعي ذاته وفراغ الصبر نفسه. عندها يسرع التاريخ في خطاه. ويقف الجيش في طليعة الثورة. وتنهار الأنظمة المعادية للشعب مثل بيوت قديمة بالية. هذا ما حدث في روسيا طوال سنة ١٩١٧. وخلال لحظة أيضاً في الامبراطوريتين الأوروبيتين الكبيرتين الأخريين.

«جمع مضطرب، يحمل الأعلام الحمراء، يظهر الى أقصى الجسر الذي يقع على الضفة اليمنى لنهر نيفا، بينما يهرع فوج من الجهة الثانية. يبدو ان ثمة صدمة توشك أن تحدث. وبالعكس، تمتزج الكتلتان ويتآخى الجيش مع الثورة!» هكذا يصف موريس باليولوغ (M. Paléologue) الواقعة الأولى في ثورة شباط على جسر الكسندر الذي يُشاهد من غرفة في السفارة. الجماهير الآتية من الضفة اليمنى هم عمال حي فيبورغ (Wyborg)؛ أما الأخرى فهي فوج الحرس فولينيا (Volynia).

ورأى السفير أكثر وأسوأ في قصر بوتمكين. «كان القوزاق يسيرون على رأس الموكب، فرساناً عظاماً، الصفوة الخالصة الخ. الخ. النخبة المتعجرفة والمحظوظة من الحرس الامبراطوري. ثم كان يأتي فوج جلالته، الجوقة المقدسة المجندة والمختارة من بين أفواج الحرس جميعها، والمخصص سلفاً لتأمين الحماية الشخصية للحاكم المطلق. ثم يأتي فوج السكك الحديدية التابع لصاحب الجلالة الذي كان مكلفاً بقيادة القطارات القيصرية والسهر على سلامة القياصرة المسافرين. وكان الموكب ينتهي بشرطة القصور الامبراطورية، أذيال مختارة مولجة سلفاً بالمراقبة الداخلية للقصور الامبراطورية يشاركون بهذا الشكل في الحياة اليومية والحياة الخاصة والعائلية لسادتهم وكلهم قدموا ولاءهم للعهد الجديد الذي لا يعرفون حتى اسمه...» كان لدى السفير الجمهوري إمكانية رؤية كتائب ضاحية سان انطوان وضاحية سان مارسيل في ١٧٩٢، «مشهد محزن وحادثة مخجلة» يا لها من زوبعة ـ لم يعد للنظام مدافعون عنه.

في وزارة الخارجية، يرافق السفير أثيوبيٌّ أسود، وهو أحد خدم الامبراطور والدموع في عينيه. لم يقل أحد إن جمهورياً يجب ان يبقى دائم اللامبالاة. «أعطه بعض كلمات المواساة ومصافحة يد» لا شيء يثير الشفقة أكثر من رؤية الأثيوبي الأسود والسفير الفرنسي، يتصافحان متضامنين في الألم والحسرة، على أفق الثورة الروسية.

وأعطى الجيش المتمرد ايقاعاً هائلاً للثورة. لا يمكننا تصور انتفاضة اكتوبر دون الجيش. وما نقوله بالنسبة للجيش يصح كذلك بالنسبة للبحرية.

لا أحد يستطيع التفكير برؤية الظروف الروسية عام ١٩١٧ تتكرر، غير ان الجيوش، حتى ولو كانت مختصرة العدد أكثر، لن تستطيع قط الافلات من تأثير الرأي العام. فقد شكلت جيوش المانيا وبلغاريا والنمسا كتلة واحدة في مواجهة الانتفاضات الشعبية لأنها كانت جيوشاً مرتزقة مجندة طوعاً ولأمد بعيد. مجموعات صغيرة من الرجال جُنّدوا من بين الرجعيين او المعوزين السعداء بخدمة مأجورة، وكان ذلك حظوة، سُلخت تماماً عن الحياة الشعبية. لذلك فقد تصرفوا دائماً بوحشية مع الشعب الذي تمردوا ضده. ولكن حتى فيما بينهم، فقد حصلت انتفاضات جدية. ففي انتفاضة اكتوبر ١٩٢٣ كذلك في سائر الجيوش، وحتى بين تلك التي أشادت التقارير الرسمية بولائها، فتحت الانتفاضة الشعبية اكثر من ثغرة فيها.

وفي اسبانيا؛ أثناء انتفاضة ١٩٣٤، حصلت اكثر من انتفاضة في الطيران. وفي برشلونة واوفيادو، حافظت الحاميات على موقف صارم تجاه المتمردين، ولكن ذلك كان مرده الى الرخاوة والحيرة والعجز التي تصرف بها المتمردون او لم يتصرفوا. كيف كان باستطاعة الجنود، في برشلونة، ان يتضامنوا مع المتمردين، إذا كان المتمردون انفسهم يخافون التمرد ؟ هل نستطيع الزعم أبداً ان الجيش ينضم الى انتفاضة لا يثق أصحابها انفسهم بنجاحها ؟ إن الذين يتهمون الجنرال باتيت (Patet) بتحميله مسؤولية فشل الانتفاضة هم من أنصار «البرونونسيامنتوس» (Pronunciamentos)، الذين كانوا يلحون على ان تكون الانتفاضات الشعبية بقيادة قادة الفرق والفيالق. لقد تصرف الجنرال باتيت المرتبط بحكومة مدريد، لا بولاية كتالونيا، كجندي لا كمحلف. فكعسكري، كان كاملاً. ولو كان على رأس الانتفاضة في كتالونيا او في الأستوري، قائد مثله، لكانت حكومة ليرو - جيل روبلز (Lerroux-Gil Robles) تعرضت لمخاطر جدية. فبقرار غير اعتيادي انتقل الى الهجوم في حين كان بوسعه ان يبقى مدافعاً. وعلى غرار حامية اوفيادو، كان بإمكانه التمترس والانتظار. فبرؤية سريعة لعجز العدو قلب الموقف فانهار جيش المتمردين مثل جيش كسركسيس (Xerxès).

وفي اوفيادو، كيف كان بوسع الحامية ان تفكر بالانتقال الى جانب المتمردين، إذا كانوا هم لا يعرفون بأنهم كانوا متمردين ؟ وبقيت البروليتاريا في عاصمة الأستوري ثلاثة أيام تدور في الشوارع، بانتظار ان يسحب عمال المناجم في المنطقة الكستناء من النار لاعطائها لمواطنيهم المستحقين. في هذه الظروف، تستولي الحامية العسكرية على أهم المباني، وتنتظر الدعم الذي لن تتأخر الحكومة في إرساله. وفي الانتظار، يسمح عناصر الحامية لأنفسهم ببعض الفكاهات، مثل الحملة على الصحيفة العمالية «افانس» (الى الأمام) أو «بيت الشعب» مع حريق صغير. وتجاه سلبية المدينة، يلعب قادة الحامية دور من لا يُقهر. غير انه يكفي ان يظهر عمال المناجم، النازلون الى المدينة، حول ثكنة بيلايو (Pelayo)، كي يفكر الـ ٨٩٠ عسكريا، المنسحبين اليها بما فيهم الضباط، بالانتقال الى جانب المتمردين، ان الجنرال أوبيز اوشوا (Opez Ochoa) هو الذي يؤكد ذلك. ويقدم مصنع الأسلحة مقاومة سطحية. وكانت الحكومة مصيبة جداً بالاهتمام بالتأثير الذي قد يمارس على الجيش. فالطراد «ليبرتاد Libertad» يتمرد. ويُرسل اى اوفيادو الفوج الثالث الأجنبي والقطعات المراكشية، ليس لأن الحكومة تريد لعب دور دموي وتطالب بالمذابح، بل لأنها تخشى مفارز الجيش الوطني.

إن الجيوش الوطنية مجهولة بالنسبة للحكومات الرجعية.

إنما في الأوقات الهادئة، لا يمكننا ان ننظم فيه سوى نوى صغيرة تكون قادرة، في الوقت المناسب، على اقامة الارتباط بين المتمردين والمفارز. ويعتبر هذا إنجازا عظيماً. كما يعتبر عملاً شبه مستحيل في أوساط الضباط. ففي أوساط الضباط العاملين او الاحتياطيين، يمكننا فقط كسب بعض المنعزلين، الذين سيلزمون فقط في تقديم خدمة اعلامية. أما بين الجنود فالعملية أقل صعوبة. والمهم ان نفتش عن عناصر قادرة اتخاذ المبادرة ومهيأة سياسياً. وعندما تقترب ساعة الانتفاضة، بإمكان هؤلاء تقديم خدمات جلّى. وعندها يجب ان يكون العمل حاسماً كي يكسب المفارز. لقد أرسل شيوعيو ريفال تسعة رجال من الكتيبة الثانية للمتمردين لاقناع كتيبة المشاة العاشرة كي تتضامن معهم. كانت الكتيبة مستعدة جيداً. وكان الرجال التسعة عمالاً مجهولين ودون سلطة. وكان وجودهم إكثر ضرراً مما هو نافع. فالبلشفيون تصرفوا بشكل مختلف تماماً في اكتوبر، ليكسبوا المفارز التي كانت لا تزال معادية والموجودة في قلعة القديسين بطرس وبولس وفي اجتماع لكل قوى القلعة، في ٢٣ تشرين الأول - أكتوبر، بعثت اللجنة العسكرية الثورية تروتسكي رئيس سوفيات سان بطرسبرغ، الرجل الثاني بعد لينين، والبارز جماهيرياً، والذي كان يتمتع بسلطة وتأثير هائلين وسط جنود العاصمة. كان ثمة مجازفة وورقة تُلعب. فقد دخل تروتسكي دون سلاح معسكر الأعداء. لكن طالع محرض الجماهير فرض نفسه واعلنت كل المفارز التي كانت لا تزال حيادية او معادية وقوفها الى جانب السوفيات واللجنة العسكرية الثورية. وأرسل تروتسكي نفسه في اليوم التالي لاقناع كتيبة الدراجات النارية التي كانت قد وقفت على الحياد، عازلاً نفسه عن اجتماع الثالث والعشرين. وانتقل جنود الدراجات النارية ايضا الى جانب السوفيات. ولو كان كومباني في برشلونة، قائداً ثورياً، ولو تجرأ، بدل ان يحاول اقناع الجنرال باتيت بالهاتف، لكان نزل بثقل هيبته الكاملة، وتجرأ على مخاطبة الجنود في الثكنات. ومن الراجح جداً أن الجنرال كان سيجد نفسه بلا فرقة وذلك كما وجد قائد قلعة القديسين بطرس وبولس نفسه بدون قوزاق وبدون جنود الدراجات النارية. في برشلونة، لم يكن الوضع بالنسبة لليسار الكتالوني أقل ملاءمة بكثير مما كان عليه الوضع بالنسبة للبلشفيين في العاصمة في اكتوبر تشرين الأول ١٩١٧. فالجيش كان الى جانب الانضباط، ولكنه كان يقاتل على مضض انتفاضة شعبية.

لا يجب الاعتقاد أنه اذا بقي الجيش متماسكاً ومعادياً فان الانتفاضة تصبح

مستحيلة. لقد أسقطت الحرب الى الأبد أسطورة ان الجيش لا يقهر رغم كل مدفعيته المساندة. ان أصغر مقاومة تكفي لايقاف مجموعات مهمة لمدة طويلة من الوقت. ولا ينبغي ان يعتقد المتمردون انهم بمواجهة جنود محترفين يعتبرون الانتفاضة العوبة. فالانتفاضة هي، بالعكس، شيء جديد بالنسبة للجنود وللمتمردين. حتى انه من المحتمل أن تكون بلبلة الجنود أكثر من المتمردين لأنهم يلاحظون لأول مرة ان حرب الثكنات والأنظمة تختلف تماماً عن تلك التي تحدث جدياً في الشوارع وسط سكان معادين. وإذا أمّن الوقت الظروف الموضوعية والذاتية الملائمة للانتفاضة فالجيش لن يستطيع ايقافها. لقد تجرأ سكان ميلانو في سنة ١٨٤٨ على مهاجمة الجيش النمساوي الانضباطي ذي الكوادر الجيدة والذي كان يقوده احد أفضل جنرالات الامبراطورية. وهزمه في شوارع المدينة والحق به خسائر بلغت اربعة آلاف قتيل وأجبره على الانسحاب من ميلانو ولومبارديا. كان رسول رادتسكي يقول قبل ذلك بقليل الى قادة المتمردين: «كيف تريدون، ايها السادة، ان ينسحب مارشال بخيالته ومدفعيته امام مواطنين؟». ومع ذلك اضطر الى الانسحاب بخيالته ومدفعيته. لقد استولت مجموعة لوتشيانو منارا (Luciano Manara) المسلحة بالعصي فقط على بورناروزا التي كان يدافع عنها ٢٠٠٠ رجل وستة مدافع، وذلك بواسطة حواجز طيارة مكونة من رزم مستديرة. وقد كانت نفحة بطولية قد اجتاحت المدينة، وعندما كان أحدهم يطل برأسه من النافذة، كان الشعب يصرخ فيه ان مكان الرجال في الشارع.

كان الشبان يخرجون من كل مكان حاملين مسدسات وسيوفا وعصيا.

في انتفاضة الرور سنة ١٩٢٠، كان الرايخشفير (الجيش) قد بقي متلاحماً ضد الجماهير العمالية المتمردة. ولم يُذكر اي مثل واحد عن اخلال بالواجب. ومع ذلك كان المتمردون هم الأسياد، خلال شهر تقريباً، في وستفاليا ـ وريناني. وقد استولى الجيش الأحمر بانقضاض على دورتموند فاضطرت الى الاستسلام. أما الفوج الأكثر كرهاً من الرايخشفير وكان بقيادة الجنرال لوتزوق وهو من إحدى فرقنا، فرغم كل نصائح الحذر، هوجم من قبل عمال وستفاليا وهُزم. ثم اضطر الى الانسحاب بعد أن تكبد خسائر فادحة وترك للمتمردين ١٥٠٠ سجين. واحتلت ايسّن التي كانت حاميتها تملك كل الوسائل الحديثة للدفاع، ! بعد قتال دام. واضطر الرايخشفير الى الاستسلام. وبعد ان طُرد من المراكز الرئيسية، وتمت السيطرة عليه تماماً، أصبح عاجزاً عن كبح جماح الحرب

الأهلية التي كانت تمتد بعنف متزايد بين الراين والرور. ولم يكن بوسعه الخلاص إلا بالانسحاب العام. ولقد حدث ذلك فعلاً، فانسحب من دسلدورف وايسّن ليتجمع في فيسل. وقد انقذ تفوق الكوادر الرايخشڤير الذي استطاع الحفاظ على التشكيلة القتالية خلال المسيرة بكاملها ولم يفقد سوى بعض المدافع وزهاء مئة رشاش وبضعة آلاف من البنادق. كان أهم قادة المتمردين العسكريين رجالاً عاجزين فلم تتمكن وحدة المناورة لدى المتمردين في وستفاليا ورنيان من ان تتحقق أبداً. ولو كان لدى الجيش الأحمر قيادة مصممة وقادرة لما كان الهجومُ المضاد للرايخشڤير ممكناً إلا بواسطة وحدات متفوقة جداً.

ورغم ولاء الجيش الفدرالي للسلطة التنفيذية في النمسا، كان بإمكان الانتفاضة ان تنتصر بقيادة الشوتزبوند لو أطلق القادة السياسيون التمرد في الوقت المناسب بدل الخضوع له كعمل أخير يائس. هذا ما سنراه فيما بعد.

كذلك في اسبانيا، لو ان انتفاضة ١٩٣٤ ارتكبت أخطاء أقل لما شكل الجيش قوة كافية لاحتوائها. فبعد الاصلاحات الجمهورية أعيد تنظيم الجيش الاسباني بكامله وأبعد عن السياسة. إنما ضرورات الموازنة ومتطلبات محدودة للسياسة الدولية حددته بثماني فرق مشاة ولوائين وكان اللواء يتضمن فوجين والفوج يتضمن كتيبتين، وفوق ذلك فقد كان لكل فرقة كوكبة خيالة ولواء مدفعية خفيفة مؤلف من فوجين الخ. وكانت فرق الخيالة المستقلة تتضمن كلها ١٠ أفواج فقط. ولم يكن للجيش في شبه الجزيرة كلها، وقت الانتفاضة سوى مئة الف رجل في خدمة العلم، علماً بأن وحدات المستعمرات كانت كلها من المتطوعين. وإذا زدنا الحرس المدني والجمارك (كان حرس الانقضاض أكثر ولاء للانتفاضة) فإن تعداد كافةالقوات المسلحة الموجودة تحت تصرفِ الحكومة كان لا يتعدى الـ ١٣٠ ٠٠٠ رجل موزعين على ثماني مناطق رئيسية. وكان بوسع الحركة العمالية ان تواجه هذه القوات بمليونين و٥٠٠ الف رجل بما فيهم الاشتراكيون والشيوعيون. والفوضويون والتروتسكيون بمنظماتهم النقابية والسياسية. كان للحزب الاشتراكي وحده ٩٠ الف عضو وكان الاتحاد العمالي العام الموالي له يعد مليوناً و٣٠٠ الف عامل و٥٠٠ الف فلاح. وكان اتحاد الشبيبة الاشتراكية يعد ٤٠ الف مسجل. كانت قوات الدولة تواجه اذن عدواً يتفوق عليها عشرة أضعاف على الأقل من حيث العدد دون حساب الفوضويين والعناصر البورجوازية الصغيرة، الذين كانوا سيحملون السلاح رغم عداء او تحفظ قادتهم السياسيين لو انطلقت الانتفاضة بتصميم. ولم تكن

تلك القوى كلها مقاتلة وهجومية ولكن انتفاضة الاستوري أثبتت لنا ماهية قوة الجذب التي يمارسها على الجماهير أول نجاح كبير.

إن قوات الجيش شيء بالغ الجدية، غير انه لا يجب تقديرها أكثر مما تستحق. فإن بعض الأسلحة يجب اعتبارها كأنها غير موجودة بمواجهة الانتفاضة، فالخيالة لا يمكن استخدامها في المدينة؛ ويكفي صف واحد لايقافها. واذا ترجلت، فقدت مردودها. . اما سلاح الهندسة فهو سلاح خدمة أكثر مما هو سلاح مقاتل؛ وهو لا يستطيع تقديم مفارز قتالية إلا نادراً. ومن المدفعية، لا يمكن استخدام غير مدفعية الميدان والمدفعية الجبلية. وحدهم المشاة كانوا مخيفين ولكن عددهم لا يكفي. ورغم تنظيم جيد، فلن يتمكن الجيش زمن السلم، من التصرف فعلياً بقواه قط كما هو مثبت على الورق حتى في البلدان الأكثر عسكرية. ثمة مهام خاصة ومراكز حراسة تعيد كل فوج الى نصف عديده. ولن يكون أمام الانتفاضة سوى ذلك العديد. فاذا اندلعت الانتفاضة في الوقت الأكثر ملاءمة وكان بحوزتها حراس حمر ذوو تنظيم جيد، فلا ينبغي لهذا العديد أن يخيف.

إن الجيش يصبح قوة ضاغطة عندما يستطيع الانتقال الى حالة الحرب اثر التعبئة العامة او حتى تعبئة طبقات عدة. في هذه الحالة وفي هذه الحالة فقط، ستكون مفارزه كاملة جنوداً وكوادر. ولكن إذا بدأت الانتفاضة، تصبح كل تعبئة مستحيلة، إلا اذا كانت الانتفاضة جزئية أو اذا اخفقت منذ اليوم الأول. فقد تمكنت حكومة تسلداريس - كونديليس (Tsaldaris-Condylis) من تحقيق التعبئة النظامية خلال انتفاضة آذار ١٩٣٥ في اليونان لأن المتمردين كانوا مسلحين فقط في جزيرة كريت وعلى الحدود البلغارية. وقد تمكنت من الأمر بالتعبئة، خاصة لأن المقصود لم يكن انتفاضة حقيقية بل تمردا محصوراً ببعض القطعات العسكرية تساندها بعض مجموعات العمال. علاوة على ذلك تتطلب التعبئة عملاً عادياً من جهاز الخدمات كله، لا سيما النقل، واذا توافقت الانتفاضة مع اضراب عام، فسيصبح التنفيذ الجيد للتعبئة مستحيلاً. على أي حال، إن تعبئة تنفذ في حقبة ثورية لخنق او حتى لاستباق انتفاضة ما قد تفسد الجيش بعناصر مشبوهة ليس إلا، وهذا قد يساوي تسلل الانتفاضة الى الجيش.

الفصل الثامن عشر

الدفاع: انتفاضة الشوتزبوند

ثمة قضايا مرتبطة بمبدأ التفوق العددي، وهي كسب الشعب، والعمل على كسب البروليتاريا والفلاحين والبورجوازية الصغيرة لدعم المطالب الثورية الأساسية، وتنظيم الطليعة المسلحة للهجوم، ومحاولة كسب ود الجيش، وتهيئة الجو بشكل تساند معه الجماهير المتمردين فور اعلان النجاح الأول. والمبدأ الثاني هو مبدأ الهجوم. «العمل هو شريعة الحرب الأولى. فمن بين جميع الأخطاء، هناك خطأ شائن هو: الجمود». تلك هي كلمات فوش لا كلمات أحد الرومنسيين.

إن الانقضاض لا نعني به فقط آخر عمل ننتقل به الى الهجوم الحاسم بل سلسلة كاملة من النشاطات المترابطة بالروح، إن لم يكن بالشكل، وليس الهجوم الحقيقي سوى خاتمة لها. إن الهجوم لا يُشنّ في يوم واحد. بل هو ثمرة إعداد مكثف ومستمر لشهور او سنوات لا يهتم إلا بنهايته. وهو ليس محصلة نتائج متميزة وجزئية بل نتيجة جهود بعضها ناضج والبعض الآخر غير مثمر في الظاهر، تعمل جميعها نحو الهدف ذاته. فلم تبدأ انتفاضة اكتوبر البلشفية ليل الخامس والعشرين بل منذ انتفاضة شباط. وهي تشمل التململ البلشفي العام في البلاد، وفي الجيش، والصراع داخل السوفيات، ومقاطعة البرلمان الناشىء، والمؤتمر الديموقراطي، وفشل انتفاضة تموز، والعمل ضد كورنيلوف، وخلق الحرس الأحمر واللجنة العسكرية الثورية، وتظاهرة ٢١ تشرين الأول ـ اكتوبر الكبرى. وقيادة لينين الثورية التي تثير آلاف البشر المتواضعين وتشكل رأي حلقة صغيرة من القادة، كمديرة منطقية. ليست الانتفاضة معركة يوم واحد،

المعركة الحلوة الكبيرة المنظمة التي تبرر المجازفة بالحياة في سبيلها. فلكي يتمكن المرء من المخاطرة كثيراً يوم العمل الحاسم، يجب ان يكون قد تعرض للمخاطر سابقاً. ومن أجل ان يتمكن من الحصول على طاقة الشجاعة عندما تدعو الحاجة، يجب الاعتياد على الجرأة. في الهجوم، يعتبر العنصر الأساسي هو النفسية الهجومية. لذلك اكتفت الأحزاب الكبيرة للديموقراطية الاشتراكية التقليدية مثل الحزب الاشتراكي الايطالي والحزب الاشتراكي الالماني بالانصياع غير مبالية بما كان يبدو لها قدر ظالم، في الوقت الذي كان لا بد من القتال. كانوا رجالاً نشأوا في زمن السلم من أجل السلم. ولا يصبح المرء مقاتلاً عند الطلب او من خلال قرار مفاجىء.

هذا صحيح بالنسبة للقادة كما بالنسبة للرجال. يجب البحث عن المهاجمة بفكرة ثابتة ونظرية محددة، بالضبط كما فعل لينين في اكتوبر، كنوع من انواع الانتحار الذي يُجبر المرء على الانصياع له راضخاً. وإلا، فنحن نسير باتجاه كارثة محتمة. فهذا ما حصل للديموقراطية الاشتراكية النمساوية.

إن الهجوم هو السبيل الوحيد للوصول الى النصر، في الحرب كما في الانتفاضة. فلا لزوم للتنظيم الثوري والطليعة المسلحة وولاء الجماهير إذا لم ننتقل الى الهجوم. قد يشكل الدفاع مرحلة من النضال الثوري ولكن ليس كامل مراحل النضال. وقد يكون مفيداً كوسيلة للايقاف او التأجيل نستخدمها بغية استئناف العمل الهجومي فيما بعد. قد يوقف الدفاع العدو ولكنه لن يهزمه قط. فنتائجه سلبية باستمرار. ويقود الدفاع عاجلاً ام آجلاً الى الهزيمة. ليس ثمة مثل أكثر تعليماً من المثل الذي قدمته لنا الاشتراكية الديموقراطية النمساوية. إنها تستحق ان نبحثها في شتى مراحلها.

فقد توصل الاشتراكيون الديموقراطيون الى الحكم في تشرين الثاني ١٩١٨، في حكومة ائتلافية تشكلت من الممثلين الذين كانوا موجودين في البرلمان سابقاً عن المناطق الالمانية من النمسا. كانوا أقلية داخل الوزارة ولكن انهيار الامبراطورية جعلهم يتمتعون بالأكثرية في البلاد. كانوا إذن يديرون سياسة الحكومة. لذلك وجه اليهم اللوم لأنهم لم يستفيدوا من سلطة بهذا الحجم كي يتخذوا عندها مبادرة الهجوم الثوري لتشكيل جمهورية اشتراكية. وليس لهذا اللوم قيمة تذكر. كان الحزب الاشتراكي بمجموعه حزباً اشتراكياً ديموقراطياً بقيت غريبة عنه الخلافات العقائدية الداخلية التي كانت، قبل الحرب بعشر سنين، قد فرقت الاشتراكيين الروس بين منشفيين وبلشفيين وجعلت من

البلشفيين حزباً ثورياً ذا ارادة انتفاضية. كان وضع سياسي كهذا نتيجة اوضاع داخلية في روسيا نفسها وكانت الامبراطورية النمساوية تبدو تجاهها دولة ليبرالية. لو كان يوجد لدى قسم من الحزب النمساوي، في نهاية ١٩١٨ وبداية ١٩١٩، طموحات ثورية، كان من المؤكد حصول فوضى عامة داخل الحزب كتلك التي ميزت الحزب الاشتراكي الايطالي بعد الحرب. وقد جعلت الثورة والمشاركة في الحكم مستحيلة. فتكونت نزعات متضاربة فقط، حطمت قوة البروليتاريا وفتحت الطريق للفاشية.

على كل حال، لم تكن الثورة الاشتراكية ممكنة في النمسا خلال تلك الحقبة، حتى ولو لم يسيطر على الوضع حزب ثوري، كما كان الحزب البلشفي في روسيا سنة ١٩١٧. وكان اقتصاد الجمهورية الصغيرة في حالة افلاس ولم يكن بوسعه تلقي المساعدة إلا بمشاركة القوى العظمى. وعندما انتصرت هذه القوى أملت قوانينها وحدّت من سيادة الدولة. إن تحريم «الانشلوس» (Anschluss) (ضم النمسا الى الرايخ الثالث) الذي فرضته الدول الكبرى، رغم أن الحكومة الموقتة الأولى والبرلمان الأول المنبثق من انتخابات ١٦ نيسان ١٩١٩ طالبا به بالاجماع، لهو الدليل على ما كانت ستؤول اليه ثورة اشتراكية، حتى ولو كانت بارادة اكثرية السكان، تعيق تصاميم اعادة تعمير أوروبا البورجوازية في مؤتمر باريس. من اجل اعادة النظام، كان الحلفاء سيسيرون باتجاه فيينا جيشاً مثلما سيروه الى بودابست.

وفي عامي ١٩١٨ و١٩١٩ لم تكن أية مهاجمات انتفاضية ممكنة في النمسا للاستيلاء على السلطة السياسية من قبل البروليتاريا.

عندها نجح تأثير الحزب الاشتراكي بتشكيل الـ « فولكسفير» (جيش الشعب)، مكون من ٦٠ الف رجل، ذي طابع بروليتاري بارز على غرار الجيش الأحمر في روسيا السوفياتية. ولم يسمح بذلك الحلفاء كذلك. وفرضت معاهدة سان جرمان على النمسا جيشاً محترفاً صغيراً بتجنيد طوعي على أمد طويل. واضطرت الجمهورية الصغيرة الى الانصياع وبعثر قانون آذار ١٩٢٠ جيش الشعب الذي حلّ محله الجيش الفدرالي: البوندسفير «Bundeswehr». واستطاع الاشتراكيون الذين بقوا في الحكم، حتى انتخابات تشرين الثاني ١٩٢٠، مع الكاثوليك الذين لم يكونوا قد اصبحوا رجعيين بعد، ان ينجحوا في إنقاذ التجنيد الجمهوري والاشتراكي فيه. وكذلك فعلوا بالنسبة للشرطة والدرك.

وقد استولى الكاثوليك على السلطة كقادة للكتلة المحافظة، وبدأوا حملة التطهير في الجيش الفدرالي والشرطة والدرك. وعندها فكر الاشتراكيون بالمحافظة على المؤسسات الجمهورية بوسائلهم الخاصة. فتأسست الشوتزبوند بين ١٩٢١ و١٩٢٣ وهي أكبر تنظيم مسلح تمكنت البروليتاريا من صنعه لنفسها في نظام بورجوازي. وكان هذا يعتبر اتخاذ موقف بمواجهة «الهايمور» (Heimwehr) وهي تشكيلة مسلحة خلقتها البورجوازية الريفية في آخر ١٩١٨ وفي ١٩١٩ والتي لم يقوَ الاشتراكيون في السلطة على حلها بمعارضة الكاثوليك.

وسرعان ما أصبح الشوتزبوند منظمة كاملة عسكريا بادارة يوليوس دويتش (Julius Deutsch) وهو وزير اشتراكي سابق في الحكومات الائتلافية، والجنرال كورنر (Korner) وهو رئيس سابق لأركان الجيش الامبراطوري، وأحد الضباط الأكثر بروزاً في المملكة وهو بروسيلوف الاشتراكية النمساوية. وكان قد نظم ايضا التشكيلة الأولى «للبوندسهير Bondesheer» . وإذا تذكرنا انه بين عامي ١٩٢١ و١٩٢٤، سحب أكثر من ٣٠٠ رشاش من الشوتزبوند من قبل الحكومات المختلفة، لكوّنا فكرة حول تسلحهم. فقد استخدم في تسليحه، كما فعل «الهايمفير» سابقاً، الأسلحة والذخائر التي احتفظ بها المقاتلون في فوضى عام ١٩١٨ وتلك التي استولى عليها العمال والفلاحون في عامي ١٩١٨ و١٩١٩ بانتزاعها من مخازن الجيش الامبراطوري المهجورة في منطقة الحرب.

لم يكن بوسع الجيش الفدرالي ان يتعدى ٣٠ الف رجل، بما فيهم الضباط، بسبب الحدود التي فرضتها معاهدة سان جرمان. وكانت تراقبها القوى العظمى حتى عام ١٩٣٣. وقُلِّص التسليح بالنسبة لهذا العديد ما عدا المدفعية الثقيلة والدبابات والطيران. وكان الاعداد الذي يسبق الخدمة العسكرية، وكل أنواع أعمال التعبئة ممنوعة. وتم الحد من صنع الأسلحة والذخائر، وكان التجنيد طوعياً لمدة ست سنوات على الأقل للرتباء والجنود، وعشرين سنة للضباط. وكان النظام يشمل ستة الوية مختلطة، واكثر من ست كتائب دراجات نارية، وأربع كتائب مصفحات وفوج مدفعية مستقلاً. وكان اللواء يشمل فوجين من المشاة، ومجموعة مدفعية، وكوكبة خيالة، وسرية هندسة. وكانت كل هذه الوحدات موزعة في المحافظات التسع للجمهورية الفدرالية. أي أن هناك أقل من لواء في المحافظة الواحدة.

وعُدِّل تنظيم الجيش الفدرالي عدة مرات، ولكن دون تغييرات جوهرية. وبإمكاننا القول ان «البوندسهير» كان له التشكيلة نفسها في شباط ١٩٣٤. ولم تحصل النمسا الا عام ١٩٣٣، من الدول الكبرى، على السماح لها بتجنيد وحدة اضافية من الشبان المتطوعين، بصفة مؤقتة ولمدة سنة واحدة. ولكن عديد هذه الوحدة كان عليه ان يدخل في عداد الـ ٣٠٠٠٠، الرقم الذي حددته معاهدة سان جرمان. وفي أيلول ١٩٣٣، عندما كان دولفوس (Dollfuss) قد بدأ إعداد انقلابه باتقان، تم إيجاد القيادات العسكرية الموحدة في كل محافظة وجُهز الجيش الفدرالي بدبابات انقضاض وقطعات آلية وكتائب دراجات.

انتهت «الهايمفيرات» التي كانت دائماً منظمة حليفة للمسيحيين الاجتماعيين، بالتحول في ائتلاف دولفوس ـ فاي (Dollfuss-Fey)، الى مؤسسة عامة، تسلحها وتدفع لها الدولة كجهاز درك مساعد. غير ان فعالية «الهايمفير» العسكرية لم تكن جدية أبداً حتى بعد آذار ١٩٣٣. وتميزت في ١٩١٩ بصدامات مع اليوغسلافيين في كارنثيا (Carinthie)؛ ولكن هذا الجيش تفكك فيما بعد ولم يعد أحد يسمع به حتى عام ١٩٢٧. فبعد عصيان البروليتاريا في فيينا في ١٥ تموز ١٩٢٧، نظمته البورجوازية الرجعية منتقلة به الى الهجوم المعلن، دون ان تنفر من الدفع. ولكنه كان وبقي دوماً عصابات غير منضبطة من المرتزقة دون صفات عسكرية كمفارز الميليشيا الفاشية في ايطاليا في السنوات الأولى بعد مسيرة روما. وقد اثبت انقلاب ايلول ١٩٣١ في ستيريا (Styrie) انها كانت مفارز كسولة ومدعية عاجزة عن القيام بأعمال مقررة دون تواطؤ الدولة. وكانت باستمرار منقسمة بفعل الألاعيب والخلافات الداخلية، لا تتمتع بأي وحدة اخلاقية او سياسية.

وكانت الشرطة والدرك تدخلان، كمفارز عسكرية مسلحة، من ضمن العديد الذي تفرضه المعاهدات.

لم تكن هذه القوى معادية للاشتراكية دائماً. فقد حافظ الجيش الفدرالي خلال ١٠ سنوات على طابعه الديموقراطي الأصلي وبقي بمعظمه محباً للاشتراكية رغم التحولات الرجعية التي أدخلتها عليه الحكومات الاكليريكية. وحتى عام ١٩٣٠، لم يكن قد خضع قط لأوامر غير شرعية او لأوامر صادرة عن حكومة غير دستورية.

وبمواجهة هذه القوى، كان هناك «الشوتزبوند». وحتى اليوم، نجهل المعطيات

الدقيقة المتعلقة بالعدد والتنظيم الداخلي. لكن قوتها اعتبرت دائمًا على انها متفوقة على قوة الجيش والشرطة والدرك وقوات الهايمفير ايضا. حتى في عامي ١٩٣٣ و١٩٣٤، السنتين الأكثر حرجاً بالنسبة للبروليتاريا النمساوية، لم يكن الشوتزبوند يعد أقل من ٩٠٠٠٠ عضو، منهم ٤٠٠٠٠ في فيينا وحدها. كان للشوتزبوند في العاصمة، إذن، عبارة عن فاعلية تفوق فعالية الجيش الفدرالي بكامله. وكان يتمتع أيضا بتنظيم مختار وتدريب من خلال تجارب عديدة في التعبئة والمناورة. وكان مجهزاً بفصائل خاصة كجيش حديث. وكان ثمة مختبرات للمتفجرات، مثل تلك التي اكتشفتها الشرطة في ٤ شباط ١٩٣٤، كانت تؤمن له الذخائر للهجوم والدفاع عند فقدان المدفعية.

وخلف طليعة مسلحة كهذه، كان يقف ٩٠٪ من البروليتاريا النمساوية، كل المدن الرئيسية وفيينا بثلثي سكانها والمنظمات النقابية والتعاونية الأحدث في اوروبا والكتلة المهمة للستماية الف مسجل في الحزب. اشارة واحدة كانت كافية كي تصبح كل حياة البلاد، في الوقت المناسب، بين أيدي الحزب الاشتراكي ويُعلن اضراب عام ويُعبأ الشوتزبوند ويُشن الهجوم. كانت نفسية الجنود في الشوتزبوند هجومية دائماً، وفي الاصطدامات مع الشرطة ورجال الهايمفير التي خاضتها قبل ١٩٣٤، أظهرت كفاءته القتالية .وكانت لا توجد خلافات داخلية بل تنافس شريف بين المقاطعات وتوجيه سياسي موحد والشعور بتمثيل الطليعة الاشتراكية للبروليتاريا الأكثر حضارة في العالم.

«ليس هناك أية استراتيجية بإمكانها تعليمنا أنّ النصر يُحرز دائماً بالهجوم او دائماً بالدفاع». هكذا كان يتحدث اوتو باور (Otto Bauer) الزعيم بلا منازع للاشتراكية الديموقراطية النمساوية. وهذا خطأ فادح. ويدخل في صميم هزيمة البروليتاريا النمساوية، نعم هذا هو الخطأ.

إن التمسك بالقول انه كان على الاشتراكية الديموقراطية النمساوية إقرار الانتفاضة مهما كان الثمن، قد يكون ادعاء غريباً. ليست الانتفاضة رياضة. فقد ورد في برنامج لينتز (Lintz) لسنة ١٩٢٦: «لن نلجأ الى السلاح إلا في حال أراد الفاشيون او الملكيون قلب الجمهورية الديموقراطية بالغاء الانتخاب العام والعادل، وحق الدعاية الحرة وانتزاع امكانيات النضال بالوسائل السلمية الديموقراطية في سبيل تغيير المجتمع من أيدي الطبقات العمالية». وفي الاستراتيجية الهجومية، يعني هذا الكلام ما يلي: «عندما نلاحظ بأعمال واقعية وحقيقية، ان العدو يستعد لالغاء الجمهورية الديموقراطية وان هذا

الخطر مؤكد ووشيك، نعرف كيف نستبقه وسنهاجمه حتى قبل ان يتمكن من تحقيق أهدافه». وفي الاستراتيجية الدفاعية، هذا يعني: «اذا كان العدو يستعد لمهاجمتنا من أجل الغاء الجمهورية الديموقراطية، ننتظر كي يهاجمنا وسنعلم كيف ندافع عن انفسنا».

حتى لو قبلنا ـ وهذا ليس صحيحا[1] ـ «انه ما من استراتيجية» تعلمنا أن «النصر لا يُحرز دائماً بالهجوم ولا دائما بالدفاع»، يجب ملاحظة ان قادة الأشتراكية الديموقراطية النمساوية لم يمارسوا الهجوم قطعاً. حتى انهم لم يطرحوا خياراً بين الدفاع والهجوم. بل مارسوا الدفاع فقط. صحيح ان الصعوبات الداخلية والدولية التي وجدوا فيها لا سابق لها في تاريخ ما بعد الحرب. نحن هنا، لا نذهب للبحث عن نقد الصالونات تجاه الأخطاء، بل فقط للبحث عن المبادىء التي يجب ان تنظم النضال الثوري في سبيل المنفعة العامة، وليس من أجل الكلام النظري بعد ان نكون مشاهدين خمولين.

حتى عام ١٩٢٧، لم تكن الجمهورية، التي انطلقت من حكومة ائتلافية ووصلت على مراحل الى حكومة توازن أولاً، وحكومة معادية للاشتراكيين فيما بعد، قد سقطت بعد في أيدي الرجعية. غير ان الاسقف سايبل (Seipel) الذي لم ينجح في استمالة الجيش أصلح الشرطة القدرالية. وكانت هذه، خلال يوم ١٥ تموز المأسوي في فيينا الذي اطلقت فيه النار بوحشية على العمال العزل مظهرة مشاعرها ومشاعر الحكومة. وكانت الجماهير قد بلغت درجة من الهياج الثوري كان معها كل شيء ممكناً. وارتجفت البورجوازية حتى النخاع. وتمكن قادة الحزب الاشتراكي من فرض سيطرتهم وتهدئة النفوس. ووجد سايبل، الذي كان بإمكان العمال جرّه بسهولة من إحدى نوافذ المستشارية، انه بعد زوال الخطر، بوسعه وبدون انتظار العقاب، القيام بهجمات أخرى ضد العمال، حتى ولو كانوا أول عمال في العالم يُرمون برصاص الرشاشات. فكافأ رجال الشرطة وعلق اوسمة على صدور الأكثر حماسة منهم وسجن القادة العماليين الذين

(١) يعلمنا الفن العسكري العكس تماماً. ليس هناك في العالم، حالياً، كلية حربية واحدة تتمسك بإمكانية إحراز النصر بالدفاع. إن فوش الأكثر مسؤولية بين القادة المحدثين ينكر إمكانية الدفاع في التمكن من الوصول الى الخير. فنزعة الاستراتيجية الحديثة هي باتجاه الهجوم ولا شيء غير الهجوم. ليس سريعاً، بل مرتجلاً كاعلان حرب مسبق وصاعق ومفاجىء. لقد بنى تلامذة فوش في فرنسا معسكرات بعيدة لا من أجل الدفاع بل لاتاحة التعبئة وشن الهجوم. وفي المانيا، تقف كل مدرسة الحرب مع الهجوم. ويواصل اليابان تعاليم حرب ١٩٠٥. اما روسيا السوفياتية فهي مع الدفاع، سياسياً ;ولكن لدى احتمال صراع ما فهي سوف تشن، للدفاع عن نفسها، الهجوم في أشكاله الأكثر جرأة، وفي ايطاليا، يُعتبر كتاب الجنرال فيسكونتي براسكا (Visconti—Prasca) حول الهجوم المطلق، حجة.

اعتبرهم المسؤولين الرئيسيين عن العصيان، وجمع بورجوازية المدينة والريف بكاملها، ونفذ بغطرسة ذاك الهجوم الذي واصله دولفوس فقاد الى انقلاب ١٢ شباط.

في هذا الوقت بالذات، في نهاية تموز ١٩٢٧، كان على قادة الاشتراكية الديموقراطية النمساوية البدء بالقاء نظرة على قضايا الانتفاضة. ففي الواقع، كان الوضع يتغير جذرياً. ولم يكن على الحزب المسيحي الاجتماعي ان يفعل شيئاً مع الفلاحين الثوريين في سنتي ١٩١٨ و١٩١٩، الذين فرضوا على قادتهم الكتلة الاشتراكية لشغيلة المصنع والأرض. وأصبح منذ ذلك الحين حزب البورجوازية المدينية والبورجوازية الريفية الكبرى التي تقاطرت عليها بقايا الاحزاب البورجوازية القديمة المقتقهرة. وأصبح القادة بعدها يتكلمون لغة فاشية ويشيدون بمسيرة روما.

كانت الاشتراكية الديموقراطية تسلح الشوتزبوند. وبخلاف الاشتراكية الايطالية التي أزيلت دون مقاومة، فقد كان الشوتزبوند يعد هزيمة مجيدة. قضية الحرب هي قضية عسكرية وسياسية وليست اخلاقية. ان الجيوش تطلب من قادتها ان تقودها الى النصر لا الى الهزيمة، حتى ولو كانت الهزيمة مشرفة.

كانت الاشتراكية الديموقراطية تدافع عن نفسها.

وكان سايبل الذي قتل في يوم واحد زهاء مئة عامل وجرح ثلاثمائة، يظهر مذعوراً بسبب العُنف الأحمر. وكانت الكتلة الرجعية تنتصر في الانتخابات التي أعدت في هذا الجو. فكان الشوتزبوند مهزوماً في الشوارع من قبل بنادق الفتيلة وفي صناديق الاقتراع. ولتتويج انتصارها، كانت البورجوازية تطالب بتسليح يتفق والظروف. وفي الواقع، كانت تتسلح بحماية الحكومة.

ولاعطاء برهان ساطع على نواياهم الموالية للشرعية، طرح الاشتراكيون سنة ١٩٢٨ على الحكومة نزع السلاح من الجانبين. ورفض سايبل لإعطاء برهان على العكس. ومهما يكن الحكم، في أيدي سايبل او شوبير (Schober) أو دي بوريش (de Buresch) فكان الاجتماعيون المسيحيون هم الذين يلهمون البطولات لسائر البورجوازية العلمانية والمتحررة فكرياً. وفي ١٩٢٩ طالبوا بتعديل دستور ديموقراطي اكثر مما ينبغي ومتناقض بوضوح مع الفضائل الرئيسية. ولم يُبدِ الاشتراكيون معارضة كبيرة. كانوا يريدون البقاء مسالمين وسيبقون كذلك حتى النهاية: حتى أخرج دولفوس من الثكنة مدفعية الميدان ضد

العمال وضد الجمهورية. لقد كان الاشتراكيون مدافعين دوماً.

سجل عام ١٩٣٠ المرحلة الكبرى التي بلغها الاكليروسيون. فبقدر ما كان الاشتراكيون يبدون مسالمين، بقدر ما كان يزداد تصلبهم. والدفاع يقود دوماً الى هذه النتيجة: فهو يشجع الأعداء. كان الاكليروسيون قد رموا كتاب الصلوات وحملوا البواريد. فبعد انتخابات عام ١٩٣٠، وبدل القبول بعروض المشاركة التي قدمها لهم الاشتراكيون بلا كلل، فضلوا الاتفاق مع نواب «الهايمفير» شرط الحصول في البرلمان على اغلبية صوت واحد. وأخذ فاي (Fey) وزارة الداخلية. ولم يكن بوسع البرنامج ان يكون أوضح. ففي السنة ذاتها، وُضع قانون حول نزع السلاح الداخلي وبدأت المداهمات التي كان يجريها البوليس، والتي كانت تنتزع دورياً، من مخازن الشوتزبوند الرشاشات والبنادق. وأحرز هتلر انتصاره الانتخابي الأول في المانيا، وأصبح قسم من البورجوازية موالياً للنازية. فانتهز الاكليروسيون الفرصة للاستيلاء الكامل على الجيش الفدرالي.

كان الاشتراكيون دائماً يتخذون موقف الدفاع.

وفي العام ١٩٣١، ينفذ انقلاب للهايمفير في «ستيريا»، يفسر الجو المشبع بنجاحات معادية للجمهورية والبروليتاريا. وتستفيد الحكومة منه لمداهمة أماكن عدة للشوتزبوند ومصادرة أسلحة جديدة.

وفي العام ١٩٣٢، اعطى دولفوس البراهين الأولى على طبعه. لم يعد للاشتراكيين مجال للشك: فهو يحضر لنهاية الجمهورية. فالجيش الفدرالي والشرطة والدرك والهايمفيير بين يديه. وقد بدأت السلطة التنفيذية باظهار بعض مظاهر الدكتاتورية.

في أول آذار ١٩٣٣، أضرب عمال السكك الحديدية لمدة ساعتين على سبيل الاحتجاج ضد التدابير التعسفية للحكومة. واتخذ دولفوس فوراً اجراءات رادعة وأبطل عدداً كبيراً منها. وقدم النواب الاشتراكيون في ٤ آذار اقتراحاً لصالح عمال السكك الحديدية. ونالت الحكومة أغلبية صوت واحد في البرلمان. واستقال الرئيس رنر (Renner) الاشتراكي ليتمكن من الاشتراك في التصويت وإبطال الأغلبية. لكن نائبي الرئيس وأولهما مسيحي اجتماعي والاخر قومي الماني قدما استقالتيهما أيضاً، ولم يعد بإمكان البرلمان ان يعمل. وفي الخامس من آذار أحرز هتلر انتصاره الانتخابي الكبير المفاجىء. وتسارعت الأحداث، واستلهم منها دولفوس شجاعات أكبر. ففي ٧ آذار

عدّل الدستور وأوكل السلطة التشريعية حق إصدار مراسيم قوانين وحلّ المحكمة الدستورية لمنعها من إصدار أحكام تدين السلطة التنفيذية. كان ذلك انقلاباً حقيقياً. وحاول الاشتراكيون في ١٥ آذار استعادة النشاط البرلماني إلا أن الحكومة منعتهم بواسطة الجيش. وظهر ان شروط اللجوء الى الانتفاضة كما توقعها مؤتمر لينز (Linz) متوافرة.

ماذا فعلت الاشتراكية الديموقراطية ؟

لقد وجدت المناسبة الأكثر ملاءمة للانتقال الى الهجوم. كان اشمئزاز الجماهير عاماً. وكان قسم كبير من البروليتاريا يطالب بالاضراب العام والانتفاضة. وكان الشوتزبوند في الأساس يعلن استعداده للعمل. وكان عمال السكك، السبب العارض للخلاف، مستعدين لكل التضحيات. وكانت كل الشبيبة العمالية المسلحة وغير المسلحة تلتف حول الحزب الاشتراكي وتطالب بفتح المعركة. وكانت البورجوازية منقسمة بسبب اليقظة النازية القوية. فكان النازيون، أي ٣٠٪ من السكان، يتعاطفون مع التمرد الاشتراكي بدافع من كرههم لدولفوس. ولم يكن مع الحكومة ثلث البلاد. ولم يكن الوضع الدولي معاكساً.

وواصل الحزب الاشتراكي التزام الدفاع.

وتعارضت سلطته الكبيرة، كما في ١٥ تموز ١٩٢٧، في فيينا، مع هياج الجماهير مرة أخرى.

يقول أوتو باور: «أخّرنا القتال لأننا نريد تجنيب البلاد كارثة حرب أهلية دامية». لسوء الحظ، ان تأخير القتال عندما يبدو القتال ملائماً يعني خسارة هذا القتال. وتنتقل مبادرة الهجوم الى العدو، ولا نتجنب الحرب الأهلية. ولكن، بدل ان نفرضها، نخضع لها فقط.

وفي سبيل انقاذ الاستقلال النمساوي ضد هتلر، باع دولفوس نفسه لموسوليني. وهكذا كان يحضر لمسيرة فيينا. وكان البرلمان في عطلة دائمة. وتفرض الرقابة على الصحف. وتحدّ حقوق الدعاية والتجمعات والاضراب. ويُعدّل القانون الجزائي والقانون الاجرائي الجزائي، بمرسوم. وتحاكم الشرطة الجرائم السياسية. وكان القضاة الذين يصدرون أحكاماً لا تقبلها الحكومة، يُنفون الى معسكرات الاعتقال. وتُضطهد المنظمات العمالية النقابية وتلغى عقود العمل بمرسوم، ويُجبر العاطلون عن العمل على الانتساب الى الجبهة الوطنية. وكان عمال السكك، الذين هم العمود الفقري لكل

اضراب عام، مضطهدين ومهددين بالطرد، وكانوا يُعزلون صراحة ويبدلـون بمبعوثـين فاشيين. وحُلَّ الشوتزبوند. وفقدت فيينا استقلاليتها كمَقاطعة فدرالية.

لقد حققت الدفاعية ثمارها، وبعد الخسارة يأتي التهريج.

كان الاشتراكيون مستعدين للاتفاق مـع دولفوس، بعـد ان قرروا تـأخير الحـرب الأهلية. ويرفض المستشار. وخوفاً من ان لا يتنازل ويتحاور مع القادة الاكثر مسؤولية في الحزب، يقدمون أنفسهم على انهم وسطاء اعتماده: بوسع العدو أن يختار السفراء. ولكن المستشار بعد أن أصبح قوياً رفض حتى هؤلاء. حتى رئيس الجمهورية، الخائن والمتواطىء، استدعي شخصياً لنجدة الغارقين. حتى اوتوباور نفسه يقول ان دولفوس أجاب بالشكل الأكثر احتقاراً وهجومية. وأوصلت سلسلة من الاهانات، التي خضع لها الحزب دون ردة فعل، الحزب الى الانهيار.

كم يبـدو هؤلاء القادة العمـاليون المغمـورون المتواضعـون في ريفـال، حكـماء في السياسة، عندما قـرروا بعكس كل التعـاليم العسكريـة وكل منـطق سياسي، الهجـوم وانطلقوا بمئتي رجل للاستيلاء على دولة! من الأفضل ان يحارب المرء ويخسر من ان لا يحارب أبداً. هكذا يتحدث المناضل «ماك بريد ـ Mac Brid» الذي قتل رمياً بالرصاص خلال انتفاضة دبلن. وكان انغلز الذي لم يكن مغرماً بالتمرد يقول: «في الثورة كما في الحرب، لا بد من المجازفة بكل شيء، في الوقت الحاسم، مهما كان الوضع».

بعد مؤتمر «رتيشيونه» (Riccione) اجتمع الحزب الاشتراكي في مؤتمر استثنائي وقرر ان الاضراب العام، اي الانتفاضة، يجب ان يعلن في الحالات التالية فقط: اذا منحت الحكومة للجمهورية دستوراً فاشياً، بطريقة غير شـرعية وغـير دستوريـة، أو إذا أقالت الحكومة ادارة فيينا بشكل غير شرعي وغير دستوري،؛ أو إذا حلت الحكومة الحزب او النقابات.

وهكذا وجدت مكان الشروط العامة، التي ركزها مؤتمر لينز، شروط أخرى مخصصة بالتفصيل. وهكذا كانوا يمنحون العدو إمكانيـة تجنبها كلهـا بأسلوب التفـافي، وكانـوا ينقلون مبادرة العمل فيها من أيدي الجماهير المنهكة الى أيدي القادة المترنحين. وكانت تلك المبادرة، الحاسمة ظاهرياً، تبدو مرة اخرى مترددة وافتراضية. وفي كل الحالات، كانوا يتركون للعدو اختيار الوقت.

كانت الهزيمة إذن حتمية. وكانت تنقص الحزب القوة المعنوية للانتقال الى الهجوم. كانت الجماهير العمالية منهارة. وكانت الثقة بالقادة قد انهارت، والشوتزبوند نفسه فقد فعاليته.

وقد فقد الحزب بعدها الحس السياسي للوضع: ففي نهاية كانون الثاني ١٩٣٤، عرض الحزب على الحكومة ديكتاتورية شرعية لمدة سنتين! فكان دولفوس يجيب بكلام ساخر. وقبل ان يهاجم يوقف قادة الشوتزبوند في ٢٤ حيّاً من فيينا ورئيس مجلس القيادة العامة، آيفلر (Eifler).

في هذه الظروف، وقعت انتفاضة ١٢ شباط. ولم تكن مقررة ولا مرغوباً فيها من قبل قادة الحزب الاشتراكي. فقد حرض عليها الشوتزبوند في لينز وتبعها الشوتزبوند في فيينا وخضعت لها قيادة الحزب. كانت عبارة عن تمرد عفوي لأقلية بطلة فضلت التضحية الكبرى على الاستسلام بدون شرف. غير أن البروليتاريا في العالم، كانت تقاتل في ظروف أصعب وبشكل يتميز بالشهامة. وفي المعنى السياسي الضيق، لم تكن حتى انتفاضة. فالانتفاضة تفترض سلفاً ودائماً تمرداً على أمل النجاح. فهي تنزع دوماً الى قلب السلطة السياسية القائمة، بغض النظر عن الذي يطلقها، إن كان الغضب الشعبي او طليعة عسكرية وسياسية. كانت انتفاضة ١٢ شباط معركة بلا أمل في النصر. فبقيت الجماهير الشعبية غريبة، حتى ان البروليتاريا نفسها لم تتمكن من الاستجابة للنداء رغم تنظيمها. إن الذين يوجهون لها اللوم يجهلون اكثر الشروط المسبقة بديهية للانتفاضة. ليس الشعب جندياً بامكاننا تحريكه وفق الطلب في النهار او في الليل. فالقادة مسؤولون عن غيابه وقت التحرك. وحده الشوتزبوند قاتل ولكن هذا لم يكن كل شيء. فقد كان دون قيادة مركزية، بسبب الاعتقالات السابقة، فقد أجبر منذ شهور على حياة غير شرعية وسرية، ولم يعد التنظيم الذي عرفناه قبل سنة. فقد اندلعت الانتفاضة في اربع مقاطعات من أصل تسع وجزئياً: فيينا، والنمسا العليا، والنمسا السفلى وستيريا. ولم تنتقل الانتفاضة الى الهجوم في أي من هذه المدن. في لينز كان برناشيك (Bernachek) قائد الشوتزبوند المحلي قد اعطى الأمر للاستيلاء على المدينة. اما هو، الذي كان قد أمر بفتح النار على الشرطة في السابعة صباحاً، فلم يعد بإمكانه الخروج من بيت الشعب حيث تم اعتقاله. وفقد فيه الشوتزبوند قائداً مقداماً. وفي لينز، هرعت على الفور، محمولة لسيارات النقل، حامية فيلس (Wels) التي تبعد ٢٠ كيلومتراً. لم يكن الشوتزبوند في هذه

المدينة قد تحركت بعد، وتمكنت الحامية من نجدة حامية لينز. فاضطر الشوتزبوند في لينز الى التخلي واجتياز النهر، منفذاً مناورة، ثم الانسحاب الى اورفار (Urphar) وفي فيينا، تركز التمرد حول المنازل العمالية الرئيسية دون تخطيط شامل عاجزاً عن الهجوم. وكانت شتاير (Styr)، في النمسا العليا، جديرة بلينز غير أنها لم تكن أكثر حظاً. وكانت الصدمة، في كراتز (Gratz) وبروك (Bruck)، أسرع وأعنف، لكنها لم تتطور. ويعود فقدان التنسيق هذا الى تفكك الأشهر الأخيرة. فقد رفض الشوتزبوند في سالزبورغ، وهو الأكثر تنظيماً في النمسا كلها، التعبئة. كان قادته قد فقدوا ثقتهم في القيادة العامة ولم يريدوا التضحية برجالهم في قتال اعتبروه غير مجدٍ. حتى ولو استطاع الشوتزبوند الحصول على مجلس قيادة مركزي في اللحظة الأخيرة، لما كانت المهاجمة ممكنة. في فيينا، كان نبأ النزاع في لينز قد وصل في العاشرة صباحاً، من الثاني عشر من الشهر نفسه. فأعلنت صفارات الانذار لدى بعض المصانع الكبرى، فوراً، نية شغيلة فيينا الوقوف الى جانب رفاقهم في لينز. واجتمعت قيادة الحزب والمنظمات النقابية لاتخاذ القرار. واعلن الاضراب العام حوالي الظهر. غير ان الحكومة كانت، في الوقت ذاته، تعلن حالة الاستنفار في النمسا كلها. كانت تتصل بكل مراكز البلاد وتعطي أوامر للسلطات العسكرية والمدنية بواسطة التلغراف والهاتف ومحطة الاذاعة في فيينا التي لم يسمها التنظيم الانتفاضي. أما الاشتراكيون فلم يتمكنوا حتى من إيصال نبأ إعلان الاضراب العام الى كل مكان، إذ كانوا بدون وسائل اتصال مستقلة وبدون مشاركة منظمة عمال السكك الحديدية التي كانت قد انتقلت الى أيدي الحكومة. فلم يتمكن الشوتزبوند أن يبدأ تحركه إلا في الخامسة بعد الظهر، واضطر الى البقاء محصوراً بالضاحية. وكان قلب المدينة كله، في قبضة الجيش الفدرالي والبوليس والهايمفير، هذا ما أوصلت إليه حالة الدفاع.

فقد أثبت العمال، الذين حملوا السلاح خلال هذه الأيام وقاوموا معزولين في ١٢ و١٣ و١٤ و١٥ شباط، ضد جميع القوات التي جمعتها الرجعية، قدرتهم الكبيرة على القتال، فيما لو كانت البروليتاريا النمساوية تقاد قيادة جريئة. فلا وحدة الجيش، ولا اتحاد الطبقات المسيطرة كانت قادرة على مقاومة هجومها لو شُنّ هذا الهجوم في الوقت المناسب.

الفصل التاسع عشر

الهجوم : الاتجاه

ليس ثمة طريق أخرى، إذن، للانتصار. فالانتفاضة، يجب ان تكـون هجوميـة. ويجب ان تفاجىء العدو، لا ان تفسح المجال لمفاجأتها ان تهاجم لا ان تدافع. ويجب ان يهاجم المتمردون في الوقت الأكثر ملاءمة لهم دون الاهتمام بالمسؤوليات الاخلاقيـة او السياسية. ويجب ان يعلموا ان متطلبات الانتفاضة مشابهة لمتطلبات الحرب، وان المهم هو الانتصار وليس التقيد بآداب السلوك وحسن التصرف. فالهجوم لا يجب ان يقتصر على اليوم الأول، بل يجب ان يتكون من سلسلة من الهجمات التدريجية والمتصاعدة عنفاً واقداما لا تتوقف لتترسخ إلا يوم تهزم كل القوى العدوة او تُدمَّر.

لذلك، لا بد من قادة مُعدِّين جيداً. كما بالنسبة للحرب، ان القـادة لا يُرتَجَلون. فالانتفاضة، في بلد ما، ظاهرة واسعة ومعقدة، والـذين يعتقدون ان كـل شيء متعلق بشخص واحد ساذجون جداً. فلا بد من كثير من القادة، لأن القطاعات عديدة وواسعة وتفلت من انتبـاه شخص واحد. يجب ان يكـون كل القـادة قادرين عـلى اتخاذ القـرار بأنفسهم، فوراً وبمبادرة شخصية في كل مرة تعاكس فيها التوقعات صعوبات مفاجئة او تُقلب فيها التوقعات رأساً على عقب.

يجب ان تكون الانتفاضة وحدة عمل متناسقة قدر المستطاع. ويجب ان يُعدَّ قادتها في المدرسة ذاتها. ولكي تقاد الانتفاضة جيداً، يجب ان تكون منهجية. لذلك يجب ان تقاد أي انتفاضة وفق أسس معرفة الانتفاضات السابقة، وفق تجربتنا وتجربة الآخرين. ثمة

إذن انتفاضة بقيادة جيدة أو سيئة، وذلك بحسب ما لدينا من مبادىء واضحة جداً ام غير واضحة. وفق ما لدينا من القادة السياسيين او العسكريين الذين لهم نظرية في الانتفاضة[1]. فالاشتراكية الديموقراطية لم يكن لها قادة، وكذلك الانتفاضة الاسبانية. بينما الحزب البلشفي كان له قادة من هذا القبيل في اكتوبر. ذلك هو الشرط الوحيد لاطلاق الانتفاضة بجرأة بدون قلق أو تردد.

ومن المستحيل، طبعاً، إقامة نظرية هجومية صلبة تتجاوب مع كل الحاجات ويمكنها ان تجيب عن كل حالة وتساؤ ل. فهي لا بد ان تقتصر على المبادىء العامة. قد تُطرح حالات، حيث لا بد في غياب المعطيات، من اللجوء الى الالهام الشخصي والتصرف بما يتناقض مع ما قد يبدو هو النظرية. إن أكبر القادة، في الساعات التاريخية الكبرى، يحطمون دائرة الصعوبات الهائلة التي تحيط بهم.

والصعوبات التي تطرح ليست متشابهة بالنسبة للستراتيجية والتكتيك. فالانتفاضة البلشفية في أكتوبر، مثلاً كان قرارها أعظم من تنفيذها. والصعوبات التي اضطر الحزب البلشفي لتخطيها في سبيل الوصول الى اتخاذ قرار الانتفاضة كانت أكبر من الصعوبات التي صادفها في الانتفاضة. فاتخاذ قرار الانتفاضة وطريقة تحضيرها بالنسبة للوضع والأهداف السياسية العامة أصعب بكثير من وضع قوانين الانتفاضة ذاتها. فمن الأسهل، باختصار، تحديد نظرية للتكتيك الانتفاضي اكثر منه للاستراتيجية. ذلك ان الصعوبات، يمكن ان تقوّم في جوهرها الكامل عندما تكون مادية بحتة (مهاجمة قصر الشتاء هي تكتيك) ولا تقوّم أبداً عندما تكون أخلاقية وسياسية (قرارات ١٠ و١٦ تشرين الأول ـ اكتوبر التي اتخذتها اللجنة المركزية للحزب البلشفي هي استراتيجية).

فالانتفاضة، بطبيعتها الخاصة، مكونة من مخاطر عدة. ومن الطبيعي اذن أن تكون

---

(١) ان النظرية ليست كافية ان لم تقترن بصفات عملية. وصاحب هذه الدراسة، لا يدعي انه بالنظرية، وجد الحجر الفلسفي للانتفاضة. فالنظرية شيء والوقائع شيء آخر. لقد كتب مكيافيلي «فن الحرب»: في سبعة كتب وعشرة كتيبات كلفته جهداً اكبر مما كلفه كتاب «الأمير». وكان كل شيء مشروحاً فيه: التعسكرات، أنواع المسير، والمناورات والمعارك. وقد وضع جيوفاني ذو العصابات السوداء تحت تصرفه ٣٠٠٠ من جنود المشاة، كي يفسح له المجال لاثبات فعالية نظرياته. فأرهق ماكيافيلي نفسه، وأبقى المشاة والمشاهدين تحت الشمس دون جدوى، ودون ان يتمكن من ان يحصل في ساعتين على ما نفذه «قائد المرتزقة» في لحظة واحدة بأربع ضربات طبل.

الجرأة هي الصفة الملازمة للقادة.

فقيادة حركة ثورية تصبح غير متماسكة اذا لم يتمتع اعضاؤها بالثقافة والمزاج الانتفاضيين. فالقيادة هي كل شيء اذا كان الوقت مؤاتياً.

إن أقرب انتفاضة وهي انتفاضة برشلونة في تشرين الأول ١٩٣٤ تثبت لنا كيف يُحكَم على الحملة بالفشل إذا كانت تنقصها القيادة المناسبة، حتى ولو توافرت لها أفضل الظروف.

لم تقد حكومة «الجنراليداد» الانتفاضة بل جُرَّت اليها، وعندما انغمست فيها وجدت نفسها مضعضعة. فحلَّ محلَّ اللغة المحتقرة والمهدِّدة ضد حكومة مدريد، سلوك حذر وخجول. الأمر الذي كان يتناقض مع الترقب العام. إذ انه بالنسبة لجميع الاسبان، كان التململ والأزمة السياسية ترجع الى موقف الـ (.C.E.D.A) المناوىء لكتالونيا. فخطاب جيل روبلز في الكورتيس[1] (أول تشرين الأول) كان يُسقِط الوزير سامبر (Samper) بسبب قلة قساوته تجاه كتالونيا. وفي ٣ تشرين الأول كان الاتحاد العمالي ينظم مظاهرة في برشلونة، وحكومة «الجنراليداد» تمنعها اولا ثم تفرقها بالقوة. وقد أجاب دنكاس (Dencas) وزير الداخلية وفداً عملياً بما يلي: «إن لم تهدأوا سأدخل البنادق». وسيلة حلوة لدفع الانتفاضة.

وعند ظهر الخامس، كان الاضراب شاملاً في برشلونة. وكان استعراض العمال إثباتاً فخماً للقوة. ولم يكن كومبانيس قد عرف بعد الى اي قديس عليه ان يلتجىء.

وفي نهار السادس؛ أصبح الغليان عظيماً في عاصمة كتالونيا. وبعد إعمال الفكر، اتخذ كومبانيس قراره بالقاء خطاب في الجمع حيث يدعوه الى الهدوء. وفي الواحدة والنصف، تعاظم الهيجان. وفي الثالثة بعد الظهر ألقى كومبانيس خطاباً ثانياً. وهذه المرة أكثر حزماً. ليس ضد حكومة مدريد، بل ضد الأكثر تصلباً بين المتظاهرين. لا بأس بذلك كتحضير للانتفاضة. وفي السابعة والنصف مساء، طالب جمع غفير في ساحة الجمهورية باعلان الجمهورية الكتالونية ووافق بايا (Baaia) ودنكاس (Dencas) أما كومبانيس (Companys) فتردد. وأخيراً شد من عزمه وقرأ اعلان «الولاية الكتالونية من

(١) الكورتس هي تسمية الجمعية السياسية الاسبانية والبرتغالية.

الجمهورية الاسبانية الاتحادية». وفي حال بثّه من الاذاعة، أثار النبأ حماس كل اليساريين الاسبان. وكانت الاستوري قد حملت السلاح. هذا هو إذن انتصار الانتفاضة.

بعد إعلان الولاية الكتالونية، دعا كومبانيس الجنرال باتيت (Batet) قائد فرقة برشلونة، لمساندة الدولة الجديدة. وباتيت كتالوني ايضا. هل من الممكن إذن عدم التفاهم؟ فعلى طرفي الخط الهاتفي، تحادث الكتالونيان كصديقين حميمين[1]. ولم يُضع الجنرال الطريق. فمن أجل كسب الوقت، اعلن أنه بحاجة ماسة الى توضيحات والى تأكيد خطي. ونعلم ان أي جنرال، لا يستطيع ان يخطو خطوة دون أوامر خطية. وغرق كومبانيس في تأمل عميق وجهد نفسه لايجاد صيغة تستطيع، في حال اخفاق، من الحكمة توقعه، ان تظهره بمظهر الحيادي. وانتهى هكذا بتهيئة رسالة على مهل، هي رائعة من حيث الدقة القانونية ولا تضاهي كبجث في الحق العام بمواجهة محكمة عليا للضمانة الدستورية. أما باتيت، الوحيد الذي كان يرى بوضوح في هذا الليل المظلم، فوجد مناسباً ان لا يعلن سروره بالابلاغ الخطي الكثير الحكمة، وطلب ان يعطى للتأمل وقتاً ملائماً وذلك لأهمية القرار الواجب اتخاذه. وهكذا نصل الى الساعة الثانية صباحاً. من الثامنة من مساء السادس الى الثانية من صباح السابع ـ ست ساعات كان لدى باتيت كل الوقت لاعداد قواته وكومبانيس ليستنفد قواه في توقعات لافتراضات محتملة او غير محتملة. وفي الثانيةوالنصف، كي يثبت ان حالة الحرب قد اعلنت فعلاً، شن الجنرال الهجوم ضد وزارة الداخلية وقصر «الجنراليداد» وبلدية برشلونة. وهنا نشاهد مشهداً حقيقياً للاستراتيجية العسكرية، شيئاً جديداً في تاريخ الفن الحربي.

كان يوجد تحت تصرف حكومة الدولة الفتية في برشلونة خمسة عشر الف فدائي مسلح، علاوة على عمال مضربين ينتظرون دعوتهم للمساهمة. تلك هي الميليشيا الكتالونية، المجهزة منذ أكثر من سنة، والمسلحة بالبنادق والقنابل والرشاشات. وها هي قد نزلت كلها الى الشارع وتوزعت عسكرياً في الأماكن الاستراتيجية. هل كانت الحكومة المتمردة تعطيها الأوامر؟ قطعاً لا. الحكومة تطلق نداءات يائسة، بواسطة

---

(١) وُجّه الى كومبانيس اللوم بأنه لم يسجن الجنرال باتيت، عندما تقدم هذا للتشاور معه. والذي حصل في الواقع هو ان المحادثة تمت بالهاتف وان الجنرال لم يذهب الى قصر «الجنراليداد». اللوم اذن ظالم. انه لمن المرجح جداً انه لو أتى الجنرال باتيت الى القصر، لخرج منه مع كومبانيس سجيناً.

الاذاعة، كي ينزل فلاحو المقاطعة لتحريرها. وبينما تنتظر ان يتحرك المتمردون البعيدون، تترك المتمردين القريبين بلا حراك. وتحركت وحدات الجنرال دون عقبات ووضعت المدفعية بمواجهة القصور المحاصرة. قنبلتان وطلقتا بندقية كانت كافية لتبعثر كل شيء في الهواء.

في الخامسة والربع، صُفيت الدولة الكتالونية وفرقت الانتفاضة. ويرى الفجر ابطال الدفاع عن الفكرة المبهمين يفرون أو يسجنون.

وقد أعطانا جوني كامتيز (Jonnẹ Camptez) في غرفة التجارة، مثالاً على ما يمكن عمله في واقعة مقاومة معزولة. صحيح انه دفع من حياته ثمن تهوره ولكنه ببضع ضربات عزل عن المعركة جنود المدفعية المتمركزة في الساحة.

لم يكن تحت تصرف باتيت سوى فرقة مشاة واحدة، اسميا. فقد كان للفرقة، علاوة على ذلك مفارز خارج برشلونة. ولم يكن بحوزته بين عناصر مشاة ومدفعية وهندسة وحرس مدني وحرس دبابات الانقضاض، سوى ٤٠٠٠ رجل ليل السادس الى السابع، ثم ان الحرس المدني اعلن حياده ولم يشارك في القتال. اما حرس دبابات الانقضاض فوضع نفسه تحت تصرف الولاية الكتالونية. وبعد القضاء على الانتفاضة، سيق ٢٥٠ منهم أمام المحكمة العسكرية.

إن فشل الانتفاضة يجب ان يُعزى عامة، الى الفوضويين الذين خربوها. بالطبع، كانت مشاركتهم ستغير كثيراً في مجرى الانتفاضة في كتالونيا. لقد رأينا في ساباديل (Sabadell) ما تمكنت ان تفعله الوحدة الفورية لكل الشغيلة بما فيهم الفوضويون. غير ان الانتفاضة كان بإمكانها ان تنتصر، حتى بدون الفوضويين، وإذا كان الفشل المفترض يعود الى الفوضويين فالفشل الحقيقي يعود فقط الى تقصير قادة «الجنراليداد». فقد كانت الثورة قد انتصرت في ليريدا (Lerida) وتاراغون (Tarragon)، وجيرون (Gironne)، وسباديل، وفيلاميرا - اي - جلتري (Villamera — y — geltri)، ومانسيرا (Mansera)، ورنس (Rens)، وبلدان أخرى أقل أهمية في المقاطعة. لقد تردد رجال «الجنراليداد» بين الشرعية والتمرد وكان هذا وقتاً ضائعاً بالنسبة للعملية. وقد أعلن احد القادة: «عشنا فترة تردد وكانت تلك الفترة حاسمة بالنسبة لنا» في الحقيقة كانت تلك الفترة دائمة. وكذلك بسبب تشكيل الاسكويرا (Esquerra) الذي لم يكن متناسقاً من الناحية السياسية، وبالرغم من أنها كانت ذات تكوين شعبي لا غبار عليه، فلم يكن لها

ايديولوجية تستطيع التوفيق بين المطالب العابرة البروليتارية وبين البورجوازية الصغيرة. كان ثمة خلافات بين هؤلاء وأولئك. وعند الإنتفاضة، كانت غالبية «الجنراليداد» تخاف من التأثير الذي كان بوسع العمال ان يمارسوه على مجرى الأحداث. زد على ذلك ان «الاستات كتالا» (Estat Catala) وهو حزب انفصالي أسسه ماسيا (Macia) ويقوده دنكاس (Dencas) كان يشكل الجناح المتصلب من الاسكويرا حتى ان كومبانيس كان يبحث عن سند، فيجده في العناصر الغريبة عن «الاسكويرا» وأكثرها من البورجوازيين الاصيلين في برشلونة. كذلك كان ينقص التحرك قادة ثوريون. كان ثمة نقص في القيادة السياسية والعسكرية. فلم يكن يجب ان تنتهي العملية بحصار كومبانيس ورفاقه. كان بوسع القادة الآخرين، خلال حصار هؤلاء، ان يتخذوا مبادراتهم الشخصية لا ان يتبعثروا كما لو كانت الحملة في نهايتها، فيما لم تكن إلا في مرحلتها الأولى. إن المعركة لا تنتهي بفقدان بعض القادة الكبار. ففي انتفاضة اكتوبر، كان للبلشفيين ترقب للهجمات العسكرية المفاجئة المحتملة، فمنذ مساء الرابع والعشرين، كان لديهم ثلاثة اركانات مرتبطة وإنما ذات استقلال ذاتي، ومتباعدة عن بعضها البعض كانت الأركان الأولى في سمولني (Smolny) مركز البلشفيين واللجنة العسكرية الثورية على يسار الموسكوفا وتتصل هاتفياً بالثكنات والمشاغل الرئيسية. كانت هذه هي الأركان الحقيقية. وكانت الثانية في قلعة القديسين بطرس وبولس وهي تبعد ٥ كيلومترات عن سمولني ومنفصلة تماماً عن قلب المدينة، مجموعة منازل تتصل هي ايضا بالهاتف. وكانت الثالثة على سفينة «الآفرورا» (Avrora)، تارة راسية، وتارة تتحرك في القناة. خارج هذه الأماكن الثلاثة، كان هناك لينين مع اللجنة المركزية للحزب ومع لجنة بطرسبرغ. وكان الحي العمالي في ويبورغ على يمين النيفا، دائماً في حالة استنفار، ومخزناً احتياطياً حقيقياً وقلب الانتفاضة، وذا تنظيم قوي، وكان الجميع يعترفون بسلطته. في هذا الحي كانت توجد محطة القطارات الى فنلندا، وهي نقطة محددة لوصول بحارة البلطيق. لو هاجمت القوات الموالية للحكومة الموقتة سمولني لكان العمال والجنود هبوا فوراً الى نجدتها. ولو تم الاستيلاء على سمولني ومعها قلعة القديسين بطرس وبولس لكانت الانتفاضة تابعت مسيرتها ايضا.

أما في برشلونة، فلم يكن ثمة توقع لشيء. وتحرك باتيت في المدينة، سيد الساحة، هادئاً كما لو كان في باحة ثكنة. وبعد ان جُمّد كومبانيس واعضاء الحكومة الآخرون، لم يتخذ قادة الانتفاضة الآخرون اية مبادرة، متيقنين ان قوات الفرقة كانت ستمنى بهزيمة

فورية. هنا تكمن الميزة الكاملة لنشاطات تلك الأيام. تعطل كومبانيس عن العمل يومين: في الخامس وقسم كبير من السادس، على أمل أن ينقذ الموقف باقي اسبانيا. وفي اللحظة الحاسمة، وبدل ان يتصرف ظن ان الجنرال باتيت سيتصرف مكانه متآخياً معه. وبعد حصارهم، لم يفكر قادة التمرد، ولو للحظة واحدة بالقيام بهجوم مضاد، محاولين الخروج مع المنظمات المسلحة التي تملأ القصر، على أمل ان يتدخل الآخرون فيهاجموا من الخارج. والآخرون، بالعكس، لم يفكروا ولو للحظة واحدة أن يهاجموا على أمل أن المحاصرين سوف يتحررون بأنفسهم وبشجاعة دونما حاجة الى نجدة من الخارج. وهكذا شيئاً فشيئاً، وبطفرات متناقضة من الآمال والمسؤوليات حتى اليوم الذي سيحكمون فيه كلهم بالسجن مدة ثلاثين سنة مع الأشغال الشاقة. وهذا هو العمل الوحيد المشرف لهم في كل هذه العملية.

اما انتفاضة الرور فقد أخطأت بالمبالغة المضادة، وأظهرت بذلك اتجاهاً عاجزاً ايضا. ومما سهل بداية الانتفاضة انها كانت تظهر بمظهر المدافع الشرعي والدستوري عن الديموقراطية الجمهورية التي كانت تمسك بالسلطة. كانت الحكومة قد وجهت نداء للاضراب العام للبروليتاريا ضد انقلاب كاب (Kapp) وكانت البروليتاريا قد استجابت للنداء. مما يشكل ظرفاً استثنائياً بالنسبة لأي انتفاضة. فالمرحلة الأولى لأي انتفاضة هي تلك التي تظهر الصعوبات الكبرى. صعوبات تنهار جميعها عندما لا يعود حمل السلاح سرياً، بل علنياً الى جانب السلطة التنفيذية الشرعية ومسانداً لها. فقبل أقل من ثلاث سنوات، وفي آب ١٩١٧ في روسيا، وفي وضع سياسي متقلب أيضاً، وحكام، كما في المانيا، يستلهمون ليس الاحترام ولكن الجرأة نحو الرجعية، سمح كورنيلوف لنفسه، هو أيضاً بمحاولته الانقلابية. حتى كيرنسكي كان قد وجه نداء الى البروليتاريا مثل حكومة بروفنينغ ـ سفرنغ (Bruvning-Severing). فانتظمت البروليتاريا للدفاع وتسلحت، ويُعزى الى موقفها تحطيم محاولة الجنرال الرجعي من أساسها. وهكذا وجدت المقدمات لانتفاضة اكتوبر فاذا لم تكن سوى البروليتاريا الروسية لها قيادتها السياسية ـ الحزب البلشفي ـ فان البروليتاريا الالمانية لم يكن لديها مثل هذه القيادة. غير ان الوضع كان متشابهاً بعض الشيء. فالاشتراكيون كانوا في الحكومة ـ كما في المانيا ـ الاشتراكيين الثوريين والمنشفيين ـ وفي المعارضة، البروليتاريا الشيوعية. انما في روسيا، اكتفى البلشفيون بمقاتلة وتدمير عدو واحد في كل مرة: كورنيلوف أولاً، وبعد شهرين كرنسكي، اما في المانيا فقد ارادوا حرق المراحل فجمعوا كاب وبرونيغ (Bruning)

وحدثت الكارثة. وقد ارتكب الشيوعيون الفرنسيون الخطأ ذاته في ايام باريس، في شباط ١٩٣٤، جامعين عبثاً وبشكل عجيب، حكومة دالادييه ـ فرو (Daladier—Frot) مع القوانين الفاشية. فعندما يكون الهجوم بلا قيادة قادرة، ويعمل باحتقار القواعد، الأكثر بداهة، التي تحركه، فهو لا يساوي عندئذ اكثر من دفاع غير عاقل.

ولم يكن لانتفاضة هامبورغ في تشرين الأول ١٩٢٣ قيادة اكثر عقلانية. فقد كان القادة الشيوعيون الالمان في تلك الفترة يعالجون الانتفاضة بطلاقة. وكان التمرد مرغوباً فيه منذ عدة أشهر، وكانوا قد صرفوا في هذا السبيل، أموالاً طائلة، وكيفما اتفق، إنما غالباً بشكل سيء. ويؤكد بعض الذين كانوا يعرفون الأسرار السياسية، ان بداية الهجوم كانت مرتبطة بهذه الأموال الى حد كبير. بالطبع، كان انهيار الاقتصاد الوطني، والهبوط الهائل للمارك، والعدد المتصاعد باستمرار للعاطلين عن العمل، واحتلال الرور كانت تدفع الجماهير نفسها الى عمل ثوري ضد الطبقات المسيطرة، التي تبدو في حالة تفكك. وكانت المؤتمرات السابقة للأممية الشيوعية قد أوكلت الى البروليتاريا الالمانية مهام ثورية جديدة وكان المؤتمران الأول والثاني يتوقعان صراحة ضرورة التحرك فوراً. وكان للقادة الشيوعيين اكثر من شك، نظرياً وعملياً، إذ لم يكونوا بعد قد نسوا تماماً فشل وتضعضع العصيان العمالي الذي حدث في آذار ١٩٢١. وكان مؤتمر شيمنيتز (Chemnitz) للجان المصانع قد دُعي بمبادرة من القادة الشيوعيين على أمل ان يكون الاضراب القادم قد أعلن. وكان بوسع هامبورغ، المدينة البروليتارية وطليعة التحرك الثوري، ان تحول الاضراب العام الى انتفاضة. وهكذا ستأتي البقية تلقائياً في المانيا بكاملها. غير ان غالبية المؤتمر ـ بالعكس ـ رفضت اقتراح الاضراب العام. وقد أحس الذين كانوا لا يثقون بالانتفاضة، ورغم ذلك يعدوّن لها، بأنهم تحرروا من حمل ثقيل على المعدة. غير ان البيروقراطية حتى الثورية منها لها متطلباتها. فبعد إقرار ان لا إضراب ولا انتفاضة، كان لا بد من التصرف على هذا الأساس وتطبيق قرار المؤتمر. وعلى العكس فقد اقتُرِحَ رغم هذا الواقع الجديد، أن تبدأ هامبورغ الانتفاضة بنفسها حيث كان وضعها ملائماً للانتفاضة واستعدادها لها مناسباً. كان مؤتمر شيمنيتز في ٢١ وانتفاضة هامبورغ في ٢٣. وقد وصل الأمر المعاكس للمتمردين في ٢٣ أي بعد بدء الانتفاضة، فلعبت هامبورغ هكذا دوراً طليعياً لجيش كان قد عاد الى خيمه. وباختصار، لقد كانت انتفاضة استعراضية. وكانت الأركان قد بررت المصاريف التي صرفت، وبقدرة الانتفاضة الاستراتيجية بتقديم عمل براق وبعض الضحايا.

وكان هذا الغياب الهائل للقيادة السبب الرئيسي في عدم نجاح انتفاضة **١٩٢٣**. وليس كما يؤكدون خلاف الطبقة العاملة الالمانية بين شيوعيين واشتراكيين - ديمقراطيين. بالطبع لم يسهل الخلاف النجاح. ولكنه لم يكن هو السبب الرئيسي. ففي **تورنيغه** (Thuringe) والساكس (Saxe)، حيث اتفق الاشتراكيون والشيوعيون، في الواقع، وشكلوا معاً اكثرية برلمانية، لم تجر الأمور بشكل أفضل. وقد افترسهم جميعاً الرايخشفير بسهولة دون ان يصادف اي مقاومة تذكر. كما سيفعل فون بابن مع وزراء بروسيا بعد عشر سنوات.

لم تكن الوحدة هي الناقصة بل القيادة. وقد دفعت الطبقة العاملة غالياً ثمن تلك التجارب الرائدة من كيانها النحيل.

الفصل العشرون

دوماً على الهجوم: الأستوري (آستورياس)

لقد دخلت بطولة عمال مناجم الأستوري ووعيهم الثوري في التاريخ. فالبروليتاريا الاسبانية لها ملحمتها. لكن كم من الأخطاء ارتكبت!

يتحدثون عن كومونة الاستوري كما يتحدثون عن كومونة فيينا. غير ان البروليتاريا يجب أن لا تؤخذ بالمبالغات. لم يكن ثمة كومونة في فيينا ولا في الأستوري. ففيينا لم تكن قط في أيدي المتمردين خلال انتفاضة «الشوتزبوند» حتى ولا جزئياً. وفي الأستوري كان للعاصمة اوفيادو (Oviado) حامية عسكرية لم تُمسّ. كذلك بالنسبة للمدينة الساحلية غيجون (Gijon). إذن لم يضطروا الى ممارسة سيادة السلطة الجديدة على الأرض المتمردة وبدون هذا الاضطرار، لا يمكن الكلام عن كومونة.

وتعزى هزيمة الاستوري الى النهاية التي يرثى لها لانتفاضة برشلونة، والى عدم تحرك وعدم كفاية البروليتاريا في بقية اسبانيا. وهذا صحيح بالتأكيد، ولو نسبياً على الأقل. ولكن فقط نسبياً.

إن القارىء يستطيع متابعة هذه الصفحات النقدية بانتباه أكبر إذا كان يوجد امامه خريطة مفصلة للمنطقة.

في يومي الخامس والسادس، كان الحوض المنجمي الكبير بكامله في أيدي المتمردين. وكانت ثكنات الدرك والحرس المدني وحرس الانقضاض قد هوجمت وتم الاستيلاء عليها. كان الهجوم إذن قد نفذ بشكل رائع. وعلى الفور تشكلت في كل المراكز اللجان

الثورية، وبدأ تجنيد المتطوعين، وكان في مواجهة قوات الحكومة كتلة ذات تفوق كاسح حرة التصرف والمناورة.

أوفيادو، المدينة ذات الثمانين الف نسمة، لا تتحرك. وتكتفي البروليتاريا باعلان الاضراب العام. وتنتظم الحامية، مستفيدة من جمود البروليتاريا، للدفاع وتتمترس في أهم الأبنية: معمل الأسلحة، وثكنة المشاة، والكاتدرائية، وبنك التسليف، ومركز إقامة الحاكم، وثكنة كامبوامور (Campoamor). ولم تتعد القوات ١٥٠٠ رجل من المشاة والدرك والحرس المدني وحرس الانقضاض. وكانت معنوياتهم مزعزعة بفعل انتصار الانتفاضة. وسوف يظهر ذلك في الصدامات الأولى بين الجيش والمدافعين عن البلدية.

وانزلت لجنة المنطقة الى اوفيادو ٥٠٠٠ رجل. فانضمت البروليتاريا اليهم.

لم يكن المتمردون يملكون سوى حوالي الف بندقية اخذت من الثكنات المحتلة ومن بعض المخازن السرية. وبالمقابل كانوا مجهزين جيداً بعبوات من جيلاتين يتقنون استعماله ببراعة فائقة. وبواسطة الجيلاتين هاجموا البلدية واستولوا عليها، وكان يدافع عنها حرس انقضاض ميرس (Mieres) واتخذت مركزاً رئيسياً للإنتفاضة، كذلك استولوا على ثكنة الحرس المدني في تورون (Turon)، وثكنة الدرك في مونغايا (Mongaya)، ومصنع ترومبيا (Trumbia).

وكان في مصنع اوفيادو للأسلحة ٢٤٠٠ بندقية، وزهاء مئة رشاش. وكان يدافع عنها ١٥٠ جنديا.

وكانت كمية كبيرة من الذخيرة محفوظة في ثكنة المشاة حيث كانت قد نقلت بأمر من الحكومة منذ عدة أيام. وكانت الثكنة بحماية معظم الحامية: ٨٠٠ رجل. وكان المتمردون يعرفون كل هذه المعلومات.

ماذا فعل المتمردون ؟

لزموا الدفاع. وعندما وقعوا تحت رماية الأبنية التي تمركزت فيها الوحدات، توقفوا، واكتفوا بالاستيلاء على البلدية، على أثر مناوشة قصيرة لأن المدافعين انكفؤوا سريعاً نحو الثكنة المجاورة في كمبوامور. وانتظروا دون ان يفعلوا شيئاً.

مع ذلك، يبدو العمل الهجومي واضحاً غاية الوضوح! الاستيلاء على مصنع

الأسلحة، ثم مهاجمة ثكنة المشاة، والتمون بالذخيرة، ثم مهاجمة المفارز المتمترسة الأخرى، وبعد السيطرة على المدينة، تسليح وتجنيد ٣٠,٠٠٠ الى ٤٠,٠٠٠ من عمال المناجم والعمال والفلاحين وتوسيع مسرح الانتفاضة. وكان المتمردون يملكون من الجيلاتين ما يكفي للتمكن من استعماله ليس فقط كقنابل يدوية بل ايضا، اذا سنحت الفرصة لتفخيخ الأبنية باستعماله كمتفجر وتفجيرها. بعد السادس، حصلوا على زهاء عشرين مدفعاً استولوا عليها من مصنع الأسلحة في تروبيا التي وقعت بين أيديهم، يوم السادس تماماً. ولا نستطيع الافتراض أن مقاومة قوات الحامية قد تكون عنيفة. فسوف تثبت الوقائع فيما بعد العكس تماماً. ان وحدة العشرين جندياً التي كانت تحتل مصنع الديناميت في مونغايا، وهم كلهم من فوج المشاة الثالث، اي الفوج ذاته الذي يحتل مصنع الأسلحة وثكنة المشاة كان ينتظر ان يستسلم سريعاً. وقد استسلم هؤلاء الجنود فعلاً في السادس دون ابداء أية مقاومة. حتى انهم انضموا الى الانتفاضة. وفي بعض ثكنات الحرس المدني وحرس الانقضاض في الحوض المنجمي، حصلت تراجعات سريعة جدا.

بقي المتمردون سلبيين حتى الثامن. ولم يهاجموا مصنع الأسلحة إلا في الثامن بواسطة الف متطوع مختارين. وبعكس التوقعات، وبعد مقاومة قصيرة بالبنادق والرشاشات، تخلى المدافعون عن المصنع ولجؤوا الى ثكنة المشاة التي تبعد بضع مئات من الأمتار. كانت المقاومة هشة الى درجة ان العقيد الذي كان المصنع بإمرته، قُدِّم فيما بعد الى المجلس الحربي ليحكم بثلاثين سنة سجن مع أشغال شاقة لتخليه عن مركزه.

لم يُستغل هذا النجاح العظيم بأي شكل من الأشكال. واعتبارا من هذا الوقت، اصبح بحوزتهم سلاح يكفي جيشاً بكامله. فهرع عمال المناجم والعمال يتسلحون. غير ان القيادة العسكرية للحركة ضاعت في ترقبات غير مجدية واعتبارات تافهة.

في مصنع الأسلحة، لم يجدوا ذخائر. ولكن الأمر لم يفاجئهم إذ انهم كانوا، يعلمون ذلك مسبقاً. يجب اذن الحصول على الذخائر من ثكنة المشاة. وبالسرعة القصوى في نفس اليوم الثامن من الشهر. وكانت مدافع تروبيا قد أصبحت في المدينة. فماذا كانوا ينتظرون؟

كانوا ينتظرون المعجزات ولا يفعلون شيئاً قط. كتلة مسلحة تماماً تتحرك ولكنها لا

تفعل. ويُقتل مئات العمال ببساطة دفعة واحدة وتتبعثر البطولة دون هدف ولا فـائدة. يـرجى من القارىء ان ينـظر الى الخارطـة جيداً. عشـرون الى ثلاثـين الف عامـل قد يسيرون الى مدريد ـ اكثر من ٥٠٠ كيلومتر ـ بأسلحة خالية من الذخيرة ، وفي ظهرهم حامية اوفيادو وغيجون وقيادة عسكرية غير موجودة، تلك قد تكون مسيرة جميلة. المرور بليـون (Leon) وفـلادوليـد (Valladolid) والمضي الى سـلامنـك (Salamanque) لسمـاع خطاب عن دوكيشوت يلقيه الاستاذ اونامونو (Unamuno) ثم الدخول الى مدريد: العاصمة

مثـل تلك المسيرة، حـاولها جيـوفاني مـاريا انجيـوي (G.M. Angioy) فسارهـا من ساساري (Sassari) الى كاغلياري (Cagliari). كان انجيوي رجلاً بالغ الجدية لا ينقص عن أي من قادة الاستوري وفوق ذلك كان موسوعياً: غير انه، هو أيضاً، لم يكن يتمتع بصفات عسكرية مميزة. ففي منتصف الطريق، تعرضت كتائبه لحادثة مزعجة بين سولاروسا (Solarussa) واوريستـانو (Oristano)، إذ وقعـوا على زهـاء مئة من الكهـوف المليئة بزجاجات النبيذ الأبيض حيث انتهت الحملة نهاية سيئة.

هذا لا يبدو معقولاً ولكنه كـان كذلـك: في اوفيادو، تناقشوا سـاعات حـول هذا الاقتراح، واوشكت القيادة العسكرية ان تنتهي بالاقتناع. استـراتيجية من هـذا النوع كانت قد دخلت، دفعة واحدة، في رؤوس الذين وضعوها.

الهدف! كان على بعد خطوتين وكان اسمه ثكنة المشاة. كان ينبغي السير إليه وليس الى مدريد.

لن تهاجم ثكنة المشاة إلا بعد يومين، في العاشر، ودون اي استعداد ملائم. عـلى أي حال، سيكتفي الهجوم بعمل استعراضي تسحقه الطائرات القاذفة في المهد.

وها هو الجنرال لوبيز اوشوا (Lopez Ochoa) الذي دخل ثكنة المشاة في يوم العاشر نفسه بعد محاولة الهجوم من قبل المتمردين ينقل الينا ما كانت عليه الحالة النفسية لمدافعيه. كان العسكريون الـ ٩٥٠ الذين كانوا محتجزين فيها (٨٠٠، زائد الـ ١٥٠ من مصنع الأسلحة) وبينهم زهاء عشرين ضابطاً، يفكرون بالتفاوض مع المتمردين ولولم يصل الجنرال في الوقت المناسب لكان من المرجح ان يكونوا قد استسلموا.

إن القيادة العسكرية لم تعرف ما كان عليها ان تفعل. حتى قبل ان تلوح علائم النجاح، يجب اعتماد الهجوم. وبعد النجاح الأول فالهجوم والهجوم وحده هو الذي يتمكن من كسر

المقاومة حتى ولو كانت منسقة.

كانت نتائج تلك السلبية كارثية بالنسبة للمتمردين. وبقيت الحامية مختبئة في قلب وفيادو ورمى العمال بنادقهم كأشياء ملبكة وغير مجدية بعد ان فقدوا الذخيرة. وحتى الثامن عشر، يوم الاستسلام امام قوات الحكومة، كان ثمة في كل قطاع انتظار يائس ومؤلم في توقع وصول الذخائر. وقد دافع مطلقو المتفجرات وحدهم عن المواقع واذ أجبروا على الظهور، دفعوا من حياتهم ثمن صمودهم المشرف. بوسعنا إظهار انتفاضة الاستوري من خلال عامل المنجم الذي يقاتل وحده دون تقنية ودون قائد.

هذا الموقف الدفاعي خاصة، يشرحه بعض القادة بواقع ان مدافع تروبيا لم تكن لها قذائف ذات صمامات، وأنهم لم يكونوا يرغبون في تخريب اعمال فنية ثمينة مثل الكاتدرائية، خاصة وأنه إذا أخفقت الانتفاضة في ما تبقى من اسبانيا، فلم يكن مناسباً تقديم ذريعة لردع شرس.

طبعاً، لا يمكن للقذائف بلا صمامات ان تنفع للرماية «بالشرابنيل» ولا قيمة لها في مواجهة قوات تتحرك مكشوفة. غير أنها لا شك تؤثر في بناء كالكاتدرائية او ثكنة المشاة. ان عشرة مدافع تقذف قذائف بدون صمامات على بوابة مدخل، تحطمها وتفسح المجال لهجوم مفارز مصممة. وعمال المناجم كان لديهم رجال مصممون. لا سيما وان الحامية كانت قد انسحبت الى الأبنية التي تحدثنا عنها دون ان تحتل بمفارز صغيرة البيوت المجاورة. فلم تتجرأ القيادة على بعثرة مفارزها، إذ كانت على يقين انها قد تستسلم بسهولة في مواجهة المتمردين، وارادت ان تحافظ على الوحدات موحدة ومركزة. والمدافع التي كان بوسعها ان تلعب دوراً كبيراً لو استخدمت مجمعة، بُعثِرَت بالعكس بين تروبيا اوفيادو وكمبومانيس ولم تستعمل إلا لبعض الرمايات المعزولة وغير المجدية.

كان من الواجب استخدام الديناميت بدون تحفظات. كان بإمكانهم تجميع بضعة كنتالات على جانبي الكاتدرائية وتفجيرها في حال عدم استسلام الحامية بعد الانذار. ان متطلبات هجوم سريع ومندفع لا تعرف حدوداً من النوع العاطفي او الفني. فإنّ فاغنر الذي لم يكن جنرالاً، عندما كانوا يروون له أن المدافعين عن الجمهورية الرومانية في ٤٩، فضلوا تحمل خسائر فادحة بدل ان يدمروا عملاً فنياً في جوار بوابة القديس سيباستيانو، أجاب انه هو قد يفجر رواق رافاييل وكنيسة سيكستين لو كان ذلك ضرورياً للدفاع عن الحرية.

إن الكلام الذي ورد أكثر من مرة على لسان القادة العسكريين ومفاده ان الاخفاق العام في الانتفاضة كان لا بد ان ينصح بالاعتدال في الاستوري لتجنب اضطهادات أكبر، ليس معياراً عسكرياً انتفاضياً. فالانتفاضة كالحرب لا تقبل انصاف الحلول. وعندما نبدأ بها، يجب متابعتها بكل الوسائل المتاحة وكل العنف الممكن. واذا اعترضت اهتمامات خاطئة من هذا النوع عملاً انتفاضياً،فمن غير المجدي ان نتطلع إلى نجاح ما. فحكومة مدريد التي لم يكن لديها مثل هذه الهموم، قصفت بلا رحمة اوفيادو وغيجون وميريس وسائر المراكز المنجمية دون ان تهتم مرة واحدة للتهديدات التي كان يطلقها المتمردون بالقضاء على السجناء والرهائن.

كانت الأوضاع هي نفسها بالنسبة لغيجون. فقد تُركت حامية المدينة الصغيرة الساحلية ولم يقترب منها أحد. كذلك أبقيت الاتصالات البحرية مفتوحة من قبل قوات الحكومة. كذلك لم يمس أحد المدافع الساحلية بعد محاولة متواضعة ودون نتيجة. لو تم الاستيلاء عليها، لكان المتمردون تمكنوا من منع اقتراب السفن الحربية وسفن نقل الجنود. فلجنة المتمردين في المنطقة لم تهتم لحظة واحدة بغيجون كما لو لم تكن المدينة من الاستوري. فقد تركت البروليتاريا في المدينة تتدبر أمرها بنفسها. اما هذه البروليتاريا فقد تشتتت كلياً منذ اقتراب السفن الحربية، وعادت الى اوفيادو تزرع فيها الرعب، ذلك أنها كانت سيئة التنظيم، وتفتقد الى قادة عسكريين أكفاء.

وارتكبت الأخطاء التي وقعت في اوفيادو وغيجون على جبهة كمبومانس (Campomanes). الأخطاء ذاتها: عجز القادة عن تطوير الهجوم. في كمبومانس جنوب لينا، اوقف المتمردون في السادس من الشهر حرس الانقضاض والحرس المدني القادمين عن طريق ليون. وفي السادس منه لم يكن هؤلاء سوى بضع مئات: ليس أكثر من ٣٠٠. ولدى أول صدام، انتصر المتمردون، غير انهم بدل ان يستغلوا الانتصار لملاحقة المهزومين وتدميرهم، ! اكتفوا بالمحافظة على مواقعهم. ومنذ ذلك الوقت، كانت كمبومانس، الجبهة الرئيسية للقتال، قد استوعبت القسم الأكبر من المتمردين ومن ذخائر الحوض المنجمي كله حتى ميرس (Mieres) وحول الطلائع الأولى التي هُزمت وبقيت مع ذلك في مكانها، هرعت قوات أخرى أرسلتها الحكومة. كان ثمة معركة كل يوم. ولم تتحرك القوات لأنها كانت تجد نفسها دوماً امام قوى متفوقة جداً، غير ان المتمردين لم يعرفوا كيف يصدونها. ولم تجر اية محاولة لمهاجمتهم من الخلف وتوقف انسحابهم وتحرير

طريق ليون. ولم ترسل اية مفرزة كبيرة لاستباقهم وقطع مواصلاتهم وتموينهم. وعندما هاجم الفوج المغربي والفوج الثالث من الفرقة الأجنبية الى جانب قوات أخرى نظامية آتية من غيجون، وأوفيادو، وجد المتمردون انفسهم مجمدين بين جبهتين. هكذا يُفسَّر الاحباط المفاجىء، الذي لا مبرر له، والذي انتاب بعض مفارز المتمردين ولجنة المنطقة بكاملها لدى اعلان وصول وحدات المستعمرات، ليل العاشر ولدى ظهورها صباح الحادي عشر. وقد أخليت اوفيادو وجبهة كمبومانس وسط فوضى لا مثيل لها بينما قررت لجنة المنطقة حل نفسها واعطاء الأوامر بالانسحاب العام من الحوض المنجمي بكامله، معتبرة ان كل إمكانية للمقاومة غير ذات جدوى. وكان عمال المناجم يستعيدون بمبادرتهم الخاصة المواقع التي تخلوا عنها والقتال، وعندها تمكنوا من ملاحظة ان وحدات المستعمرات، البالغة الشهرة، كانت حربية بالظاهر فقط. لو كان يوجد لدى المتمردين ذخائر كافية، حتى ولو بالنسبة للبنادق فقط، لكانوا فتتوا الجيش الرهيب، رغم غياب القادة العسكريين ونقص التنسيق في المعركة. كان هذا القتال غير المتكافىء غنياً بالبطولات الفردية. الى حد ان عمال المناجم استعادوا أوفيادو بحماسة، وقد وجد جنود المستعمرات انهم يقاتلون رجالاً بلا سلاح ينازعونهم الأرض خطوة خطوة. وحتى الثامن عشر بقي الفشل مصيرهم، فيما لم تنجح قوات كمبومانس بالتقدم خطوة واحدة. وكانت في حالة انهيار لم تتجرأ معها على الحركة نهار الحادي عشر عندما تخلى المتمردون عن الجبهة.

لقد حطم الدفاع انتفاضة الاستوري الرائعة. وتجرأ الجنرال لوبيز اوشوا بحفنة من الرجال على اجتياز القسم الغربي من المنطقة المتمردة بكامله، خلال خمسين يوماً، كما لو كان يناور في ميدان التدريب. وكانت الحكومة قد أعطت اوامر بالعودة الى اوفيادو لقيادة القوات النظامية ووحدات المستعمرات التي كان من المنتظر وصولها اليها. فذهب من لوغو دي غاليس (Lugo de Galice)، ليل الرابع منه، مع ثلاث سرايا من فوج المشاة الثاني عشر ونصف سرية رشاشات على أربع شاحنات. ونجح في الدخول الى ثكنة اوفيادو صباح العاشر، بعد ان مرّ بنافيا (Navia) ولواركا (Luarca) وسالاس (Salas) وغرادو (Grado) وبرافيا (Pravia) وسوتو دو باركو (Soto du Barco) وبييدراس (Piedras) وبلانكاس (Blancas) وافيليس (Avilès)، بعد سلسلة متواصلة من المناوشات والمعارك الناجحة. واجتاز منطقة فيها ٣٠,٠٠٠ متمرد بثلاثمائة رجل أو تأكيدا (٢٩٠ لا غير). هذا هو

الهجوم . تصرف كقائد عصابة وبتكتيك يعود الى حرب العصابات وبمواجهته ، لم يتقن المتمردون تطبيق المقاومة ولا الحرب . واكتفوا فقط بالدفاع عن أنفسهم والتصدي لقوة الجنرال ومن سذاجتهم اعتقدوا أنهم هزموه على كل الصعد لأنه هو نفسه كان ينسحب غالباً . لو كان للتمرد قيادة عسكرية ، لكان الجنرال فقد في الطريق رجالاً ورشاشات وشاحنات قانعاً بإنقاذ حياته دون رتله .

يتطلب الهجوم قادة عسكريين اكفاء . اما انتفاضة الاستوري فلم يكن لها قادة اكفاء . فان لجنة المنطقة ، التي كان مفروضاً فيها ان تكون لجنة عسكرية ثورية ، تصرفت وفق هوى الجماهير ولم تعرف سوى المقاومة السلبية . لم تكن عندها خطة حتى ولا أية نظرية . وفي ظروف كهذه فالدفاع هو الشكل الأكثر بداهة للقتال . فيبدو القتال بسيطاً . يكفي ان نصمد ونطلق النار ما دمنا نملك ذخيرة . ولم تعرف لجنة المنطقة كيف تنظم المفارز . فتشكلت مجموعات من ثلاثين رجلاً ، وكانت القيادة العليا هي لقائد المجموعة . وبقي هذا التنظيم بلا تبديل خلال فترة الانتفاضة بكاملها . وبوحدات مستقلة مؤلفة من ٣٠ رجلاً أي ما يعادل فصيلة ، ليس فقط تستحيل المناورة ـ وهي الشرط الرئيسي للهجوم ـ بل يستحيل حتى الصمود في معركة حقيقية . ويبدو غريباً في ظروف كهذه أن يكون المتمردون قد تمكنوا من القتال بعناد . وثمة ملازم اول ورقيب من الحرس المدني وقعا أسيرين فقدّما كل خدماتها للمتمردين وأصبحا القادة العسكريين الأكثر كفاءة والأكثر مسؤولية ، كل ذلك بسبب مقدار جهل المتمردين بالشؤون العسكرية ، علماً بأن حجمهم كان يؤهلهم لتشكيل قوات فيلق نظامي .

بالطبع ، نادراً ما تملك جماهير عمال المناجم إمكانية وجود ضباط قدامى في صفوفهم أو رجال سياسة مدربين عسكرياً . غير ان القيادة المركزية للحركة الانتفاضية ، في شبه الجزيرة بكاملها ، التي كانت تستعد للعمل منذ زمن بعيد ، كان عليها ان ترسل الى الاستوري أفضل قادتها العسكريين . لم يكن في أي منطقة اسبانية جماهير عمالية متماسكة مثل تماسكها في الاستوري . وكان لا بد من توقع إمكان تحولها في الانتفاضة الى جيش المناورة الرئيسي .

بذلت لجنة المنطقة ما بوسعها . غير ان اعضاءها لم يتمتعوا بقدرة الحسم اللازم الذي يمنح الشعور بالكفاءة الخاصة . فلدى أول صعوبة اعترضتهم ، نهار الحادي عشر ، اعتبرت المعركة خاسرة . وهذا ما دفع لجنة المنطقة التي تشكلت في السادس ، الى حل

نفسها في الحادي عشر. وقد تمرد عمال المناجم ودفعوا بـلارمينو تـوماس (Bellamarino Tomas) أحد قادة عمال المناجم الأكثر كفاءة، والغريب عن لجنة المنطقة الأولى، الى تشكيل لجنة المنطقة ثانية. وتشكلت هذه نهار الثاني عشر في ساما (Sama)، بحضور ممثلي اللجان المحلية للحوض المنجمي واستأنفت القتال.

ليست القيـادة العسكريـة اذن هي التي نفخت الارادة والجـرأة في الجمـاهـير بـل الجماهير هي التي نفخت الروح في القيادة العسكرية.

الفصل الحادي والعشرون

اختيار الظرف

من المؤكد ان الانتفاضة يجب ان تقترن، من أجل ان تنجح، بوضع ملائم، موضوعياً وذاتياً. غير انه من المستحيل تحديد درجة ملاءمة لهذا الوضع المزدوج. فليس ثمة قواعد صلبة كانت ام مرنة، ولا يمكن ان تكون هناك قواعد، تتعلق بالظرف الذي يجب ان يختاره القادة السياسيون والعسكريون لحركة ثورية في سبيل البدء بالهجوم. ولا نستطيع ان نحصل إلا على أفكار عامة فيما يخص المبادىء التي تتحكم في الانتفاضة، وليس على تصورات محددة. فالقرار يبدو إذن عسيراً ومعقداً. وكما هي الحال في المعارك بين الجيوش، فإن إعداد القادة لها هو ذو أهمية كبرى.

كان الظرف مؤاتياً حتماً بالنسبة لانتفاضة ريفال في كانون الأول ١٩٢٤. بينما كان أقل ملاءمة بالنسبة لمدينة هامبورغ في تشرين الأول ١٩٢٣. ولم يكن كذلك في اسبانيا عامة رغم ملاءمته لكتالونيا وللأستوري في تشرين الأول ١٩٣٤. غير ان ما يبدو واضحاً عن بعد ومع مرور الزمن، يكون في حينه غير مؤكد وغامضاً. فالقرار يجب أن يؤخذ على الفور، إذ ان المقصود هو العمل وليس اطلاق الانتقادات. ليس الظرف قضية ساعة بل قد يكون قضية يوم أو أسبوع او شهر او عدة أشهر. حتى هذا لا يمكن ان يُحدَّد مسبقاً. ومن المؤكد انه يمر دائماً بسرعة كالبرق بالمقارنة مع بطء الحكم فيه، الذي هو صفة معظم الناس، وقد لا يعود للتحسين مرة أخرى. ان معرفة اختيار هذه اللحظة هي قضية نظرية وعملية في آن.

لو تفحصنا اليوم الوضع العام الذي كان موجوداً في روسيا في تشرين الأول ١٩١٧، فإنه يبدو لنا مستحيلاً ان يتمكن التاريخ قط من معرفة وضع أكثر ملاءمة لانتفاضة شعبيّة، ونتعجب ان يكون أحد من الحزب البلشفي يناهض التمرد. إن هزيمة القوات الموالية للحكومة المؤقتة وإخضاعها والاستيلاء على السلطة السياسية من قبل المتمردين حصلت عقب معركة، اطلقت فيها عدة عيارات نارية في الهواء من قبل الجانبين ودون ان تسفر عن قتيل واحد. ويتحدث تروتسكي عن قتلى ولكن «بالآحاد» فقط ويدفعنا غموض العبارة الى الافتراض بأننا لم نكن بعد قد وصلنا الى العدد واحد. ونجد عند جون ريد (J. Reed) أثراً فقط لأحد فرسان (اليونكر) جريحاً، يصل بمساندة رفاقه، وزهاء عشرة من القتلى بين المتمردين. وقد ورد ذكر هذا النبأ كما يلي: سألت «كم قتيلاً لديك»؟ ـ لا أدري، زهاء عشرة».

رغم ذلك، لم يتخذ قرار الانتفاضة سلمياً.

ففي جلسة اللجنة المركزية للحزب البلشفي الذي دعا اليها لينين والتي التأمت عند سوكانوف (Soukanov) في العاشر من تشرين الأول والتي تقرر فيها، للمرة الأولى، تنفيذ الإنتفاضة، لم يكن موجوداً من أصل ٢١ عضوا في اللجنة سوى ١٢. وقد صوت منهم عشرة لصالح الانتفاضة ضد ٢ زينوفييف (Zinoviev) وكامينيف (Kamenev). وهذا الأخير، ولأسباب لم تكن عادية قط، كان أيضاً يناهض خروج البلشفيك آنذاك، ولكن ماذا كانت فكرة الغائبين ؟

ففي الجلسة الثانية للجنة المركزية التي دعا اليها لينين، وسط التقلبات، في ١٦ تشرين الأول في ليسني (Lessny) في ضواحي بطرسبرغ، كان عدد الحاضرين ٢٤ من اعضاء اللجنة وممثلي العاصمة. وتمت الموافقة على قرار لينين «الانتفاضة ناضجة» بـ ١٩ صوتاً ضد ٢ وامتناع ٣. كان زينوفييف وكامينيف دائماً معارضين. ولكن القرار الذي تقدم به زينوفييف، والذي كان يعتبر ان التظاهرات غير مقبولة قبل التشاور مع القسم البلشفي من مؤتمر السوفيات، والذي كان موقفه المماطل هذا يناهض الانتفاضة مداورة، فقد سقط بأكثرية ١٥ صوتاً فقط. وقد صوت الى جانبه ستة وامتنع ٣. فقد كان كامينيف مقتنعاً أن الحزب قد لا يحظى بالجهاز الكافي للانتفاضة. وكان كالينين (Kalinine) الذي أيد الانتفاضة يعتقد انه لا بد ان يكون القصد عملاً قد لا يكون ملحاً في الواقع، ويعطي لتصويته بالتالي قيمة نظرية. ففي ١٧ تشرين الأول، غداة الجلسة نشر كامينيف رسالة اعتراض ضد توجيهات اللجنة المركزية مما يظهر الى أي حد كان يعتبر

المحاولة خطرة على الثورة والحزب. كان يتحدث باسمه وباسم زينوفييف ورفاق آخرين لم يكونوا ينوون «لعب كل شيء على ورقة الانتفاضة». واستقال كامينيف من اللجنة المركزية كي لا يتحمل أي مسؤولية واعترض لوناتشارسكي (Lounatcharsky) وهو أيضاً في الصحافة. وفي العشرين منه اعلن زينوفييف في «البرافدا» صحيفة الحزب المركزية، انه يختلف تماماً مع أفكار لينين الانتفاضية. والخطير في الموضوع ان الصحيفة نشرت الرسالة مع تعليق لطيف من قبل التحرير. ومما زاد الأمر خطورة أن رئيس التحرير كان ستالين.

لم تكن الانتهازية أو الجبن، لدى رجال كانوا يتحملون في الحزب مسؤوليات جساماً وكانوا ثوريين بلا شك، هي التي دفعتهم الى الحكم على الانتفاضة بأنها لم يحن وقتها. فقد كوّن زينوفييف وكامينيف لنفسيهما منذ ذلك الحين سمعة انتهازيين لا تزال قائمة حتى اليوم. غير أنهما اليوم في السجن. والانتهازيون لا ينهون حياتهم السياسية على هذا الشكل. ولا يبدو ان لوناتشارسكي وزينوفييف قد لمعا بشجاعتيهما كثيراً. غير ان كامينيف كان يُعتبر دوماً رجلاً لا يهاب شيئاً. ورغم انشقاقه أيام الانتفاضة، فقد شارك بشجاعة في قيادة العمليات.

كان تشودنوفسكي (Tchoudonovsky) أيضاً مناهضاً للانتفاضة. بعدها، أذعن للأمر وانخرط، في العمل بعد إقراره بالأكثرية. وهو الذي سيكون عضواً في الثلاثي (Triumvirat) الذي قاد الهجوم على قصر الشتاء. قد نلومه على الاستعداد العسكري المقصّر والجهل الكامل لفن الحرب ولكن ليس على نقص الشجاعة وهذا مؤكد. أثناء الهجوم على قصر الشتاء، نجح مجازفاً بحياته في ولوجه مباغتة وإبلاغ اليونكر امر الاستسلام. وبعد الانتفاضة بقليل، واظب على العمل وجُرح في صدام مع القوزاق في ضواحي بطرسبرغ ومات فيما بعد وهو يقاتل في أوكرانيا.

ويجب الاعتراف بأن معارضة الانتفاضة كانت نتيجة لاعتقاد بعض القادة ان الظرف لم يكن مؤاتياً لمحاولة بهذا الاصرار والتطرف. لم يكونوا يرون سوى الصعوبات والمخاطر. وكانت المظاهر المؤاتية في الوضع تفلت منهم وكان الخطر مجسماً جداً. ثمة رجال لديهم مواهب متفوقة في الذكاء والثقافة السياسية إنما لديهم قدرات قليلة لرؤية سريعة للمشكلات العملية. كتب دراغونيروف (Dragonirov): «إن مبادىء الحرب هي في متناول مستوى الذكاء العادي جداً، ولكن هذا لا يعني قط ان هذا الذكاء قادر على

تطبيقها». وهكذا لم يكن كامينيف ورفاقه هم الوحيدين ذوي النزعة المماثلة في تجسيم قوات الحكومة الموقتة والرجعية في ذلك الوقت، بالنسبة للانتفاضة. ففي ليلة ٢٤ تشرين الأول نفسه وبينما كان البلشفيون يستولون بلا مقاومة على النقاط الاستراتيجية في العاصمة والمصارف ومستودعات الاسلحة والمصالح الاساسية، كان دانان (Danan) رئيس اللجنة التنفيذية لمجلس السوفيات، وأحد قادة الاشتراكية المنشفية الكبار، يؤكد ان «الثورة المضادة لم تكن قط أقوى مما هي عليه في هذا الوقت» !

وفي القاعدة نفسها، كان ثمة تردد كبير، رغم إن لينين كان يعتبرها أكثر ثورية من القادة. وفي منطقة موسكو، كانت لجنة المنطقة فقط مع الانتفاضة، بينما كان بلشفيو المدينة اكثر استعداداً لتأجيل الهجوم. وفي كل مكان تقريباً، كان الحذر ينزلق تجاه فكرة لينين المتصلبة، وكان الكثيرون يعتبرونه مجنوناً متهوراً يدفع الطبقات العمالية الى الكارثة. وكان يثقل كاهل الجميع شعور جامح بالمسؤولية.

غير أن لينين كان يتمتع بإرادة لا تقهر. ولم يكن يخشى المسؤولية، ولم يكن يهاب المجازفة بكل شيء على ورقة واحدة. وكالقائد الذي يستعد لاستخدام كل قواه في معركة حاسمة، كان يثق بهذا الظرف المنتظر منذ سنوات. وكل جهوده تنزع الى ايصال هذه الثقة التي يملكها الى القادة والى الجماهير. وفي فصل من «تاريخ الثورة الروسية» يتجاوب تروتسكي تجاوباً رائعاً مع نداء قائد الانتفاضة المحموم. وفي نجاح البلشفيين في قلب السوفيات في العاصمتين، بطرسبرغ وموسكو، يرى لينين تحولاً جذرياً في الوضع. وخلال المؤتمر الديموقراطي في أواسط أيلول، كتب الى اللجنة المركزية للحزب كي تضع فوراً على جدول الأعمال مهاجمة الحكومة المؤقتة والاستيلاء على السلطة السياسية. أما اللجنة المركزية فلم تعتقد قط ان الظرف ملائم وترد اقتراحاته. ويلح لينين ويكتب الى اللجنة بلهجة عنيفة. كان رئيس لجنة السوفيات في فنلندا على علاقات وثيقة معه، وفي نهاية أيلول، يحثه على خلق منظمة انتفاضية وسط الحزب تبدأ بالاستعداد للعمل. ويكتب أيضاً الى اللجنة المركزية ويستعمل عبارات جدلية عنيفة مستنكراً ان لا يرى الآخرون ما يراه هو بوضوح كبير. «الانتظار أكثر من ذلك حماقة كاملة». وأخيراً وبعد فراغ الصبر، واشارة الى اعتراضه، ومن أجل الحصول على حرية العمل في الحزب يقدم إستقالته من اللجنة. غير ان هذا التهديد بقي بلا نتيجة. وفي الأيام الأولى من تشرين الأول، يوجه نداء مباشراً من خلال البلشفيين القدامى الى لجان موسكو وبطرسبرغ

متخطياً اللجنة المركزية ويحثها على التحرك للانتفاضة. «التأخير خطأ». ويوصل الى لجنة حي فسيبورغ، الأكثر ثورية في العاصمة، الرسالة الموجهة الى اللجنة المركزية كي تتعرف القاعدة على فكرته وعلى خلافه مع القادة. وتندفع القاعدة وتضغط على اللجنة المركزية. وفي مؤتمر الحزب في بطرسبرغ، يوصل ارشاداته ويحث المندوبين على تأييد الانتفاضة. وفي ٨ تشرين الأول، يتوجه الى المندوبين البلشفيين لمؤتمر المنطقة المقبل لسوفياتات الشمال: بطرسبرغ، وموسكو، وكرونشتادت، وهلسنغفورد(Helsingford)، وريفال اي عاصمتين والقلاع البحرية وأسطول البلطيق. ويخرج من مخبئه ويقدم نفسه لجلسة اللجنة المركزية في ١٠ تشرين الأول وينجح في الحصول على تأييدها للانتفاضة.

لولا رؤيته الواضحة للوضع، وتصميمه على عدم ترك الظرف الملائم يمر سدى، لكان من الصعوبة إحباط الحكومة المؤقتة. ولكانت الرجعية عادت من جديد الى روسيا كما عادت من جديد الى ايطاليا والمانيا والنمسا. وإذ توافقت الشكوك والتفكك الى الجنود والعمال في القاعدة مع تردد القادة، فلا يجب الاعتقاد ان كل شيء كان مهيأً للضياع. ان الانتفاضات هي أحداث غير منتظمة كي يمكن ان تحصل دوماً بالحماس. فهي مثل الحرب، حوادث لا مفر منها، ونتائج حتمية لاحداث سابقة، لا يحسبها الشعب أبداً. وكان العمال في بطرسبرغ قد حققوا انتفاضتين وفي السنة نفسها، وفي الواقع، قد يكون من المنطق القول ان تحقيق ثالثة هو من ضمن رغباتهم ثم ان انتفاضة تموز تركت انطباعاً غير مشجع أبداً. أما الجنود فرغم ارادتهم بالتخلص من الحرب والعودة سريعاً الى منازلهم واقتسام الأراضي فيما بينهم، كانوا مع ذلك في حالة فوضى غريبة. وكانت الأفواج قد بقيت مستعدة بمعجزة فقط وبفعل ما تبقى لديها من العادة العسكرية التي بموجبها تستطيع مفرزة ما ان تأكل وتنام وتخرج دون ان يطلق الجنود النار على بعضهم البعض. كان تحريك فوج في المدينة، سلمياً، يضاهي بصعوبته استخدامه في معركة حقيقية. كانت مفارز بكاملها قد تخصصت في فن الاسترخاء وفي فن حربي لا يقل عن ذلك في فرط حبات دوار الشمس ببطء. كانوا يملكون أسلحة ولكن القلة بينهم هم الذين كانوا يفكرون بضرورة استخدامها. إن الحدث الأكثر تمييزاً في تلك الأيام هو ان الانتفاضة لم تكن تبدو كعمل غير شرعي ودام فقط بل كإثبات للقوة مشروع ومسالم. شيء ما يشابه ما حصل في ٢٢. لو طالبت أغلبية السوفيات بالسلطة، فبأي حق يعارضها كرنسكي؟

إن حالة نفسية كهذه، مشتركة بين قسم كبير من الحامية والجماهير العمالية في بطرسبرغ كانت خيراً وشراً في آن معاً. كانت القناعة بمشروعية قلب الحكومة الموقتة قناعة عامة، ولم تكن عمل طليعة متحمسة بل عمل كل الطبقات الشعبية. وكان ذلك خيراً بالتأكيد. ولكن، من جهة ثانية، كانت سهولة انتقال السلطة ـ من كرنسكي الى السوفيات ـ تبدو مجردة من المقاومة الى حد ان الجماهير لم تكن تحلم حتى بوجوب مجابهة مخاطر جدية. وكان ذلك شراً، إذ ان معركة يتيقن فيها المهاجمون من كون العدو مستعداً للاستسلام، توشك ان تنتهي نهاية سيئة إذا رد العدو بحد أدنى من المقاومة. ان العمل الذي دار حول قصر الشتاء، والذي شكل العمل العسكري الأهم في انتفاضة اكتوبر، هو إثبات لتلك الحالة الذهنية المميزة للغاية والتي، بفعل الحظ، ميزت أيضاً القوى الفاعلة المقاومة للحكومة الموقتة. وهذا يذكرنا بالمعارك الغريبة في القرن الخامس عشر في ايطاليا، ومنها معركة انغييري (Anghieri) حيث كانت جلجلة الأسلحة كبيرة. يقول ماكيافلي **(المعمعة دامت من عشرين إلى أربع وعشرين ساعة) ومع هذا لم يسقط من الجانبين غير قتيل واحد. وكان ذلك بالصدفة، لأن ذلك البائس كان قد ارتكب حماقة الوقوع عن الحصان ورأسه إلى أسفل.**

كان قصر الشتاء النقطة السياسية الأهم. فبعد ذهاب كرنسكي للتفتيش عن قوات موالية، كان كل أعضاء الحكومة قد تجمعوا حوله. وفي القصر، كانت تصطف المفارز الأكثر ولاء، حوالي ١٥٠٠ رجل: هم الوحيدون من العاصمة كلها. كانت تلك قلب المقاومة. ومن بين كل الأهداف المعينة، كان، وفق مخططات القادة، هو أول هدف يجب الوصول اليه. غير ان الانتفاضة كانت قد اتجهت نحو خط المقاومة الأدنى منذ ليل ٢٤ الى ٢٥. وتم الاستيلاء على القصر في آخر المطاف. فمن مهلة الى مهلة ومن إنذار الى إنذار، قضوا ليل الخامس والعشرين ونهار الـ ٢٦ بكامله حيث وقع عدد وافٍ من المتغيرات، وأخيراً في ليلة الـ ٢٦، كانت المفاجآت أكبر عدداً من التوقعات. فقد اكتُشف مثلاً ان المدافع التي سيُقصف بها القصر كانت صدئة. وعندما حصلوا على المدافع الملائمة، اكتشفوا انه ينقصها مدفعيون. يجب الاعتراف بأن أفضل قطع المدفعية في العالم لا قيمة لها من غير مدفعيين. ثم بعد إعداد كل شيء، لم يتمكنوا من إيجاد أي مصباح أحمر، هذا المصباح الذي رفع على قلعة القديسين بطرس وبولس وكان عليه ان يعطي اشارة البدء باطلاق النار. باختصار ـ لماذا لا نقولها ـ كانت الأشياء تجري بشكل لا يبشر بالخير. **إلا أن الأمور لم تكن أفضل حالاً. كان الدفاع مكوناً**

على هذا الشكل: وحدات كبرى من مدرستي الضباط (يونكر) في اورينباوم وبيترهوف (Peterhof)؛ وبطارية من ٦ مدافع من مدرسة المدفعية في كونستانتين؛ ونصف سرية من كتيبة اليونكر اختصاص هندسة، وسريتان من قوزاق الأورال، وسرية انقضاض من الكتيبة النسائية (إذن، أين ذهبت النساء تتدخل؟) وأربعون عجزة من خيالة القديس جاورجيوس. كل هذه القوى التي اجتمعت كتلاً صغيرة تبعثر معظمها الى مجموعات صغيرة اثناء العمل. اما المحاصِرون الذين فتحوا الصفوف لادخالها الى القصر فقد أعادوا فتحها لاخراجها. وكان لدى المدافعين أمر بعدم البدء باطلاق النار، أما المهاجمون فكان الأمر لديهم بألا يبالغوا بالشراسة. لا أحد يستطيع القول من أطلق النار أولاً. ولكن في وقت ما كان الجميع يطلقون النار. في الهواء، كما لو كان العدو شبحاً خفياً هائماً في السماء. كان لا بد من اعصاب فولاذية لمقاومة كل ذلك. ولم يكن لمدفعية اليونكر تلك الأعصاب المتينة فتخلت عن القصر. وفعلت كذلك مفرزتا القوزاق. واستسلمت مجموعات من اليونكر على مسؤوليتها الشخصية دون انتظار إذن من رؤسائهم الذين استسلموا جميعاً بدورهم. واستسلمت سرية الانقضاض النسائية لدى أول عمل عنف، بدافع من الخوف والغنج في آن معاً..

هجوم جدير بالتذكّر!

فقد نجحت الاحصاءات، وهي علم دقيق لا يفقد اتزانه في الأوقات الأكثر اضطراباً، باعطائنا العدد الصحيح لطلقات المدافع التي اطلقت بالقذائف على قصر الشتاء: **٣٥. والطلقات التي أصابت أهدافها: ٢، ومع هذا فليس من المؤكد أن تكون الطلقات الـ ٣٥ المذكورة قد أطلقت بقذائف ام أطلقت طلقات خلبية. كصوت** فقط. إذ انه لم نحصل قط على اي اثر أو خبر بخصوص الـ ٣٣ التي، وفق حسابات الإحتمالات قد تخطت قصر الشتاء. ومع ذلك كان في المدينة مجال كاف لتلقي تلك القذائف الـ ٣٣ الهائمة في الليل. في القصر لم يُعثَر لها على أثر. ومع ذلك، فقد كان قصر الشتاء يشكل هدفاً كافياً لقطع مدفعية الميدان التي كانت تقصف على بعد ٨٠٠ متر، حتى لا تقع بعض القذائف بين حصون قلعة القديسين بطرس وبولس. كان ذلك ليلاً، هذا صحيح،! غير ان الرماية كانت مباشرة. يقول تروتسكي الذي لا يخفي كبرياء معينة لهذه المدفعية المحاصِرة التي استطاعت ان تعمل في ظروف استثنائية للغاية: «ان الترقيمات المتوقعة مسبقاً قد روعيت بالكامل». ويجب التذكر أن الترقيمات كانت قد

حسبت نهاراً لا ليلاً، إذ انه وفق الخطة الأولى كانت المدفعية ستفتح النار ظهر الـ ٢٥. وفي هذه الحالة، ولولا آثار القذيفتين اللتين انفجرتا في قصر الشتاء، كان لا بد من التفكير ان كل ضوضاء القصف التي أصمّت الآذان في بطرسبرغ خلال بضع ساعات، لم تكن باختصار سوى دخان. والأرجح ان المقصود فعلاً هو الدخان وليس أي شيء آخر، رغم القذيفتين. هاتان القذيفتان، في الواقع، ردّهما التقنيون الموجودون الى مدافع «الأورورا» أي لمدفعية بحرية لا ميدانية. ومن المؤكد الآن ان قلعة القديسين بطرس وبولس اطلقت النار بواسطة قطع ميدانية. والمؤكد ايضا ان «الأورورا» لم تطلق قذيفة واحدة. «الأورورا» اطلقت فقط رشقات، لا شيء سوى رشقات !

أما النهاية فهي مثيرة كذلك. فقد تمكن البحارة والحراس الحمر المهاجمون من دخول القصر بمجموعات صغيرة، متفرقة او مجتمعة مبعثرة ومجمعة من خلال ممرات لا يحرسها أحد، اكتشفوها في آخر لحظة. وقد سهل الليل والأنوار المطفأة في قصر الشتاء الانقضاض الأخير. ونجح المهاجمون في ولوج مبنى القيادة العامة للعدو الذي استقبلهم بشهامة دون ان يطلق طلقة واحدة. هكذا يقتضي النبل. والمهاجمون أيضاً لا يطلقون النار. لقد كانوا مدججين بالسلاح، وانتهوا وسط اليونكر وهم أيضاً مدججون بالسلاح. ودخل المئات والمئات وكلهم يتخلون عن سلاحهم حتى صرخ أحد اليونكر: «أنتم سجناء ! ». الى درجة انه في البلبلة العامة، تأخر بعض البلشفيين بالفكر لمبادرة اليونكر بالقول: «بل انتم السجناء!» فقبلوا بذلك فوراً. وأخذ اليونكر يتخلون عن سلاحهم. هذا هو العدل. فقد أتى دورهم.

هكذا تم الاستيلاء على قصر الشتاء. ومعه ١٨ عضواً في الحكومة الموقتة. كان الهجوم في تطوراته العسكرية، غير الدامية، قد دام ٨ ساعات. وحدها ضجة المدفعية هي التي اعطت للعملية مظهراً حربياً. غير ان السلام كان عاماً في القلوب. وقد أطلق سراح المدافعين بوعد شرف وخرجوا من القصر مشيعين بمودّة من جانب الجموع الشاكرة.

الفصل الثاني والعشرون

المؤامـــــرة

لا يجب الاعتقاد ان الانتفاضات تأتي بغتة كالبَرد. ويكثر الترديد غالباً، بأن الشعب يحلّ العدالة كالبرق، في الوقت الذي نتوقعه الأقل، ان ثقة متفائلة كهـذه، ولّدت ولا تزال تولّد الكثير من الخيبات في المعسكر المناهض للفاشيـة الايطاليـة والالمانيـة، الذي يدمج اماله الخاصة مع الواقع، يبشّر بانقلابات كبيرة بانتظام دوري. وتأتي بعدها خيبة، ثم يتكرر ذلك من جديد.

في إيطاليا، ومنـذ مزّيني وحتى اليـوم، يرددون انـه في المساء الـذي سبق انتفاضة ميلانو، كان كتانيو (Caftanio) ما زال يعتقدها مستحيلة. وهذا صحيح بالتأكيد. حتى انه كان يحكم بأنها مستحيلة ايضا في صباح ١٨ بالذات، عندما كان يعتقـد ان الجيش النمساوي كان مستعداً لاقتراف مجزرة ويرغب بهـا. فبعد بضـع ساعـات من مظاهـرة كانت ستكون شرعية وسلمية وفق معظمهم، ظهرت المتاريس. ولكن اعتبارا من أيلول ١٨٤٧، وحتى آذار ١٨٤٨ حصلـت سلسـلة طـويلة ومتـواصلة مـن المـظاهـرات الشرعيةواللاشرعية أظهر الشعب من خلالها صراحة، كرهه للنظام الغريب وارادتـه في عدم تحمله اكثر من ذلك. ومنذ وفاة رئيس الاساقفة غايسروك (Gaisruk)، أثبت تعيين رئيس الاساقفة الايطالي الأول كم كان العداء عميقاً في المدينة تجاه الاحتلال المعادي. اما التدابير التي اتخذتها الحكومة لمنع مظاهر الفرح فقد زادت من هياج الشعب ليس إلاّ. ولم يتوقف الميلانيون عن إظهار انه قد تولد لديهم وفي بيوتهم وفي الكنيسة وفي الشارع او في المسرح شعور بحقهم الخاص وبقوتهم الخاصة. وفي النهاية، كـانت النفوس تلتهب

اكثر فأكثر لدى اعلان كل خبر: ففي يوم حصلت الانتفاضة في باليرمو، وفي يوم آخر الدستور في نابولي، وفلورنسا وتورينو، وفي يوم انتفاضة في باريس، وفي آخر انتفاضة فيينا. وكل حدث يستتبع تظاهرة فرح عامة. وكانت تسري أخبار خفيفة عن مخازن أسلحة معدَّة من قبل الشعب، أو عن وصول وشيك لعشرات الآلاف من البنادق الحربية. أخبار تسري في جميع ساعات الهيجان العام، مشفوعة بالتأييد وتلهب حماسة العناصر الأكثر حربية. كان النمساويون يعتقدون انهم يدافعون عن انفسهم بإبعاد المحرضين السياسيين الأكثر خطراً، غير ان هذه الاجراءات الممتازة في حقبة رضوخ خائف، لم تفعل سوى زيادة التوتر والحقد. ولم تكن مذكرات الجلب من قبل الشرطة لاجراء محاكمة سريعة، أي السماح بالملاحقة امام العدالة والقاء القبض خلال الساعتين، لم تكن ردعاً بل تحريضاً. وكتب كتانيو نفسه: «الدم لم يعد يخيف». كانت تلك باختصار الساعة التقليدية للانتفاضة الناضجة التي لم يتقن كتانيو توقعها، إذ جسّم قوات الجيش بالمقارنة مع قدرة الجماهير الثائرة. ولم يكن كتانيو يدرك انهم قد وصلوا بعد طريق طويل الى المرحلة الأخيرة. غير انه من المستحيل القفز فوق مسافة والوصول الى المرحلة الأخيرة برجلين مكبّلتين.

في فرنسا كذلك، يتردد غالباً انه لم يفاجأ بالانتفاضة الباريسية في شباط ١٨٤٨ اكثر من قادة الحزب الجمهوري انفسهم، اي لودرو رولان (Ledru-Rollin) وارمان مارا (A. Mara) ولوي بلان (L. Blanc) الذين فوجئوا كما لو ان لويس فيليب قُلب بنزوة مفاجئة. وفي الواقع لم تحصل انتفاضة شباط فجأة قط. فقد سقط لويس فيليب كما سق دون بيدرو (Don Pedro) آخر أباطرة البرازيل. الملك، لم يعد له من يدافع عنه؛ والجيش نفسه كان في أزمة. فسقط كما تسقط ثمرة ناضجة من شجرة نهزها. وكانت ولائم ديجون وليل (Lille)، في نهاية كانون الأول ١٨٤٧ تشبهان معركتين لطلائع كانت الملكية عاجزة عن الرد عليهما. ولم تعد الخطابات والكتابات المعارضة الأكثر التهاباً تثير أية مفاجأة إذ ان فكرة انتفاضة قريبة كانت عامة الى حد كبير. وكان للصحيفتين الجمهوريتين «الوطن» (Le National) و«الاصلاح» (La Réforme) الأولى صحيفة البورجوازية الثورية، والثانية صحيفة الشغيلة الباريسيين، كان لهما طالع وانتشار كبيران جداً. وكانت القوات الجمهورية تكسب كل يوم أرضاً أوسع، فيما ينكسف انصار الملكية. وهكذا نفهم كيف إنه في وليمة الدائرة الثانية عشرة، تقدم الشعب واثقاً من نفسه وجاهزاً للقتال.

كذلك بالنسبة لانتفاضة شباط ١٩١٧ في روسيا. فإنه يتردد غالباً ان لا أحد كان قد توقعها وإنها حصلت فجأة. فقد بدا بازيل ماكلاهوف (B. Maklahov) زعيم الأحداث مذهولاً تماماً. ويذكر كرنسكي الاجتماع الذي عقده عنده، في ٢٦ شباط، عشية الانتفاضة بالذات، ومكتب المعلومات للأحزاب اليسارية (الاشتراكيون الثوريون، والمنشفيون والبلشفيون والاشتراكيون والشعبيون وحزب العمل). ويعلن ان الأكثر تطرفاً بالذات كانوا يعتقدون ان الحركة الثورية في تقهقر؛ وان العمال غير المنظمين وغير الموجهين باتوا سلبيين ولم يستجيبوا لتحريضات القوزاق، وانه كان يجب استبعاد اي انتفاضة فورية؛ وأنه كان يجب تركيز كل القوى على الدعاية: الوسيلة الوحيدة لاعداد حركة ثورية وجدية للمستقبل. بالطبع لم يكن مكتب المعلومات هو الأكثر اطلاعا في العالم. انما انتفاضة بطرسبرغ رغم ان أحداً لم يتمكن من التكهن بها ليوم او لآخر، كانت مثل كل الانتفاضات الشعبية العفوية، تبشر بها أحداث كثيرة: المجاعة، والرواتب المتدنية التي لا تتناسب مع غلاء المعيشة، وآلام الحرب وطولها ومليون من الفارين، وفوضى الطبقات الحاكمة وعجزها وفساد أوساط البلاط التي لم تكن وفاة راسبوتين سوى المظهر الأكثر جدة لها، كان كل ذلك قد ولد لدى الجماهير حالة تحريض دائمة. لم يكن نيقولا الثاني هو الذي حُكم عليه، في ذلك الوقت، بل القيصرية وبشكل نهائي. فقد كان نهار ١٨ تشرين الأول ١٩١٦ في بطرسبرغ مقدمة للانتفاضة، وكان لا بد من انتظار تكراره. في ذلك النهار المشحون بالضوضاء نزلت جماهير عمالية غفيرة الى الشارع في وضع متمرد لم يظهر منذ ١٩٠٥. والواقع المعبر هو ان الجنود كانوا قد تآخوا معها. وعندما أطلق الفوجان النار على الشرطة، وليس على الجماهير، لم يكن ذلك حادثة واضحة للفوضى العسكرية، كما ارادت اعتبارها الدوائر الرسمية، بل البرهان على هذا التضامن الذي كان قد ولد بين الشعب والجيش من فوق الهرميات الحاكمة وبمواجهتها. تلك ستكون ميزة الانتفاضة الوشيكة. وأعمال القمع التي فُرضت، في ٢٧ تشرين الأول، وقضت بإعدام ١٥٠ جندياً، ينتمون الى الفوجين، رمياً بالرصاص، أثارت اضراب الطبقة العاملة، كما وثق هذا الحادث المزدوج الرابطة بين الحامية والجماهير الشعبية. لم تكن الانتفاضة بالقوة بل بالفعل. على كل، كانت الأيام التي سبقت انتفاضة شباط ـ من ١٠ الى ٢٦ ـ جميعها أيام اضطراب وغليان.

فالانتفاضات تعلن عن نفسها دوماً حتى ولو لم يكن من السهل دوماً توقع سياق تطورها.

ليست الانتفاضات العفوية للجماهير قط مفاجئة. فالانتفاضة ليست أبداً وميضاً في سماء هادئة. وأكبر عمل طائش ترتكبه أية حركة ثورية هو أن تطلق طليعتها المسلحة في العمل الحاسم، معتمدة على النضج الثوري للجماهير، ولكن دون التأكد من ذلك مسبقاً وبشكل محسوس. ويجب ان يعتمد قرار الانتفاضة على أمرين مسبقين: كفاءة الطليعة المسلحة في شن الهجوم، وقدرة الجماهير على التدخل لمساندتها. كذلك فإن قدرة الطليعة يمكن ان يجري تقديرها من خلال تنظيمها وتدريبها، وباختصار عبر قوتها الفعلية المنظورة، وليس على الخريطة بل على الأرض، وأيضاً تُستنتَج القدرة الانتفاضية للجماهير من وقائع محددة جيداً في كل من المدينة والريف. إن كل ذلك سيكون حتماً أعمالاً دامغة حقيقية، عليها ان تقدم برهاناً على ان الوعي الشعبي قد خضع لتحول جذري، وان حالة من الهيجان والأصرار المتصاعدين حلت مكان حالة اخرى من الاستكانة والرضوخ.

هذه الوقائع المعبرة عن الوضع الثوري الناضج ضرورية كي تقرر قيادة حركة ثورية اطلاق الانتفاضة. اما إقرار الانتفاضة في غياب ذلك فقد يكون تهوراً من المسؤولين. اليوم مثلاً في كانون الأول ١٩٣٥، حتى لو كان للحركة المناهضة للفاشية الايطالية طليعة مسلحة قادرة على الانتقال الى الهجوم، قد لا تستطيع اي قيادة سياسية ان تتحمل جدياً مسؤولية البدء بالهجوم، إذ ليس من واقعة من هذه الوقائع ظهرت رغم الكره الحقيقي للطبقات الشعبية تجاه حرب أفريقيا. فليس ثمة ردة فعل بين الفلاحين ولا بين العمال ولا بين الجنود. فالوضع بعيد جداً عن النضج.

قد تكون الأحداث المعبرة التي نتحدث عنها من نوعيات مختلفة، وقد تظهر في نقاط متعددة. لا يكفي ان تبقى أعمالاً فردية معزولة ومتفرقة، إنما يجب ان تكون تعبيراً عن حالة ذهنية جماعية للجماهير الريفية والمدينية. مظاهرات عامة، وانتفاضات، وأعمال تمرد، ومحاولات متكررة للتمرد، وصراعات مع القوات المسلحة، او تأييد واضح من هذه القوات للمطالب الشعبية: تلك هي بعض الوقائع التي تتيح التفكير بأن البلاد في حالة قادرة على الانتفاضة.

إن حركة ثورية جيدة الأطر تصبح قادرة ايضاً على تنظيم بعض تلك الأعمال التي ذكرناها في نهاية الفصل الثالث عشر، معارك طليعية. هذه المعارك تضع على المحك القوة الحقيقية للنظام ونقاطه الأضعف، وتثبت المستوى القتالي لدى الجيش ولدى

الميليشيا ولدى المنظمات الفاشية عامة وروح الجماهير.

وعندما نحصل على هذا البرهان، بأن العناصر المطلوبة موالية، عندها فقط، يتقرر العمل الطليعي وتطعم المؤامرة بالانتفاضة الشعبية. فالمؤامرة بالنسبة للانتفاضة هي مثل خطة العمليات بالنسبة لمعركة في حرب بين الجيوش.

إن الشرط الأول المطلوب من المؤامرة هو السرّية. والمشكلة بالنسبة لنا نحن الايطاليين خطيرة جداً، بسبب اعتيادنا الكلام وإيثارنا الثرثرة على السكوت. إن الجلسات الاستثنائية للافنتينو (Aventino) لا تزال جديرة بالذكر، فقد جرت في لجنة مصغرة وبشكل سري. كان عدد الرؤساء خمسة فقط ولكن كان أحدهم دائما يشعر بالحاجة الملحة لاعلام صديق، أي الجمهور، ودائماً وبعد ساعة من كل اجتماع، كانت الحكومة تعلم كل شيء. صحيح انه عملياً لم يكن ثمة فارق بين انعقاد جلسات «الافنتينو» علنا أو بالسر، إذ انه لم يكن عدائياً قط، أكان بالفم المقفل او بالفم المفتوح. كان بوسع المعارضة ان تطمئن لملاحظة انها بدورها كانت تعلم بمناقشات الجلسات السرية لمجلس الوزراء الفاشيين، بعد ساعة. ويكره الايطاليون هذا الالحاح الفيثاغوري بالصمت. ففي ايطاليا، حتى الأخوة الترابيون (Trappistes) يتكلمون. لقد دفع الجنرال كابيلو ثمن نزعته الخطابية أشغالاً شاقة. لقد كان قائداً حربياً كبيراً يعرف معنى أسرار الحرب. علاوة على ذلك، فقد كان مارشالاً في الماسونية الايطالية، حيث السر يجب ان يكون السيف والترس للمعركة اليومية. لقد أثبتت الوقائع فيما بعد ان سر المحافل لم يكن أكثر قواماً من سر الصالونات. فالماسونية الوحيدة حيث السر هو حقاً شيء جدي في ايطاليا هو سر اليسوعيين. غير ان أصله وادارته غريبتان عن ايطاليا.

إن التيارات الشعبية نفسها لها القليل من التراث في هذه المادة، وليس التجديف سوى التعبير العفوي والمركب الذي من خلاله يترجم الايطالي في ومضة ما تختزنه مشاعره الخفية. لقد شذّ بعض أندية «الكاربوناري» التي لا تزال بعض فروعه موجودة اليوم في بعض المناطق من ايطاليا الوسطى. فالسر عندهم مطلق. والشرطة الفاشية لم تكتشفهم ولن تكتشفهم. فهم جامدون سياسياً ولكن سريون دائماً، ويعيشون في حالة متخشبة الى درجة أنه من المستحيل معرفة ما إذا كانوا أحياء أو أمواتاً. فالسر هدف بحد ذاته ولا يُستبْعد أن تنعقد الاجتماعات بحضور شخص واحد.

يتعلق سرّ المؤامرة بالصيغ التي وفقها تقرر القيادة السياسية والعسكرية لمنظمة ثورية البدء بالانتفاضة ولا علاقة له بالانتفاضة عامة. فهذه بالمعكس يجب ان تظهر للجميع كأنها محتملة وربما قريبة. إن حكومة دولة توشك على دخول الحرب تحتفظ بالصمت ان على صعيد التعبئة العامة او على صعيد العمليات الاستراتيجية، إنما تحضر الرأي العام للبلد برمته للحرب، يوماً بعد يوم وبكل الوسائل. كذلك تحتفظ قيادة حركة سياسية بالسر حول المؤامرة الحقيقية للانتفاضة (اليوم والمكان والتشكيلات العسكرية وخطة العمل الخ.) ولكنها تتصرف كي تُعتبر الانتفاضة من قبل الجماهير كطموح وضرورة لا بد منها. وتقدم الانتفاضة البلشفية في تشرين الأول وانتفاضة هامبورغ ١٩٢٣ في بعض مظاهرها المثل على ما يجب ان تكون عليه المؤامرة والسر والانتفاضة. يجب ان تؤخذ القوات المسلحة للرجعية بغتة، لا الرأي الشعبي.

وسر المؤامرة هو الذي يسمح بالمبادرة والمباغتة بالعمل. كانت المؤسسات العامة قد احتلت جميعها تقريباً من قبل المتمردين في بطرسبرغ، ليلة ٢٤ الى ٢٥ تشرين الأول ولم يكن للحكومة فكرة صحيحة عما يجري. لقد حاول المنشفيون انفسهم العمل على إعادة الهدوء معتقدين، بكل نية حسنة، ان المقصود مبادرات فردية فاشلة. مع ان الانتفاضة كانت على جدول اعمال جميع اجتماعات العمال والجنود. فقد تمكن البلشفيون من تقديمها على انها عمل دفاعي مفترض يبدو تحقيقه مرتبطاً بموقف الحكومة. اما الذين كانوا في صفوف الأعداء، مقتنعين ان البلشفيين قد يتحركون مهما كان الثمن، فقد أضاعوا الاتجاه. إذ انه في المرحلة الأولى، اعتقدوا ان اليوم المحدد للعمل كان ٢٠ تشرين الأول ثم ليلة ١٦ الى ١٧ وأخيراً ليل ٢٢، الى درجة بلغوا معها فقدان الايمان بذلك. أما في هامبورغ ورغم ان المدينة كانت في حالة اختمار كبيرة وان الجماهير كانت تنتظر من وقت لآخر، نداء الى العنف لم تكن السلطات المحلية تتوقع الانتفاضة وقد أخذت الشرطة على حين غرة.

وقد تفلت المبادرة والمباغتة من يد القادة الانتفاضيين اذا لم تبق المؤامرة مخفية في كل مراحلها. نفهم بالمباغتة هنا، ليس احتمال شن هجوم سهل على ثكنة او مبنى نفع عام، بل أفضلية التمكن من شن هجوم عام عندما لا تتوقعه الرجعية حتى ولو كانت المباغتات الهجومية المحلية غير ممكنة. بينما في الحرب التقليدية، لا تعني مباغتة الهجوم مفاجأة فيلق عدو في رقاده، بل ايقاع مجلس قيادة الجيش المعادي في الخطأ ومنع إمكانية نشر عام

للقوات يحصل في الوقت المناسب قادر على صد الهجوم.

وقد غابت المباغتة تماماً عن الانتفاضة الاسبانية في تشرين الأول ١٩٣٤. ولم يكن الحزب الاشتراكي هو الذي اتخذ مبادرة الهجوم بل فريق ليرو- جيل روبلز. فمنذ عدة أشهر، كان قادة الحزب الاشتراكي قد اعلنوا للملأ انه في حال وصول اليمين الرجعي والمناوىء للجمهورية الى الحكومة، فالطبقة العاملة قد تلجأ الى الانتفاضة لمنع اغتصاب الجمهورية. إن إعلاناً كهذا كان التزام شرف علنياً يقدم لليمين أفضلية الاختيار، له نفسه وليس للآخرين، بسبب الظرف الذي يضطر فيه الحزب الاشتراكي للتحول الى حالة التمرد. فاختارت الظرف الانسب لها. الجيش مضمون، والاتفاق على السلطة كامل، وغياب الوفاق بين العمال والفلاحين، وانشقاق في اوساط الجماهير العمالية بين فوضويين واشتراكيين، واعتقال العديد من القادة الفلاحين الثوريين، وغياب اليسار الجمهوري من التحالف العمالي، واشمئزاز كبير في قلب الحزب الاشتراكي نفسه من اللحاق بلارغو كباليرو في العمل اللاشرعي. فاليمين هو الذي اطلق الانتفاضة. وتشاور فريق روبلز-ليرو واسقطوا الوزير سامبر وذهبوا الى الحكومة. وأعلن الحزب الاشتراكي والاتحاد العمالي العام الاضراب الشامل. وحطمت الحكومة الانتفاضة فوراً. إنما بعد كل حساب، كان خطأ الحزب الاشتراكي مدمراً بحق الرجعية اكثر منه بحق الطبقات العمالية. فقد أضفت أهمية التمرد في الأستوري على الانتفاضة العامة طابع المباغتة رغم فشلها. ففقدت الحكومة عقلها في الأيام الأكثر حرجاً. وأخيراً ورغم انتصارها، لم تتجرأ على وضع خطة القمع الموضوعة مسبقاً موضع التنفيذ. ويبدو ان ماسونيلسكي (Massonilsky) كان يميل الى السخرية عندما طرح ان الثورة في اسبانيا ربما كان لها أهمية أقل من أي اضراب جزئي في أي بلد أوروبي. فقد دمر ثلاثون ألف عامل منجم التقليد الأوروبي لاسبانيا ذات الصنوج (Caștegnettes) وأوقفوا الرجعية في بلادهم واعطوا للعالم درساً حول ما يمكن ان تفعله الطبقة العاملة ضد الفاشية.

عندما يملك قادة الانتفاضة المبادرة، يمكن ان يتقرر الهجوم في تاريخ محدد. وتبدو الانتفاضة بتاريخ محدد سخافة بالنسبة لكثير من الناس ولكنها ليست كذلك. فعندما تتوافر كل الظروف المسبقة الضرورية والمناسبة، وعندما يتوافر تحت تصرف حركة سياسية طليعة جاهزة، قد تُطلق الانتفاضة في تاريخ محدد. في روسيا، كانت انتفاضة تشرين الأول ذات تاريخ محدد. ثمة خلاف ايضا حول هذه المسألة كما هو الحال بالنسبة لكل

المسائل التي يوجد فيها تروتسكي وستالين وجها لوجه. غير ان الحجج المقدمة لصالح التاريخ المحدد تبدو مقنعة. وقد أقرت الانتفاضة في ١٠ تشرين الأول. وحددت اللجنة المركزية البلشفية تاريخها: قبل مؤتمر السوفيات (الذي كان سيجتمع في ٢٠ اكتوبر) وليس بعد ١٥. غير ان المنظمات البلشفية لم تكن جاهزة للخامس عشر. وفي ١٧ أرجأت اللجنة التنفيذية المركزية افتتاح مؤتمر السوفيات الى ٢٥ وتمكن البلشفيون بعد بذل جهدهم من انهاء الاستعدادات لقلب الحكومة المؤقتة قبل افتتاح مؤتمر السوفيات. كان ذلك هاجس لينين. وهكذا حُددت العملية لليلة ٢٤ على أبعد تقدير. وكانت الاستعدادات الضرورية لا تزال تحتاج للكثير كي تصبح كاملة: بحارة البلطيق لم يصلوا الا في اليوم التالي.

إن بدأت الانتفاضة في تاريخ محدد او تقررت في اللحظة الأخيرة فلا أهمية لذلك. المهم ان يكون كل شيء جاهزاً: الرجال والقادة والخطة والوسائل. قد يتخذ القرار في اللحظة الأخيرة، لا الاستعداد. فالاستعداد يبقى ناقصاً حتى ولو نظم بعناية. تكفي هفوة واحدة لمنع أو لتأخير تنفيذ أحد التفاصيل أو لجعله مستحيلاً. لدرجة أن كل ما يستتبع الخطة يتأثر. إن إعداداً سريعاً في اللحظة الأخيرة قد يجعل النجاح غير مؤكد حتى في الظروف الأكثر ملاءمة.

الفصل الثالث والعشرون

الخطة والعمل

إن الشكل المناسب اعطاءه للانتفاضة لا يمكن تحديده بقواعد دقيقة: فهناك عدد كبير جداً من الأوضاع يفلت من كل توقع. فسياق العمل الانتفاضي لا يمكن تقنينه على طاولة صغيرة. الانتفاضة ليست كالحرب، حيث يحتشد الجيش ويعمل وفق خطة التعبئة المحددة له سلفاً، منذ وقت السلم. هل يُتطلب تعبئة في الشرق ؟ فالجيش يناور بهذا الشكل. هل يتطلب تعبئة في الجنوب ؟ فيناور الجيش بهذا الاتجاه. فالعمل الاستراتيجي موضوع سلفاً؛ ولا يبقى سوى المشكلة التكتيكية.

أما في الانتفاضة، فالوضع يختلف تماماً. فلن نتمكن قط في حقبة هادئة من توقع كيفية حدوثها في الواقع. هل يكون فلاحو منطقة زراعية كبيرة هم الأوائل في التحرك ؟ أم عمال مدينة صناعية كبرى ؟ ام الجماهير الشعبية للعاصمة ؟ هل ستكون الانتفاضة تصاعدية ام محلية كما كانت الانتفاضات المنتصرة لعام ١٨٤٨ في ايطاليا، او مركزية اساسا مثل انتفاضات شباط واكتوبر في روسيا ؟ ثم كيف ستخرج قيادة الحركة الثورية حراسها الحمر لمساندة وتطوير تمرد محدود ؟ أم هل سيتصرف الحراس الحمر بشكل مستقل دون الارتباط بالانتفاضات المحلية ؟ جميع هذه الأسئلة، يستحيل الاجابة عنها.

خطة الانتفاضة لا يمكن تحديدها من قبل القادة الا في الحقبة القصيرة والسريعة للتململ الذي يسبق الانتفاضة نفسها. ثم يُربط بكل الاوضاع التي تكون قد استجدت في هذا الوقت. ان الطليعة المسلحة التي سبق تكوينها، والتي اعتادت على الأمكنة بفضل تعرف كوادرها عليها، لن تنتظر سوى أمر التدخل.

حتى الخطة التي حددت بهذا الشكل يجب ان تكون عرضة للتعديل، عندما يتم التحقق من كل عناصر وضع ثوري ملائم، وذلك كي تتمكن من التكيف مع كل الظروف التي قد تطرأ. وقد يكون سياق العمل الذي تفرضه الأحداث مختلفاً عن مفهومه الأول. فقد علمتنا ذلك انتفاضة اكتوبر البلشفية. ربما استطعنا تطبيق المثال النابليوني للمعركة على الانتفاضة: «ننخرط فيها أولا ثم نرى» وعندما يبدي العدو أقل بادرة ضعف، يتوجب مضاعفة الجهود والانخراط تماماً دون الالتفات لتفاصيل الخطة المرسومة سلفاً.

ليس ممكناً وضع خطة الانتفاضة بأمان بعد الصدام الأول مع القوات المسلحة للحكومة. وكل الاحتمالات التي تبرز متلاحقة غير مؤكدة وتُحل بقرارات القادة السريعة. في الأستوري، وجد المتمردون انفسهم، خلال اسبوع، بمواجهة اوضاع مختلفة للغاية بين يوم وآخر، حتى ان الخطة الموضوعة سلفا بأكبر قدر من العبقرية ربما لم يكن بوسعها ان تبقى دون تبديل. الحقيقة اننا لن نحصل أبداً على خطة عمليات كاملة. والأساس معرفة ما نريد الوصول اليه والتنبه الدائم الى الهدف الرئيسي وسط اخفاقات او نجاحات جزئية وثانوية قد تنسينا إياه. لذلك يجب على الكوادر الأكبر ان تكون على مستوى الصعوبات التي لا بد من تخطيها، وأن تكون بالتالي مهيأة منذ فترة الانتظار.

وسط هذا القدر من البلبلة، يبقى المبدأ التالي مبدأ مؤكداً وصحيحاً، وينبغي اتباعه دائماً. يكمن انتصار الانتفاضة في هزيمة مركز القوى المعادية: كان هذا المركز قصر الشتاء بالنسبة لانتفاضة اكتوبر، ومصنع الأسلحة وثكنة المشاة في اوفيادو في انتفاضة الأستوري. وعندما يُضرب قلب القوى المعادية، فإن انهيار المعنويات الذي يلي، يستعجل الهزيمة العامة. إذ أن أي عمل متهور حتى الأكثر جنوناً له احتمالات نجاح لا تحصى بمواجهة جيش منهار المعنويات. لذلك يجب المهاجمة دائماً بعنف أقصى، النقاط الأهم والاستيلاء عليها واحتلالها والدفاع عنها حتى التضحية القصوى إذا شنّ العدو هجوماً مضاداً؛ ثم مهاجمتها من جديد واعادة الاستيلاء عليها إذا فُقدت؛ وتحويلها الى قاعدة لتطورات لاحقة هجومية عندما يكف العدو عن مهاجمتها.

هل ينبغي على الحراس الحمر الذين يبدؤ ون الهجوم ان يكون لهم احتياط وفق خطة العمل ؟ ليس ثمة انتفاضة واحدة فكر فيها المتمردون بالاحتياط قبل الهجوم. وهذا يشكل أحد الفروقات التي تمنع من اقامة مقارنات كثيرة بين معارك الجيوش والانتفاضة.

ولكن اذا سمحت قوة المتمردين بذلك ـ وهذا عملياً، عسير الى أقصى حد ـ فالاحتياط سيكون حتماً ذا فائدة. قد يكون الاحتياط، في أيدي قيادة الانتفاضة، وسيلة ثمينة لمواجهة سريعة لمقاومات غير متوقعة او لمناورات معادية. ولكن الطليعة المسلحة التي بحوزة المتمردين هي من الناحية العددية أقل عموماً من القوات المسلحة للرجعية، الى درجة انهم سيكونون مضطرين لزَجّ كل الرجال في الهجوم الأول. فالاحتياط سيتكون من الجماهير التي ستهرع وتتسلح وتشارك في سياق العمل.

لمصلحة الهجوم الرئيسي، ربما يكون من المناسب أحياناً ان يسبق هذا الهجوم هجوم تظاهري على نقطة ذات أهمية صغيرة. وإذ يُخدَع العدو، سيُرسل اليها سريعاً قوات مهمة ساحباً إياها من القطاع الأهم، المهدد في الواقع. في هذه الحالة، يجب ان يخاض الهجوم التظاهري بقدرة تماثل القدرة التي يخاض بها الهجوم الرئيسي بالذات. ويجب ان لا يتمكن العدو من تمييز الاسلوب التي يخاض بها العمل الرئيسي الهجومي من الأسلوب الذي يخاض به الهجوم التظاهري. وإلا، قد لا يمكن أبداً اعتبار الهجوم التظاهري خدعة. لذلك يجب على المتمردين الذين ينفذون هذا الهجوم ان يجهلوا انهم يشاركون في عمل تظاهري ذي أهمية ثانوية وليس في العمل الأساسي. وإلا قد يضعف ذلك الطاقة التي يجب ان يخاض بها الهجوم التظاهري. على أي حال، ليس ثمة هجمات يجب ان تقع بعنف وأخرى بهدوء: هجمات جدية وأخرى تهريجية. فكل الهجمات مهمة ويجب ان تكون عنيفة. تكتيكياً، ليس ثمة هجمات تظاهرية وهجمات رئيسية. تلك هي أسرار يجب ان تجهلها المفارز التي تنفذ. وحدها قيادة الانتفاضة يجب ان تعرفها. ومن المفيد إبراز هذه الفكرة خاصة بالنسبة للذين بيننا نحن الايطاليين، الذين شاركوا في الحرب الكبرى. فتحت أمرة الجنرال كادورنا (Cadorna) كان على جميع الجنود والضباط العمل على تعريض أنفسهم للقتل تظاهريا. فالديمقراطية الايطالية، بالرغم من كونها قليلة العنف، طردت الجنرال العاجز. اما الفاشية الغاضبة فقد انقذته من الغرق ورقته الى رتبة مارشال.

مثل المخارج القديمة التي كانت تنفذ لتحرير مدينة محاصرة بصورة مفاجئة، كذلك الانتفاضات الحديثة التي اطلقتها الطليعة، كانت بدايتها جميعها تقريباً ليلاً او عند الفجر. ويبدو ان ساعات الليل هي الأكثر ملاءمة للمباغتة. ولكن من أجل ذلك، ربما كان من العبث وضع قواعد ثابتة. إن الانتفاضات الشعبية العفوية ـ انتفاضة بطرسبرغ

مثلا في شباط ١٩١٦ ـ التي بدأت نهاراً لم تكن أقل فاعلية. فالانتفاضات المعدة بمؤامرة قد تُحدد لساعات النهار إذا بدا النهار أكثر ملاءمة من الليل، نظراً لظروف الزمان. غير أنها لو بدأت نهاراً او ليلاً، لا بد من تجنب اكتشاف هجوم سائر الوحدات بواسطة اشارات اصطلاحية: مصابيح، اعلام، طلقات نارية او مدفعية الخ. فالتجربة تدينها جميعاً. ثمة هفوة تكفي لاعاقة او صراحة، لمنع المصباح من ان يشتعل، او الراية من ان ترتفع، او طلقة البندقية او المدفع من ان تنطلق، الخ. . . فيخفق الهجوم. إن الأمر الخطي او الشفهي وساعة اليد هما المنظمان الوحيدان لساعة العمل.

الأمر مشابه من اجل تأمين الاتصال بين المفارز. فالوسائل الأكثر سرية هي الأقل ملاءمة. التلغراف والهاتف السلكي أو اللاسلكي لا يمكن استخدامها دائماً ويجب اللجوء إلى الإنسان. ان الشباب في انتفاضات المدن أدّوا دائماً خدمات ثمينة. فهم يمرون بسهولة ودون لفت الانتباه. والنساء أيضاً أظهرن أحياناً قدرات في هذا النوع من الخدمات. غير انه يُستحسن جداً ان لا تشارك النساء قط في المعركة بأي طريقة كانت. لا بالبنادق ولا بدونها. قد نحصل على انفعالات شاعرية نادرة بالعودة الى كل بطلات الأزمنة القديمة والحاضرة، إنما ليس من شك في ان أحد اكثر المشاهد هزلاً وأغناها بالالتباسات تقدمها السرية النسائية الانقضاضية على قصر الشتاء. فبالنسبة لنا، نحن الايطاليين، لا تزال الذكرى ماثلة لبعض النساء المجندات بالقميص الأسود والخنجر، واللواتي أرسلتهن العناية الالهية كي يعلمن الجميع انه في الفترات الأكثر اضطرابا، يحسن بالنساء البقاء في بيوتهن حتى في النهار. وحتى بالقميص الأحمر. وفي المستشفيات، وفي سائر خدمات المساعدة، قد تكون النساء مفيدات للانتفاضة. الجيش البلشفي استعملهن كمظليات ولكن في زمن السلم. اما في زمن الحرب، فالمرأة حتى ولو كانت نازلة من السماء، فهي عائق خطير.

من جهة ثانية، فان الاتصالات التي تكون مهمة جداً بين المفارز أثناء عمل غير مؤكد، تصبح أقل اهمية بكثير اذا تطور العمل بشكل مناسب. فليس ثمة شيء مخيف لدى عدو متقهقر او فاقد المعنويات.

أضف الى مشكلة الاتصال قضية مركز القيادة الذي يجب ان يحتله قادة الانتفاضة خلال العملية. فيجب ان يكون هذا المركز معروفاً من المفارز. ولا يجب ابدا ان يُستبدل، دون ضرورة ملحة، او دون اعلام المفارز بذلك في الوقت المناسب. فالقضية

لها أهميتها. إن أكبر أخطار يواجهها القادة عادة، هي: إما ان يكونوا جريئين الى درجة التهور وإما ان يكونوا خائفين الى درجة الجبن. وفي كلتا هاتين الحالتين المتطرفتين، تكون النتائج متعادلة بخطرها: النقص في قيادة العملية.

إن قائداً يأخذه الذعر، يفقد قدرته على فهم شيء. فصفاء الرؤية او التقييم الضروري للايحاء بالثقة للمقاتلين والدفع باتجاه اتخاذ القرارات الضرورية بشجاعة، يتبخر، ويصبح كل شيء غامضاً في دماغه، إرادة واحدة تدفعه لا إرادة الانتصار بل إرادة الخلاص. وقد يبيع كل مجد النهار بركن هادىء. كان شكسبير يعرف هذه الظاهرة: «حصان! حصان! تاجي بحصان!» هكذا كان يصرخ ريتشارد الثالث في ساحة المعركة وسط الهزيمة. إنما كان حتى تلك الساعة قد قاتل بكرامة[1]. فعندما نُهدد بفقدان كل شيء نفقد كرامتنا ايضا، التي هي فضيلة لا ترافق عادة سوى الانسان القانع. ففي النضال السياسي ثمة الكثير من ظاهرات هرب تفسر، ليس بطريقة ماركسية بل مرضياً. فأثناء العمل الانتفاضي، لا يكون القائد، مثل قائد وحدة كبيرة في الحرب، بعيداً عن المعمعة، مختبئاً عميقاً في أحد المخابىء، بل وسط المقاتلين. واذا ساءت أقدار الانتفاضة، فهو يوشك ان يُعدم بالرصاص في المكان نفسه، من قبل المنتصرين وهو يتنشق مناخ القتال. لذلك يقتضي ان يتوافر في القائد بعض الصفات الضرورية. ولا نقول ان الكل يملكها. فثمة رجال تكون الشجاعة فيهم مستحيلة. كان الملك البوربوني يقول بشأن جنوده: «ألبسوهم كما تشاؤون، سيهربون مهما يكن من أمر». وقد عرفنا الكثير من هؤلاء المقاتلين في ايطاليا ـ ومنهم جنرالات ايضا ـ في النضال ضد الفاشية: بومباتشي (Bombatchi) على رأسهم. ان حركة يكون لها قادة مثلهم تستطيع اعتبار نفسها، في الانتفاضة، خاسرة.

إن القائد الذي ربما يملك شجاعة زائدة هو حادثة اخرى محتملة: التطرف ليس شجاعة. تلك هي الحكمة التي استلهمها، بدفع المنطق الى أقصى الحدود، فموسوليني، أثناء المسيرة على روما، كان يقيم في ميلانو على مسافة ٥٠٠ كيلومتر، والسيد دي لاروك

---

(١) ذلك ليس التفسير الشائع، يؤكدون، عامة، ان ريتشارد الثالث كان يطالب بحصان كي يتمكن من الموت على الحصان. ليس ثمة فارق كبير بين أن يموت المرء على حصان أو أن يموت على قدميه، وخاصة بالنسبة لشخص يوشك أن يموت. إنما بالنسبة لمن يفكر بالهرب فثمة فارق ما بين الراجل والفارس وقد يقدم ملك تاجه في سبيل الهرب. هذا ما فعله في أيامنا هذه غليوم الثاني.

(De La Roque) في كهف على عمق ٣٠ مترا تحت الأرض اثناء الساعات الأكثر حرارة في ٦ شباط. طبعاً، للبقاء بقرب الهاتف.

لا يُسأل قائد متمردين، يتحمل مسؤولية عمل ما في عدة قطاعات، عن براهين شجاعة بل عن طاقة قيادة. على أي حال، فان صفة الشجاعة كامنة ولكنها تابعة. ويجب عليه تنسيق الأعمال المختلفة، والقيادة دائماً ودائماً البقاء في مكانه. ثمة جيوش يُمنع فيها على بعض القادة المشاركة شخصياً في العمل. في الجيش الالماني، يحرّم النظام على قائد فرقة الخيالة التدخل في تحميل فرقته عندما يجري التحميل جماعياً. فالطموح الشخصي يجب ان يرتبط بضرورة القيادة.

غير أن ثمة أوقاتاً في الحرب، كما في الانتفاضة، حيث القادة وحتى أكبرهم يجبرون على الارتماء في الخطر لأنه بهذه الطريقة فقط، نشجع المقاتلين ونلهب القتال. ثمة أمثلة كبيرة مثل كارنو (Carno) في واتينيي (Wattignies) وبونابرت في جسر اركول (Arcole) وتروتسكي في بطرسبرغ ضد جودينيك (Judenic) وحده طالع القادة يستطيع، في الأوقات الميؤوسة، إقرار الانتصار. عندها يجب ان يدفع هؤلاء بالمَثَل، فقط بالمثل وليس بالبلاغة. وليس ثمة استثناءات. في اسلنغ (Essling) فقط، طالب رماة القنابل اليدوية في الحرس ان ينسحب نابليون الى جزيرة لوبو (Lobau)، بسبب تعرضه البالغ. وبالنسبة لبقية القادة الآخرين، من مشيرين ودوقة وأمراء وبارونات الامبراطورية، فان الجنود يعتقدون أن أرواح أولئك ليست أغلى من أرواحهم هم.

إن القواعد التكتيكية للانتفاضة، مثل تلك التي تخص مناورة إحدى المفارز، او مهاجمة شارع، او ساحة، او ثكنة، او مبنى، او رشاش، او مدفع، او دبابة، أو استخدام هذه الأسلحة بعد الاستيلاء عليها من العدو، وكل القواعد التي تخص القتال في مختلف مراحله، تدخل في القسم العملي من دراسة الانتفاضة. يجب ان يكون للكوادر معرفة ناضجة بها، وذلك للتمكن من تطبيقها على الأرض. بعد بدء العملية، تصبح كل متطلبات الحرب بين جيشين واردة ايضا بالنسبة للانتفاضة. ويعود الى القادة امر رسم كيفية احتلال محطة سكك حديدية، أو مركز للبرق أو الهاتف، مثلاً، بالوسائل التي يملكونها، او اذا كان مناسباً وقف التنفيذ لاحتلالها فيما بعد عندما يصبح بحوزتهم مفارز أكثر.

ولكن ما يجب تحديده مسبقاً هو مجموعة مبادىء ذات أهمية سياسية عسكرية. وما هي هذه المبادىء.

يجب منع تعبئة القوى المعادية. يجب ان لا يتمكن النظام الفاشي من التصرف بهذه القوات المسلحة العاملة التي بين يديه وقت الانتفاضة. ويجب ان يتم الاستيلاء اولا على اماكن تحشد وتجمع الميليشيات والمنظمات الفاشية. ويجب ان يُحرم أكبر قادة عسكريين وسياسيين في القطاع من إمكانية المشاركة في الدفاع. إن فصيلة عسكرية، عندما تصبح دون قيادة ودون قائد تصبح أقل خطراً. فالمنظمات الفاشية لمدينة ما، تصبح دون امكانيات عمل، عندما تفقد قادتها التسلسليين الكبار من سياسيين ونقابيين.

الفصل الرابع والعشرون

متاريـــس

ما زال زمن المتاريس بعيداً جداً عن نهايته. فالمعركة الأكثر تمييزا، في المدينة، حتى اليوم، تنحصر في المتراس الذي يفيد في بعض الظروف. فالمتراس هو انتفاضة المدينـة المجبرة على الانتقال للدفاع. وهو القتال الدفاعي المؤقت. وهـو مرحلة عـرضية تـابعة للمتطلبات العامة للهجوم. فهو يوقف العدو ويجبـره على انهاك قـواه، في حين يكسب المتمردون الوقت. ففي هامبورغ وفي أحيـاء بارمبـك (Barmbek) وآيلسبك (Eilsbeck) وهامبك (Hambeck) وشيفبك (Schiffbeck)، في تشرين الأول ١٩٢٣، صنعت المتاريس المعجزات.

وبوسع المتاريس، ذات الطابع الدفـاعي في القطاع التي تبنى فيـه، ان تكون ذات طابع هجومي بالنسبة للانتفاضة العامة. فإذا انتفضت ميلانو مثلاً، واذا سيطر المتمردون على المدينة، بإمكان تورينو، إذا لم تكن جماهيـرها قـد أصبحت قادرة عـلى الانتقال الى الهجوم، أن تبني متاريس وبهذا تشل حاميتها وتمنعها من الانتقال اذا بقيت حـرة، ضد العـاصمة اللومبـاردية. في هـذه الحالـة تكون المتـاريس دفاعيـة تكتيكياً إنمـا هجوميـة استراتيجياً.

وفي دراسة الانتفاضة، تستحق المتاريس عناية خاصة.

إن الرأي القائل بأن الشوارع الضيقة - في بـاريس وميلانـو سنة ١٨٤٨ - منـاسبة للمتاريس، كلام لا أساس له. فكل الشوارع حتى أعرضها هي شوارع مناسبة. ومن

الضروري فقط ان تنشأ المتاريس ويُدافع عنها بنظام. فيجب ان تقام فقط بأمر من قادة الانتفاضة، وإذا حدث ان ارتُجلت من قِبَل الشعب، فيجب ان تُصحح فوراً كي تستجيب لمتطلبات حرب الشوارع الحديثة. وإذا ارتجلت في مرحلة اولى بركام متطابق، مع حاجز في شارع، مؤلف من أسرّة، وعربات وأثاث، فيجب ان تُنزع بأسرع ما يمكن وان يعاد بناؤ ها بتقنية جيدة.

لا يجب ان تقام المتاريس أبداً في مدخل الشارع، بل الأفضل في وسطه تقريباً. فإذا قارنّا شارعاً بذراع، واذا افترضنا ان العدو يهاجم على مستوى اليد، فالمتراس لا ينبغي ان يبنى على مستوى الكف ولا المعصم بل على مستوى المرفق. فالمتمردون الذين قد يستولون، مثلاً، على حي من الضفة اليسرى لنهر التيبر (Tibre) ويودون الدفاع عن الكورسو اومبرتو (Corso Umberto)، وفياريبيتا (Via Ripetta) وفيادل بابوينو (Via del Babwino) بقوى عسكرية هامة قادمة من الفيا فلامينيا (Via Flaminia)، لن يرتكبوا قط خطأ بإقامة المتراس في هذه الشوارع الثلاثة على مستوى ساحة الشعب (المعصم). وسوف تقام المتاريس، بالعكس، باتجاه اكثر الى الداخل، على مستوى كنيسة سان كارلو (المرفق) وسوف يمكن الوصل فيما بينها. بهذا الشكل، تصبح اكثر قرباً من مركز الدفاع - ساحة كولونا (Colona) وساحة البندقية - وتصبح الاتصالات والتموين أسهل. لا سيما وان المنازل الواقعة بين ساحة الشعب والمتاريس تصبح قادرة على تشكيل حواجز ومكامن بعدد مماثل ضد القوات المعادية التي عليها الوصول حتى المتاريس.

لا تستطيع الوحدات المهاجمة التغلغل في الشوارع الثلاثة، إذا لم تتأكد مسبقاً بأن العمارات التي تحيط بها لا تحتوي متمردين مسلحين كامنين. وسوف تحتوي عددا منهم في الواقع. فكل العمارات، او تلك التي تكون قد اختيرت من قبل القادة على انها الأكثر ملاءمة، قد تحتوي مجموعة من المتمردين - بمعدل لا يقل عن اثنين - يطلقون على الوحدات النظامية نيران البنادق، او حتى بشكل أفضل، قنابل يدوية، من النوافذ والشرفات والسطوح، وهم في حالة اختفاء جيد. إن القنابل التي تطلق من الأعلى على الشارع، لها تأثير كبير مادياً ومعنوياً. ويُجبر العدو على التوقف ولا يعود بإمكانه المتابعة. وعليه ان يفتش البيوت.

ولا شك ان للفردية دوراً مهماً. فرجلان فقط، لا يتأثران بالصراخ واطلاق الرصاص الأعمى في الأسفل، بوسعهما حماية أدراج عمارة لمدة ساعتين اذا أطلقا النار

بعد تصويب هادىء، أو إذا كانا يتقنان رمي القنابل اليدوية التي بحوزتها. واذا بقي لهما متسع من الوقت، قد يدمران ايضا الدرج الذي يصل الطابق الأرضي بالطابق الأول من أجل اعاقة تقدم المهاجم. فالعدو، حتى ولو كان كثير العدد يتكبد خسائر ويخسر وقتاً كبيراً قبل ان يتمكن من الوصول الى الطوابق العليا والى السطوح. وعندما يصلها، لن يجد أحداً، إذ أن عمارة كبيرة وغير معزولة تقدم دائماً إمكانيات متعددة لفرار مجموعة رجال شجعان دون ان يراهم أحد.

وإذ توصل العدو في النهاية الى السيطرة على العمارة، توجب عليه البدء من جديد في العمارة المجاورة حيث يجد الحواجز ذاتها. ويجب على المتمردين، قبل ان يستعملوا هذه العمارات، أن يجلوا كافة سكانها وليست دموع النساء والأطفال هي التي تشجع المقاتلين. ان وجود غرباء عن جو العمل لا ينتج عنه سوى المضايقة. كما يجب تجنب قيام القوات المعادية، التي تغضبها المقاومة، بأعمال قمع شرسة ضدهم. ففي جميع الانتفاضات، اعدمت القوات المنتصرة، رمياً بالرصاص، قسماً كبيراً من سكان البيوت التي أبدى فيها المتمردون مقاومة عنيدة. في فيينا وفي الأستوري، ولم توفر لا النساء ولا الأطفال.

باختصار، يدافع عن المتراس، قبل كل شيء، بخط مرن وخفيف من المراكز المتقدمة، تماماً مثل وحدة مشاة في موقع محصّن تحمي نفسها بخط من المخافر الصغيرة والدوريات والحراس. ان الدفاع الحقيقي عن متراس ليست اليوم في المتراس نفسه، بل أمامه.

فالقوات التي تتقدم نحو المتاريس، وهي تقاتل من بيت الى بيت في الشارع الرئيسي، يجب ان تفكر بالدفاع عن النفس ليس فقط من المنازل الجانبية، بل ايضا من الشوارع المعترضة التي قد تهدد الجوانب او المؤخرات بهجمات مفاجئة منها. فالعملية تتطلب مراحل متعددة تضيع فيها الوقت، وتنتزع من القوة المرسلة مفارز جديدة، وتزيد من ثائرة الوحدات النظامية.

وهكذا، فباحتلال ارض يُدافع عنها قدماً قدماً، تصل القوات الى المتاريس. ولا بد لها من مهاجمتها. والعملية ليست سهلة قط.

لا يجب ان يقام المتراس عالياً بل عميقاً، مثل خندق حرب يُحفر في التراب. وإلا،

فإن مفارز الجيش، إذا كان بحوزتها مدفعية، تكون قادرة على تدمير المتاريس بالقذائف الأولى. ويجب ان يظهر المتراس كأصغر دريئة ممكنة وان طبقة من الأكياس المليئة بالتراب، او حتى مجرد تراب يكفي لتخفيف رماية البنادق وتصلح لأن تشكل خطاً للرمي. ان شريط الأسلاك الشائكة الذي نجده في كل مكان، في هذه الأيام، يجب ان يثبت على صفوف متعددة امام الخندق. ويجب ان يتصل طرفا الخندق، اذا أمكن، بمداخل بوابات المنازل الجانبية. بهذه الطريقة، يشكل المتراس أخدوداً يوصل الى داخل البيوت حيث توجد المفارز المسلحة والمؤن والاسعافات. وليس من الضروري ان يكون المتراس خطاً مستقيماً: فيمكن ايضا ان يكون منحنيا او مؤلفاً من عدة قطع. ويجب ان يتكيف المتراس مع المنازل، ويؤمن التحركات الجانبية وكذلك الخلفية للمتمردين الذين يدافعون عنه، كما يؤمن الوقاية من رمايات العدو. وقد تفتح في جدران البيوت التي تحيط به، ممرات لافساح المجال لاجراء الاتصالات بأمان. ويجب ان يمنع المتراس تجمع المدافعين فوقه. فبعض الرماة يعتبرون كافين على المتراس بحد ذاته. أما القسم الأهم من الدفاع فيجب ان يكون في المنازل المتاخمة من أمامها ومن خلفها. وفي هذه البيوت التي تسيطر على المتراس يحتل المتمردون الشرفات والنوافذ والسطوح، ليس بمجموعات صغيرة بل بمفارز كاملة. ويأخذون في الرماية من الأعلى. ويكون في الاحتياط مفارز أخرى قريبة مستعدة دوماً للقيام بالهجوم المضاد.

إن لم يكن عند المهاجم دبابات ومدفعية، فلا بد من ساعات وحتى أيام، وتضحيات كبيرة بالجنود، قبل ان يستطيع الاستيلاء على المتراس. وإذا كان المتمردون منتقين من العناصر الجيدة، فإن الوحدات سوف تهاجم عدة مرات؛ ولن تجني بذلك سوى الخسائر والفشل. وتصبح القنابل، حتى التي صنعت ارتجالا والتي تتكون من أوعية معدنية او زجاجية، وسيلة ثمينة في الدفاع. أما في الهجوم، فلن يحتاج اليها كثيراً، أما في الدفاع، فتعتبر وسائط لا تضاهى. وإذا كان يوجد بحوزة المتمردين رشاشات، فلا بد من استعمالها بشكل تعطي افضل مردود. ويؤكد على استخدامها، خاصة، في المتاريس المقامة في الشوارع العريضة جداً وعلى النواصي. فهي اذ تنصب عالياً على الأسطحة، او على أبراج، او على بريجات، فإنها تصبح ذات فعالية معنوية كبيرة. ولكن فاعليتها الحقيقية الكبرى والتي لا تضاهى، عندما توضع بشكل يجعل رماياتها سافة وضامّة. ويتطلب اختيار مكانها الكثير من البراعة التي لا يملكها سوى الناس الأكفاء.

وهي ممتازة في النهار، ولكن قد تفقد بعض أهميتها ليلاً. ويجب ان يكون الموقع غير قابل للكشف لا في الليل ولا في النهار. إن رشاشاً يُكشف يعتبر شاشا مدمَّراً. قذيفة واحدة من عيار خفيف تكفي لاسكاته. وبالعكس، فإن الرشاش المخفي يكبد خسائر فادحة، ويوقف الهجوم لا محالة. أما الذي يأمره، فيجب ان يكون مستعداً للرماية من أقرب مسافة وللموت في مكانه.

إن التهديد الأكثر جدية للمتاريس يأتي من ناحية الدبابات والمدفعية. فالدبابة تروِّع من لا يعرفها. غير انها تنتهي مساوية لعربة تجرها الثيران، اذا اتخذت ضدها تدابير الدفاع الضرورية بهدوء. تبقى اجراءات الدفاع عن المتراس هي ذاتها، حتى ولو استخدم العدو الدبابات، إنما يتوجب إدخال احتياطات اضافية. فإذا كان يوجد بحوزة المتمردين بعض قطع المدفعية، فإن الدبابة تجمد فوراً. فهي سريعة العطب مثل الزجاج، في مواجهة قذيفة.

إن شحنة من المتفجرات تزن من ٥ الى ٦ كيلوغرامات، محضرة جيداً، إذا قُذفت في الوقت المناسب فإنها تساوي قذيفة مدفعية. فالدبابة لا تستطيع المقاومة. بمواجهة عمال المناجم في الأستوري، المعتادين على استخدام الجيلاتين، ربما لم تتمكن الدبابات من إحراز أي نجاح. فالجيلاتين وكذلك متفجرات أخرى ذات فعالية أكبر، هي بمتناول المنظمات الثورية أكثر من قطع المدفعية، وعلى أي حال، فيمكن تحضيرها بسهولة وسرعة من قبل الناس الأكفاء.

إضافة الى ذلك، وفي غياب متفجرات مناسبة هناك الخندق الذي يعتبر سلاحاً ضد الدبابات. إن خندقاً بعرض ٤ أمتار وعمق مترين ـ وقد يموَّه، أيضاً ـ يستطيع قلب دبابة ثقيلة، اما بالنسبة للدبابة الخفيفة، فيكفي خندق بعرض مترين وعمق متر. ان خنادق من هذا النوع يمكن ان يتكوَّن من الخندق ـ المتراس ذاته أو من خنادق اخرى تقام امام هذا الأخير.

يجب ان لا نعطي أهمية كبيرة للدبابة. فإن الدبابة وحدها، لا يمكنها ان تفعل شيئاً. فهي لا تستطيع الاستيلاء على المتراس وباسكانها فقط الوصول الى المتراس ومواجهته وانتزاعه وتخطيه انما ليس الاستيلاء عليه. والمتراس الحديث ليس قلعة من الانقاض يتجمع خلفها مئات من المسلحين، بل مجرد خندق مع بعض المدافعين المنظورين

بإمكان الدبابة أن تجتاح ما حوله وما فوقه بحرية وعلى هواها: فالوضع لا يختلف كثيراً. فبغير مفارز المشاة التي ترافق الدبابات، فان الأخيرة لا فعالية لها تقريباً. حتى في المعارك التقليدية، فإن الدبابات ليست مفارز احتلال بل طلائع تسبق المشاة. فالعنصر البشري وليس الآلة هو الذي يجب دائماً ان يقول الكلمة الأخيرة. وكيف يمكن لمفارز المشاة ان تتقدم اذا تمت حماية المتراس من البيوت خاصة؟ ثم إن الدبابة ليست منيعة تماماً، وقد يقنص سائقها بنار قناصة مختارين يرمون عن قرب. واذا كان تحركها في شارع ضيق، فقد تبقى مجمدة وتحصر بين حاجزين. كلتا الحالتين تحققتا في انتفاضة هامبورغ. أما الخطر الآخر فهو المدفعية.

ولكن في المدينة، لا العيارات الثقيلة ولا العيارات الخفيفة يمكن استعمالها. المدفعية الوحيدة التي يمكن استخدامها هي مدفعية الميدان والمدفعية الجبلية، وبالرمي بالتسديد المباشر. والمدافع لا تحدث اي ضرر جدي ضد متراس لا يشكل دريئة بارزة. وتصبح عديمة الفعالية، كما هي الحال في الحرب، ضد الخنادق المحفورة. وهي ذات فعالية اكبر ضد المنازل لأنها تخرق الأبواب والنوافذ وتحدث في الداخل فرقعة تصم الآذان. وقد استعملها المستشار دولفوس طويلاً في فيينا ضد المنازل الشعبية التي كان يدافع عنها «الشوتزبوند». كانت منازل العمال في ضاحية فيينا، بما فيها اكبرها وأكثرها شموخاً، منزل كارل ماركس هولف، مبنية بصورة اقتصادية: كلها تقريباً من الاسمنت الذي لا يتمتع بالقوة والصمود. حتى القذائف من العيار الخفيف كان بوسعها إذن، خرق الجدران الخارجية. إن بيوتاً مبنية بالحجر او الخفان ـ البيوت القديمة لفترة ما قبل الحرب ـ هي حواجز لا تستطيع مدفعية الميدان او المدفعية الجبلية شيئاً ضدها. بيوت كهذه تصمد أياماً كاملة بوجه رماية بطاريات بكاملها، اذا لم تصم آذان المدافعين عنها بالأصوات المختلفة والانفجارات الداخلية.

وعندما يدرك المتمردون ان في مواجهتهم مدفعية، يضطرون لبناء المتراس بشكل يجبر فيه المهاجمين على وضع مدافعهم في أقرب مكان ممكن. واذا شكّل الشارع منعطفاً، فيجب بناء المتراس بجانبه بشكل يبقى فيه محمياً من رماية بعيدة. إذا قارنا شارعاً بذراع مطوية، فلن يُبنى المتراس على طول الساعد بل قرب المرفق في طرف الساعد، إذا أتى الهجوم من جهة الكتف. ولكي يصبح بالامكان فتح النار على الدريئة المنظورة، فإن المدفعية تضطر الى الاقتراب، وتتعرض للرماية من المنازل المحتلة من قبل المتمردين.

وحتى لو كان المدفعيون محميين بدرع مدافعهم، فان السدنة ينكشفون للنيران المرمية من فوق، ومن خلف ومن الجهة المقابلة.

وبإمكان قوات الحكومة أيضاً استعمال هاونات الخندق(1). ففي برلين، استعملت ضد السبارتاكيين (Spartakistes) في ١٩١٩. فالهاونات الثقيلة بإمكانها خرق السقف أو عدة طوابق من عمارة ما؛ اما في الأراضي المكشوفة، فإنها تحدث فجوات عميقة. وتستطيع ان تقلب كل شيء، وهي تعتبر فعلاً أدوات هجوم رهيبة. إنما ليس ثمة مفارز مدفعية نظامية كما هي الحال في الحرب. ففي ايطاليا، حُلت المفارز المشابهة والهاونات ترقد في المستودعات. وهذا لا يمنع امكانية استعمال الهاونات اثناء انتفاضة ما. ومن جهة ثانية، فرمايتها غير دقيقة أبداً وقد حصلت مشاهد مفرحة لرمايات هاونات تسقط على رماتها. وعلاوة على ذلك، فلا يمكن إبعاد مواقع اطلاقها عن الهدف. فلا بد إذن من تعرضها لرمايات المتمردين. ولها سيئة أخرى هي ان على قذائفها ان تصعد في الهواء بمسار بطيء جداً ومنظور باستمرار في الجزء الصاعد من القطع المكافىء الذي تسير عليه القذيفة وكذلك في الجزء النازل منه. وبإمكان المتمردين تجنبها بسهولة، شرط كونهم مكشوفين، وذلك بتحركهم في الوقت المناسب وارتمائهم على الأرض اثناء الانفجار. وفي المنازل، تشبه الوقاية من قنابل الهاونات الثقيلة الوقاية من القنابل التي تقذفها الطائرات. وحدها الأقبية تقدم ملجأ أمينا.

ثم يجب ان لا ننسى ان المتراس رغم كونه وسيلة للمقاومة والدفاع، يجب ان يتمكن دائماً من أداء فترات هجومية ايضا. ويجب ان يحاول المتمردون توجيه هجمات مفاجئة على الجناح، لمباغتة العدو وإرباكه وعزلة اذا أمكن عن القسم الأكبر من وحداته. ففي المدينة، تعتبر كل مفرزة معزولة وحدة مفقودة. وعندما يُخاض الدفاع بهذه الروح الهجومية، فلن تستطيع قطع المدفعية والهاونات العمل إلا بصعوبة وتجازف غالباً بالوقوع في أيدي الثوار.

وقد استعملت حكومة ليرو ـ جيل روبلز أيضاً الطائرات القاذفة ضد ثوار الاستوري. والحكومة الفاشية تتصرف، دون كثير من التردد، إذا توفر لها ارض للطيران، بأن تستعمله حتماً ضد الثوار. ولن تهتم إلا قليلاً لمعرفة ما اذا كانت القنابل

(1) تغبير قديم لما يطلق عليه الآن «الهاونات» فقط.

ستقع فقط على المتاريس أو على المنازل البعيدة التي يقطنها السكان العزّل. وإذا كان يوجد بحوزة الثوار رشاشات، فلن يرتكبوا قطّ خطأ بإبعادها عن خط الدفاع عن المتراس، وحملها الى السطوح او الى نقاط اخرى أكثر ارتفاعاً لمواجهة الطائرات. فقد يعني ذلك التخلي عن الفريسة من أجل الظل. إن الرشاشات والبنادق هي أسلحة مضحكة في التصدي للطائرات. واستخدامها لا يمكن أن يكون نافعاً إلا بالصدفة، بنسبة واحد الى الف. فقيادة الثوار تعمل ضد الطائرات بشكل مباشر، فتحتل المطارات او تحاول جعلها غير قابلة للاستعمال، إذا كان بإمكانها فعلاً ان تشكل تهديداً. وإذا نجحت الحكومة بالحصول على قاذفات، فالحماية الأكيدة الوحيدة، في المدينة، تتكون من الملاجىء الواقعة تحت الأرض.

إن حكومة فاشية تحترم نفسها لن تتورع حتى عن استخدام الغازات ضد مواطنيها ذوي الأفكار المناهضة. فيجب ان يفكر الثوار إذن باتخاذ التدابير اللازمة لوقاية المفارز التي تقاتل والسكان المدنيين. ولم يعد ثمة مدينة مهمة ليس فيها مخازن عسكرية لأقنعة الغاز. قد تفتقر المدن الايطالية الى الخبز، لكن لا تفتقر الى الأقنعة.

وإذا نجحت القوات الفاشية بالسيطرة على المتراس، فان احتياط المتمردين المجاورين يرتكب عمل فرار حقيقي ان لم يقوم بهجوم مضاد دون اضاعة لحظة واحدة. فالقتال الذي يخاض بهذا الشكل العنيف لن يكون مذبحة مجانية. إن هذا هو السر الوحيد الذي يكلف غالياً، والذي لا يخطىء ويؤدي للانتصار النهائي. فأثناء الانتفاضة يشكل تخلي الوحدات الثائرة عن اي موقع مهم، دون إبداء المقاومة الكاملة الضرورية، خيانة. فما من ضعف قط يجب ان يُرتَكب، وما من هدنة يجب ان تُمنح للعدو. يجب ان يكون القتال متصاعداً بالعنف والإقدام. وإذا كان قادة الوحدات المستخدمة هم الأوائل الذين يواجهون الخطر، واذا كانوا قادرين على القيادة، فالعدو لن يحرز سوى القليل من التقدم. وبإمكاننا ان نطلب اي عمل جريء من وحدات جيدة القيادة. ولكن يجب ان لا تنسى قيادة الثوار بأنه من الضروري عدم إنهاك المقاتلين. فالذي يسهر في الليل، يجب ان يرتاح في النهار، والعكس بالعكس. والوحدات التي قاتلت يجب ان تُستبدل بوحدات أخرى اكثر نشاطا. ولا ترتاح سوى الوحدات التي أبعدت عن خط المعارك. إن الراحة التي تتم مداورة، كل في مركزه، لا تعتبر راحة. ويجب ان لا يُطلب من وحدات تكبدت هزيمة أعمالاً أخرى قط، قبل إعادة تنظيمها.

واذا استطاع العدو ان يرسخ أقدامه على المتراس المحتل ويتقدم، بعد صد الهجمات المضادة، يكون الثوار قد أعدوا له متراساً جديداً، خلفه. وتتكرر هذه العملية الى ان تتمكن الانتفاضة، التي انتصرت في قطاعات أخرى، من ان تنتقل الى الهجوم في هذا القطاع بالذات.

الفصل الخامس والعشرون

الانتفاضة في الريف

إن المبادىء التي تحكم الانتفاضة هي نفسها في المدينة والريف. ولكن في الريف، ثمة قواعد تكتيكية خاصة تفرض نفسها.

فالمديريات الريفية الكبيرة، كالموجودة منها في البوي (Pouilles) وصقلية، لها متطلبات المدينة ذاتها. تكتيكياً، ليس ثمة فارق بين مدينة صناعية ومديرية ريفية كبيرة. ولكن هناك استثناءات. ففي الريف، تسود المديرية الصغيرة. وبهذا تبدو الحالة مختلفة.

وفي مراكز صغيرة مشابهة، ليس بالأمكان، طبعاً، الحصول على نتائج كبيرة، غير ان القتال فيها أسهل بما لا يقاس، واذا تكلل بالنصر، فانه يمكن ان يقدم مساهمة كبيرة في النجاح العام. وقد تمكن عمال الأستوري من النزول الى اوفيادو، من مناجمهم المنتشرة في المنطقة بكاملها. وكانت مقاومة قوات الدولة المسلحة ـ الدرك والحرس المدني وحرس الانقضاض ـ في جميع المديريات الريفية تقريباً، ضعيفة، علماً بأن مؤخرتها كانت مؤمنة وكذلك حرية تحركها. والحاميات العسكرية هي غير موجودة عادة إلا في المديريات الريفية الكبرى. أو في المديريات الأخرى فلا يوجد، عادة، سوى مفارز صغيرة من الدرك؛ ففي إيطاليا، يبقى الدرك في ثكناتهم، وكذلك الميليشيا الفاشية، ونادراً ما تُعبأ، وتبقى موجودة في مكان للتدريب حيث يوجد أيضاً مستودع الأسلحة. وفي المديريات الصغرى ليس ثمة درك، ولا ميليشيا. أما بقية التنظيمات الفاشية، فيرتبط تطورها بأهمية المديرية.

لنأخذ ايطاليا مثلاً.

قد يقرر التنظيم الثوري لاحدى المديريات الريفية القيام بالانتفاضة المحلية تلبية للتوجيهات العليا للحزب او الحركة السياسية التي ينتمي اليها، او لأنه ينوي مساندة الانتفاضة التي انطلقت في المراكز المهمة. وإذا كان الوضع متوتراً، فلن ينتظر التنظيم الثوري للمديرية الأوامر من فوق كي ينتفض، فإذا وصل خبر الانتفاضة من مركز كبير مجاور، وخاصة اذا تأكد، وجب ان يدفعها، دون أدنى شك إلى العمل المباشر.

والهدف الأول الواجب الوصول اليه هو: نزع سلاح الدرك. إنما اول عمل يجب القيام به هو قطع خطوط البرق والهاتف.

ولا مجال للتفكير بأن الدرك يستطيع، في كافة المديريات، مقاومة الضغط الشعبي غير مبال بما جدّ على الساحة محلياً. ولكننا لن نخطىء قط، إذا اعتبرنا، بشكل عام، ان الدرك هو سلاح مختار استثنائياً. فيجب اعتماد الحذر وحسم أمره في آن معا. فأفراد الدرك يقاتلون جيداً. وكل تربيتهم العسكرية مكونة من الولاء للتاج، والطاعة المطلقة لأوامر الرؤساء وما داموا متحدين ومسلحين، فإنهم يشكلون خطراً دائماً على الثوار. إن النزعة المناهضة للفاشية لدى الدرك نزعة أسطورية. وعندما توجد، تتكون من حذرهم للميليشيا ومن تناقض مهني. فهم يمثلون القوى الأكثر ضماناً للنظام وسيبقون كذلك: أكثر من الميليشيا بكثير. ثمة استثناءات، لكننا لا نعرفها إلا في الريف. وتأثيرهم الصغير في المدينة، يقابله تأثير كبير في المراكز الريفية. وهم قادرون، حتى في الساعات المضطربة، على الحصول على مخبرين سريين وهكذا دواليك.

ليس بالامكان توقع كيف ستكون الطريقة الأكثر مؤاتاة، وقت العمل، للسيطرة على الدرك، ونزع سلاحهم. وكل قرار يبقى مرتبطاً بالوضع المحلي وبتصرفهم. فثمة غالباً، مظاهرات شعبية يسير الدرك فيها مع الجموع ولكن كرهائن أكثر منه كتهديد. عندها يسهل نزع سلاحهم. وبحجج مختلفة يمكن ان يُدعوا جميعهم ويُبعدوا عن ثكنتهم. وبعد عزلهم بهذا الشكل لن يتمكنوا من إبداء أية مقاومة. ولن نلجأ الى العنف الحقيقي إلا عندما يصبح ذلك ضرورياً. يجب دائماً ان نفعل كل ما بوسعنا للحصول على نتيجة بدون عنف. ولكن اذا أجبرنا على اللجوء الى العنف؛ فيجب ان يكون بالغ الحسم، دون تردد، ودون مراعاة، كما في الهجوم الحربي. فالانتفاضة تعني الحرب. وعندما نقرر خوضها، فيجب خوضها كالحرب.

وإذا ما دعت الحاجة أحياناً، فإن الدرك يهاجمون في ثكنتهم. ولكننا لن نرتكب قطعاً خطأ القيام بمهاجمة ثكنة هجوماً جماهيرياً، أثناء تململ شعبي، بنساء وأطفال. يجب على القادة أن يمنعوا هذا العمل بكل الوسائل. ففي كل المرات التي هاجم فيها مثل هذا الحشد، في ايطاليا الجنوبية والجزر، ثكنة درك، كانت تُستقبل وتُصدّ بالبنادق. وإذا كان يوجد للثوار في المديرية حرس أحمر كثير العدد، فلن يرتكبوا خطأ مهاجمة الثكنة في تشكيلة مرصوصة. ولا نهاجم بنسق مرصوص، ثكنة يحتلها بشكل عام حوالي عشرة من الدرك على الأكثر. فالمقصود القيام بعملية جريئة يجب ان تنفذ من قبل بعض المتهورين. وككل عملية جريئة، يجب ان يُعدّ لها جيداً. فلا يجب ان نعتقد ان عناصر الدرك بمجرد مهاجمتهم سيتأثرون ببعض الصراخ وسيبدأون بالفرار او يستسلمون. فهم يتمتعون بروح الجماعة اكثر من اللزوم، وسيقاتلون حتى لو كانوا مقتنعين بأنهم سيُسحقون. وحده هجوم بارع الإعداد يُخاض بسرعة يستطيع السيطرة عليهم.

إن أبنية ثكنات الدرك الايطالي، حتى الحديثة منها، تخطىء بثقتها المغالية في تأمين استقرار النظام وفي رضوخ الشعب الى الأبد. فهي مجرد منازل، خالية من اي فن معماري دفاعي خاص. ليس لها اي طابع عسكري، فمهاجمة الثكنة لا تختلف عن الهجوم على بيت. ولكن حتى الهجوم على بيت ليس عملاً سهلاً عندما يكون ساكنوه على علم مسبق، وتكون لديهم النية في الدفاع عنه بالسلاح.

يجب ان يعرف القادة المحليون كيفية التوضع الداخلي والخدمة اليقظة التي تمارس فيه، نهاراً وليلاً. والذين يهاجمونه يجب ان يتأكدوا من انهم ليسوا أمام المجهول. بهذه الطريقة وحدها، يمكن للهجوم ان يتمتع بكل حظوظ النجاح، أوقع ذلك في النهار أم في الليل.

يجب ان تدوم العملية بضع دقائق. إذا طالت، أو إذا كان بحوزة الثوار قليل من القوى، فيمكن اعتبار العمل المحلي عملاً متورطاً. لذلك يجب دراسة العملية في كل تفاصيلها والقيام بها دفعة واحدة.

وإن لم ينجح الهجوم بالمباغتة، فيجب ان يستخدم الثوار كل الوسائل التي بحوزتهم ـ بما فيها المتفجرات ـ للاستيلاء على الثكنة. وتصبح الانتفاضة غير مجدية اذا لم تعزل قوة الدرك خارج المعركة.

في حال نزع سلاح قوة الدرك، يتم احتلال موقع الشرطة فوراً، حتى قبل ان يتسنى لهذه الشرطة وقت للوصول. غير انه من المحتمل جداً ان لا تهرع قوى الشرطة أبداً، لأن الشرطة لا يمكن ان يكون لها اية قيمة إلا في كتائب ذات تشكيل دائم، أي في المدينة وفي المراكز الريفية الكبرى.

وبواسطة أسلحة وذخائر الدرك والشرطة يستطيع الثوار إذ ذاك التسلح بشكل ملائم وتشكيل وحدات أخرى بين الفلاحين الأصغر عمراً. وفي هذا الوقت يؤسر القادة السياسيون وحكام المدن والفاشيون الأهم. ويجب استبعاد المقاومات الجدية بعد النجاح الأول، ولن يكون على الخصوم إلا الرضوخ للأمر الواقع. عندها يتم احتلال مكتب البريد والهاتف ويُعاد وصل الأسلاك المقطوعة. وأخيراً يتم احتلال مقر المديرية وتنتقل إدارتها الى أيدي رجال يُختارون من بين المتمردين. ولا بد من بعض الرهائن بغية قطع الطريق على اعمال التخريب.

واذا انتصرت الانتفاضة في المنطقة، فيجب ان يتصل الفلاحون المنظمون في مفارز من الحراس الحمر مع أكبر القادة وينتظروا الأوامر للمشاركة في التطور العام للعمل.

وحتى لو لم تترسخ الانتفاضة في المنطقة بكاملها واذا بدا ان حظوظها لا تزال متأرجحة، فبإمكان المديرية، حيث انتصرت الانتفاضة، ان تساهم بفعالية كي تترسخ الانتفاضة في المنطقة. وعندها يترآى، بالعكس، ميدان عمل جديد بالكامل. واذا جابت مفارز الجيش الفاشي المنطقة، فثمة إمكانية لتكبيدها خسائر وايقاعها في مفاجآت باهظة الثمن. إن أهمية هذه الأعمال الفدائية التي بإمكانها ان تكون مثمرة للغاية، تتعلق بقيمة المديرية العددية وموقعها الجغرافي: جبل او هضبة او سهل.

حتى أن مديرية ذات أهمية صغيرة بوسعها حشد مفرزة متحركة قادرة على اعاقة جدية لسير ومناورة أرتال معادية بكاملها. والجيش النظامي لا يستطيع شيئاً ضد هجماتها.

واذا كانت المنطقة غنية بالخيل، فقد تكون المفرزة ايضا من الخيالة. إن مفرزة من الخيالة قادرة على قطع مسافات كبيرة في منطقة يجوبها الجيش الفاشي، والوصول الى رتل مشاة او مدفعية ومهاجمة قسم منه في نقطة معينة.

وإذا كان لمفرزة مشابهة قائد مقدام، فبإمكانه تحقيق نتائج مذهلة. في روسيا،

أعطبت مفارز من هذا النوع الجيوش البيضاء دون مهادنة. وساهمت الى حد كبير في هزيمتها. ولكن لا بد ان يكون القائد رجل حرب قديراً. إن لم يكن القائد يتمتع بالمواهب اللازمة، فمن الأنفع للانتفاضة ان تبقى الخيل في المرعى وان ينصرف الرجال الى لعب الورق.

ينبغي ان تسير المفرزة ليلا دون احتياطات امنية، وعلى رأسها القائد وفي آخرها نائب القائد، وان تكون دائمة الاستعداد للعمل. فالمسيرات يجب إن تجري ليلاً بشكل خاص: فالمعرفة الشاملة بالأرض تفسح المجال لذلك. وخلال النهار، يتم الاختباء في الأحراج او في مزرعة كبيرة، بشكل مجمع دائماً، مع بعض الكشافة على الأشجار او على السطوح. واذا كان لا بد من السير في النهار، فيجب اعتماد بعض رجال الدورية في المقدمة، وفي المؤخرة، وعلى الأجنحة. وفي الاستراحات، تبقى الخيول مسرجة باستمرار، وأصحابها الى جانبها على أهبة الاستعداد. ولا يجب النوم مطلقاً في القرى بل في المزارع أو في المخيمات فقط. ويجب عدم التوقف بالقرب من الطرقات الكبيرة المسلوكة إلا من أجل نصب فخ، وليس قطعاً لمدة تزيد عن بضع ساعات في المكان ذاته. فالتحرك يجب أن يجعل الوحدة بعيدة المنال بالنسبة للعدو، وإذا كُشفت، فيجب ان تتخلص من ملاحقة محتملة بتبديل اتجاه سيرها بسرعة. ثمة مئة مناسبة اخرى قد تظهر، والقائد هو الذي يجب ان يتمكن من استغلالها كلها لصالحه الشخصي. ويجب أن لا تخوض المفرزة معركة لا في الليل ولا في النهار، حتى ولا في الظروف التي قد تبدو الأكثر ملاءمة. فإن واجبها ليس القتال بل العمل مباغتة والانقضاض فجأة على العدو، والبلبلة وبث الذعر. لذلك يجب أن تكون خفيفة قدر المستطاع، دون رشاشات ودون حمولات. وهذه بعض من إمكاناتها: قطع جسر، أو طريق، او سكة حديدية، او خط هاتفي أو برقي؛ اعتراض مراسل وإلقاء القبض على دوريات؛ مباغتة رتل مدفعية او حمولة من المشاة؛ مهاجمة رتل مشاة أثناء المسير. مثل هذه المباغتات والهجمات تجري، على الأفضل، خلال استراحات الأرتال المعادية، او عندما تكون هذه الأرتال تقطع جسراً أو حرجاً او مضيقاً، في طلعة صعبة او في تعرجات الطريق.

وقد تجري المفرزة مباغتات في قرى لا تزال بين أيدي الفاشيين، وذلك بالقبض على رهائن منها، وفرض ضرائب على الأغنياء الكبار، ومصادرة عتاد أو مؤن. وعليها أن لا تدمر أية مقتنيات نفيسة، او تنفذ أية أعمال نهب، وسوف تدفع بكل انتظام، وبالمال نقداً،

كل الضرائب التي تفرض، عند اللزوم، على السكان.

لقد تمكن النقيب دي كولومب (De Colomb) بمساعدة كوكبة مؤلفة من ٩٢ خيالا (٧٢ جنديا متطوعاً و١٠ خيالة مجربين، و٢ ملازم أول، وملازم) في موقعة عام ١٨١٣، من العمل خلال أربعة اسابيع جنوب الآلب، وسط الجيش الفرنسي. وقد نفذت أعماله الجريئة والناجحة دائماً، بدون خسائر.

وبمفارز أكبر، يمكن الحصول على حملات أبعد ونتائج أهم. ولكن عندها، يجب ان تكون الانتفاضة قد وصلت الى مرحلة من النجاحات المتواصلة وان يكون تحت تصرفها قواعد منظمة.

أعمال كهذه لا يمكن إنجازها إلا على ارض، يعتمد الثوار فيها على معاضدة سكان الريف، أو على ترحيبهم. لذلك لن تكون معقولة إلا في فترة ثورية مناسبة. دو كولومب نفسه، الذي عمل على أرض وطنه في ١٨١٣، لم يحقق شيئاً في الأراضي الفرنسية في معركة عام ١٨١٤. إن مجموعات المتطوعين عاجزة ومصيرها التدمير الفوري وسط عداء البلاد. فحرب العصابات التي كانت آمال مزّيني (Mazzini) تتجه نحوها وبدون جدوى، ليست مسموحة إلا في ساعة غليان عام وعصيان شعبي.

وما قيل في مفارز الخيالة صحيح بالنسبة لمفارز المشاة. ولكن هذه الأخيرة يجب ان تكون أقل عدداً. فمن أجل أعمال انصار كهذه، فالفصيلة ثقيلة جداً. فهي لا تستطيع ان تفلت من المطاردة وهي مجبرة على التحرك ببطء ويجب ان تقبل بالمعركة كي لا تفسح المجال لتدميرها في فرار غير منظم. والقتال هو الفناء الأكيد. وحدها الجماعة المؤلفة من ١٠ رجال على الأكثر بوسعها ان تتحرك، دون ان يراها أحد، بسرعة وخارج الطرق، في شعاب البغال والدروب. وبإمكانها تطوير عمل فعال، لا سيما في الجبل، ولكن في السهل أيضاً اذا كان السهل مغطى بالمزروعات. فبعد سقوط ميتز، ضايقت مجموعات المتطوعين الصغيرة الفرنسية من منطقة أورليان، الجيش البروسي الثاني للأمير فريدريك شارل كثيراً. هذه المجموعات المكونة من فلاحين ومن رجال في الحرس الوطني كانت تقنص دوريات، وتدمر جسوراً، وتهاجم أرتالاً معادية بكاملها وبهجمات مفاجئة. ثم كانت تختفي وتخبىء أسلحتها وتستأنف العمل في الحقول. وقد أبدت مجموعات المتطوعين في الفوج (Vosges) ومنطقة السين، هي أيضاً، عملاً فعالاً ولو بدرجة أقل. كانت معركة الثوار الملكيين مكونة أصلاً من حملات من هذا النوع.

إن مفارز تعمل في ظروف بهذه الروح المغامرة قد تتعرض للخطر، حتى ولو كانت جيدة القيادة، بأن تباغت من وقت لآخر، وأن تدمر أو تبعثر على الأقل. ويصبح من المفيد إذن ان يعينّ القائد كل يوم نقطة تجمع لليوم المقبل بغية استباق تشتت محتمل.

وقد تتفق مفارز من مديرية ما مع مفارز من مديرية أخرى وتعملان معاً. إن مثل هذه الحالة من العمل الانصاري الانقضاضي لا يمكنه ان يدوم طويلاً. وإذا لم تنتصر الانتفاضة العامة، فحرب الأنصار لا يمكنها الصمود. وإلا فقد توصم باللصوصية، او قد تُسحق سريعاً. واذا ترسخت الانتفاضة فان الفدائيين يختفون وينخرطون في جيش الثورة.

يجب ان لا ننتظر من جانب سكان الريف مناورات استثنائية لجماهير مسلحة. فالأعداد الكبييرة لا فائدة منها بدون تنظيم قوي مع ضرورة وجود قادة قادرين يعطون للمفارز التكوين العسكري الضروري. ليس بالمذاري ولا بالمناجل تستطيع جماهير الفلاحين اليوم القتال ضد القوات النظامية. إن الفلاحين البلغاريين انفسهم الذين كانوا يتمتعون بتنظيم يسيطر فيه المحاربون القدامى، كانوا عاجزين بجماهيرهم غير المنسقة عن مقاومة الجيش الذي كان مع ذلك اقل عددا منهم بكثير. وقد فاجأهم انقلاب زانكولف (Zankolf) في حزيران ١٩٢٣ قبل ان يصبحوا جاهزين. وفي أيلول كانوا قد سُحقوا في كل مكان رغم اتخاذهم، في حينه، مبادرة الهجوم. فاضطر هذا العديد ان يستسلم لتقنية جيش مرتزق ألِف الحروب. وفي القرن الماضي حرض اندريا هوفر (A. Hofer) التيرول على العصيان، وكان امبراطور النمسا قد اضطر، بعد اوسترليتز، ان يتنازل عنها لبافاريا. وتسلح الفلاحون في الوادي الممتد من انسبروك (Insbruck) الى بولزانو (Bolzano) بكامله بمواجهة الفرنسيين والبافاريين. غير ان النجاح لم يدم طويلاً. فسحقهم نابليون ببعض الأفواج.

إذا انتفضت مديرية ريفية كبيرة تصبح، كمدينة، مركز التنظيم العسكري للمنطقة. وعندها يصبح الموضوع حرباً وليس حرب أنصار (عصابات) ولكن طاقتها على العمل تصبح مرتبطة بالأسلحة والذخائر التي قد تجدها في المكان، وبالقادة الذين يتقنون تجنيد الجماهير.

الفصل السادس والعشرون

استثمار النصر

نحن في غمار الانتفاضة. لقد صغنا نظريات وانتقادات ونحن نريد رؤية الانتفاضة تنتصر، وليس بغية الشيء المعاكس. حتى اننا لا نأخذ بعين الاعتبار احتمال الهزيمة. لو كان الوضع كذلك لما كان ثمة حاجة كبيرة الى التنظير أو الكتابة او قراءة الأبحاث. وقد لا يبقى على الأكثر سوى النصح بتأملات تنسكية حول الموت الهادىء، وهو العزاء الوحيد الباقي للخاسرين.

الانتفاضة، إذن، ترسخت محلياً. فقد تمكن الثوار من هزيمة كل القوات المسلحة للنظام الفاشي في إحدى المدن. وفي المنطقة، ثمة مراكز ريفية ايضا في أيدي الثوار. فمن الضرورة الملحة ان تحتك الحركتان وتجتمعا وتكوّنا قيادة موحدة. ولا يمكن ان يحصل تطوير في العمل إلا بقيادة موحدة. والوضع لن يختلف إذا ترسخ نجاح الانتفاضة في الريف وإذا انتفضت المدينة فيما بعد، كما في انتفاضة الأستوري. لا يمكن السماح بقيادتين متميزتين واحدة للفلاحين وواحدة للمدنيين؛ وجبهتين، واحدة للمدينة وأخرى للريف. فالجبهة واحدة حتى ولو كانت القطاعات مختلفة؛ والقيادة واحدة. وسنجد أنفسنا تجاه متطلبات ذات طابع عسكري، خاصة، حيث لا يسمح بتبديد الرجال والوسائل والوقت. قد نكون دعاة تسيير ذاتي او فيدراليين، غير ان الجميع عليهم الانصياع لسلطة القيادة العسكرية، ومساندتها دون تردد، ودون اية تحفظات محلية او عقائدية.

إن قيادة ومتابعة العمل الإنتفاضي نفسه ليستا ممكنتين إذا لم نكن نملك قاعدة عمليات مضمونة، أي قيادة عامة ونقطة مساندة للثوار. ولكي يكون بالإمكان تشكيل مثل هذه القاعدة بشكل راسخ، لا بد من تخليص المنطقة من وحدات الجيش الفاشي التي لا تزال موجودة فيه. وإذا لم ندمر كل القوات المسلحة للنظام، نظامية وغير نظامية، فمن غير المجدي الكلام عن قيادة عامة او عن نقطة مساندة. فإذا بقيت حامية الجيش (قوات الموقع) وكل قوات الشرطة متمترسة في الثكنات او في نقاط اخرى كما حصل في اوفيادو، فلن تكون الانتفاضة قادرة على إحراز تقدم. ولن يستطيع ثوار مدينة ما اعلان سيطرتهم على هذه المدينة إن لم تُدمَّر الحامية. واذا انكفأ الجيش نحو نقطة ثانية، كما حصل للجيش الالماني في الرّور بعد سقوط دورتموند وتنظيف ايسن، فلن تقدم المنطقة اية قاعدة اكيدة حتى يسيطر الثوار على هذه النقطة وتجبر المدافعين على الاستسلام.

ليست الحامية وحدها ـ جيشاً وميليشيا وشرطة ـ هي التي يجب إخضاعها بل القوى الفاشية أيضاً. فإن أهميتها ليست قابلة للاهمال قطعاً. ففي الهجوم المضاد الذي شنه اليونكر، بعد سقوط الحكومة المؤقتة، شاركت فيه ايضا الصفوة الخالصة لشباب الرجعية في ٢٩ تشرين الأول. تجاه هؤلاء وأولئك، أراد البلشفيون الذين أثار حماسهم النجاح السهل الذي أحرزوه في الأيام السابقة، ان يظهروا كرم أخلاق. وسوف يكون التاريخ قاسياً في حكمه على مبالغة البلشفيين في اعمال القمع التي انصرفوا اليها، غير أنه من المؤكد انه قبل ان ترفع الثورة المضادة رأسها، فكروا بترسيخ حكمهم، دون اراقة دماء وحتى دون اضطهادات. فالفاشيون تم تجريدهم جميعاً من السلاح. فإنه يجب جعل كل عودة الى الهجوم مستحيلة على المدى القريب والبعيد. ورغم انه، لدى اخضاع الجيش والشرطة والميليشيا، تتحطم روح المقاومة تماماً عند الذين كانوا يساندون النظام، فلا بد، مع ذلك، من السيطرة على الذين قد يستطيعون الاساءة بفعل سلطتهم السياسية أو الشخصية. وفي حدود بضع ساعات يجب، علاوة على ذلك، سحب كل الأسلحة وإحلال نظام عسكري من الأحكام العرفية، شبيه بالذي تفرضه الجيوش على العدو في الأراضي المحتلة..

ليست مفارز الميليشيا والشرطة التي تقع في أيدي الثوار وحدها هي التي يجب ان يُحتفظ بها موقتاً كأسرى، وتحرّر عند الامكان، بل حتى مفارز الجيش ستخضع للمعاملة ذاتها. لا يجب ان تبقى هناك مفرزة تابعة للتنظيم المسلح للدولة الفاشية. فالعناصر

الموالية لقضية الثورة، والرغبة في القتال الى جانب الثوّار، يُدمجون بين هؤلاء عندما لا توجد أسباب للحذر. وفي ظروف كهذه، لا يمكن لمساهمتهم إلا ان تكون مفيدة.

يجب ان تُنظَّم المنطقة المتمردة فوراً لتطوير الانتفاضة. وعندما تختفي جميع سلطات النظام، تحل محلها السلطات الثورية السياسية والادارية. ولكن يجب ان تكون كلها مرتبطة بسلطات ومتطلبات اللجنة العسكرية التي تقود الانتفاضة. في هذه المرحلة من الانتفاضة، يجب ان لا نميز ابدا بين سلطة عسكرية وسلطة سياسية. وتعود القيادة فقط الى السلطة العسكرية التي يجب على السلطات السياسية الجديدة ان تعمل معها. ان نجاح العمل مرتبط بتوثيق وذكاء هذا التنسيق.

في هذا الوقت بالذات، نرى الدليل على ان انتفاضة ما، بحاجة كي تترسخ، ليس فقط الى طليعة عسكرية، بل الى طليعة سياسية ايضا، وكيف ان هذه الطليعة السياسية لن تدوم طويلاً ان لم يكن القسم الأكبر من الرأي العام موالياً لها.

تنتقل البلديات والمصارف ومراكز البرق والهاتف ومحطات السكك الحديدية وكل المؤسسات العامة الأخرى الى أيدي الثوار. ويجب ان يكون كل شيء بقيادتهم وبمراقبتهم. فثمة نظام جديد يولد بكامله دفعة واحدة، وثمة أقلية محدودة ليس لها امتداد سياسي في البلاد، قد تُجبَر، بعد النجاح الأول، على تسليم اعدائها انفسهم مقاليد القيادةالجديدة. فالبروليتاريا قد تكون عاجزة ان لم يعتنق القضية مثقفون وتقنيون وعناصر متعددة من البورجوازية الصغيرة المنتشرون في المهن الحرة والوظائف في الادارات العامة والخاصة.

إن التنظيم الأول الذي يفرض نفسه هو التنظيم العسكري أيضاً. والجماهير هي خزان التجنيد الطوعي الجديد. ويبدأ الحراس الحمر، الطليعة الصغيرة، بالتحول الى جيش ثوري حقيقي. فلم يعد ثمة حراس حمر بل جيش أحمر. ولم يعد الحراس الحمر مجرد تنظيم للمشاة بل نواة جيش نظامي بما فيه المشاة والمدفعية والخيالة والهندسة وكافة الخدمات الضرورية. وتتشكل المفارز وتتسلح وتذهب الى الجبهة حيث يفرز الثوار انتصارهم، او يقاتلون لاستثماره. وهناك تتجند الوحدات الجديدة بشكل أفضل وتتدرب وتحتك بالمقاتلين الأوائل. ان تنظيمات المتطوعين في انتفاضة الرور هرعوا الى جبهة ايسن، ونحو جبهة اوفيادو وكمبومانس في انتفاضة الأستوري. الكل في حركة.. فنحن في غمار مسرح العمليات.

في المدينة، القاعدة مؤمّنة. ثمة شرطة محلية مرتجلة تؤمن النظام بوجه طبقة اللصوص التي تريد هي ايضا اجراء ثورتها انطلاقا من السرقات والنهب والتخريب. وهذه ايضا مشكلة ليست هي أسهل المشاكل. فيجب ان تطبق الاحكام العرفية بكل صرامتها.

وينشأ تحت اشراف اللجنة العسكرية القائدة، لجان للتموين وللنقل وللأعتدة الحربية وللذخائر وللصحة وللاعانات المالية لعائلات المتطوعين المعوزة الخ. الخ..

هذه هي المرحلة الأولى من الانتفاضة المنتصرة.

وتبدأ الثانية.

وتزداد الصعوبات عندماترسّخ الانتفاضة في العاصمة أيضاً، حيث يصبح الانتصار النهائي قريباً جداً. ان نظاماً فاشياً مركزياً وكلّياً (توتاليا) لا يصمد في وجه هزيمة مادية ومعنوية مشابهة. ففي الضاحية، تنقص التوجيهات وتقل الثقة بشكل خاص. اما المقاطعات فلا تصمد كثيراً. ولكن اذا لم تنتفض العاصمة، فإن الحرب الأهلية سوف تعرف حقباً من الاضطرابات العنيفة. وستبقى الحكومة المركزية قادرة على ممارسة تأثير على كل العناصر الأكثر نشاطاً في النظام، وليس فقط على بعض التجمعات العسكرية الكبيرة. وكما تجمّع ضباط ونبلاء وملاكون مع اتباعهم حول الجيوش البيضاء لجودينيك (Judenicvk) وكولتشياك (Koltchiak) ودينيكين (Denikine) ودي فرانجيل (de Vrangel)، فإنه سوف تجتمع كل الرجعية حول بعض الفرق العسكرية التي لا تزال موالية للحكومة، ولا يجب الاعتقاد بأن الرجعية ستلقي السلاح وتتخلى عن كل مقاومة لدى أول نجاح للانتفاضة، فالبورجوازية تستسلم فقط إذا رأت قواتها المسلحة تتشتت. ولكنها اذا وجدت امكانية للقتال فسوف تقاتل. ولو انتصرت الانتفاضة الاسبانية سنة ١٩٣٤ في الأستوري وكتالونيا، فمن المؤكد ان حكومة مدريد كانت ستمارس، ربما، سلطتها على بعض تجمعات القوات الموالية، ولربما استجابت الرجعية الى ندائها وقدمت الوسائل والرجال للمقاومة الأخيرة. وإذا كان ثمة آمال في النجاح، فان الامتيازات والقيادة لا يتم التخلي عنها دون قتال.

في وضع مشابه، يجب على جيش الثوار ان يزيد، دون انقطاع، من تشكيلاته القتالية ويستثمر كل نجاح وينشره ويحمس الرأي العام ويقود البلاد. ويجب ان تكون العمليات سلسلة من الهجمات، إذ ان احتلال اية منطقة جديدة يمثل ضم دفعة بشرية

جديدة. وبعد ان يسيطر الجيش الأحمر على منطقة ما، يجبل ان يحاول الوصول الى جيش المناطق المتمردة الأخرى. ويجب ان يبلغ الزخم العسكري حده الأقصى. ويجب اعطاء تعويض للمقاتلين. أما الأكثر شجاعة والذين تمكنوا من التميز بشكل خاص فيجب مكافأتهم فوراً ولفت انتباه التقدير الشعبي اليهم. وثمة وسائل ضرورية لحث الأكثر شهامة في مباراة حربية وثورية نبيلة، منها ترقيات للقادة الكبار، ومكافآت نقدية للذين لديهم عائلات حاجتها ماسة، وأوسمة شرف. وكلنا يجب ان يعلم أن أبناء الثوار، الذين سقطوا، وعائلاتهم سيكونون أبناء وعائلات شرف للثورة ستقدم لهم البلاد مساندتها.

وعندما يلتقي جيشان من الثوار أو أكثر، وتكون عدة مناطق تحت سلطتهم، سيصبح لدى القيادة العسكرية، في النهاية، إمكانية وأمن في إجراء المناورات الاستراتيجية. ويصبح للجبهة العسكرية خط محدد بعد ان كانت غير مؤكدة وغير محددة. تلك هي الحرب التقليدية بكل قوانينها الاستراتيجية والتكتيكية تأخذ مجراها. عندها تبدأ المرحلة الثانية من الانتفاضة المنتصرة.

وتنتهي المرحلة الأخيرة بالانتصار النهائي. وهذا الانتصار لن يصبح نهائياً إلا بعد إبادة جميع القوى العسكرية والسياسية للنظام؛ وما لم يتحقق هذا الهدف، فلن يكون بإمكاننا اعتبارها منتصرة.

يجب تدمير جيش النظام الفاشي. يجب ان لا يبقى منه اي اثر. فالجيش الجديد هو الجيش الاحمر: فهو سيكون قاعدة الجيش في النظام الجديد. وستنبع منه الكوادر والتشكيلات الجديدة لجيش الثورة النظامي، بشكل رئيسي. وهو الذي سيستوعب ضباط وصف ضباط النظام القديم الذين يكونون قد انضموا صراحة الى الثورة.

تحت غطاء الجيش الأحمر، تنتهي الدورة العسكرية وتبدأ الدورة السياسية. فالانتفاضة انتهت والثورة تستمر. وتتنازل السلطة العسكرية عن القيادة للسلطة السياسية التي سوف يدعمها الجيش في إعادة البناء الوطني.

يبقى الآن تهديم الدولة الفاشية. وعلى انقاضها تُبنى الدولة الاشتراكية.

يجب ان يهدم كل أثر للمقاومة العدوة، وكل ملجأ لهذه المقاومة. ويجب ان لا يبقى للرجعية امكانيات الهجوم المضاد. وكل ضعف في قمعها قد يشكل خطأ مميتاً. كتب كلاوزيفتش: «لن تفعل كل الأعذار الانسانية، التي قد تعترضكم، سوى تعريضكم

للهزيمة على يد عدو دونكم عاطفة ورحمة». فقد علمنا هتلر وموسوليني شيئاً، وقدم المستشار دولفوس رغم أنه كان رجلاً ضئيل الحجم، للاشتراكية الديموقراطية النمساوية وللعالم برهاناً ساطعاً للغاية على هذه الحقيقة بالذات.

غير أن المقتنعين بأن تدمير الفاشية يجب ان يعني إعدام كل الفاشيين،قد يصيبون لو أجروا عملية حسابية. قد تكون الثورة حدثاً ديموغرافياً ذا نفع قابل للمناقشة لو كان عليها ان تعني مجزرة عامة. إن تدمير جيش ما لا يعني التصفية الجسدية لكل عسكرييه الذين يتشكل منهم. بل يعني التغلب عليه وإجباره على اعلان هزيمته. فالهزيمة هي دوماً فعل معنوي أكثر مما هو جسدي. فهزيمة العدو هي إحباط عزيمته. فإذا كان القضاء على الفاشية في ايطاليا يعني القضاء على كل الذين كانوا فاشيين، فلا بد من القضاء على ثُمْن عدد سكان ايطاليا: اي ما يقارب الخمسة ملايين مواطن. إذ ان هذا القدر من الناس، هم بين المسجلين في الحزب والنقابات والمنظمات المتفرعة، طوعاً أم كرهاً، صغاراً وكباراً، يعملون لصالح النظام. ان طلب القضاء على خمسة ملايين من الأحياء قد يكون مغالياً حتى بالنسبة لحزب من الجزارين المحترفين. فالكراهية التي لا تنطفىء والتي يتحدث عنها مكسيم غوركي كزاد ضروري لكل بروليتاري ثوري هي شيء قابل للمناقشة كثيراً. حتى اثناء الحرب، ثمة جنرالات ذوو نزعات أدبية غريبة حرضوا جنودهم على الحقد وعلى عدم التخلي عن السكين واستعمالها لدى أول إشارة، هؤلاء الجنرالات لم يحققوا نجاحاً ملحوظاً. ولو كانت الكراهية طاقة محركة لا تقاوَم لكان الأبطال الصبورون في ايطاليا، الذين شربوا برباطة جأش زيت الخروع ويحتفظون منه ببقايا تعيسة في الزجاجة، ملتمسين بشكل محموم الانتقام في كل يوم، لكانوا أبادوا النظام منذ زمن طويل.

ومن المؤكد بأنه، في النضال الثوري الذي تضطر البورليتاريا لخوضه بغية إيصال الشعب الى تحرره من أبشع طغاته، ليست الحرية وسيلة بل هدف.

لكل انتفاضة-ولكل ثورة شكلها. ليس ثمة ثورات ولا انتفاضات متشابهة. وكل بلد يعبّر عنها على طريقته، بطبعه ووسائله ونفسه. فالعالم الذي يلقي نظرة على الماضي، حتى بالنسبة لبلده، بوسعه فقط ان يرسم مخططاً للمستقبل، غير ان تاريخ البشرية لا يخضع للتوقعات العلمية.

فهـــرس

نظرية الانتفاضة

يعالج هذا الكتاب موضوع الانتفاضة مقارناً بينها وبين الحرب، ضارباً على ذلك الأمثال المستخلصة من التاريخ قديمه وحديثه. وهو مقسم الى ستة وعشرين فصلاً مسبوقة بمقدمتين توضيحيتين، يتناول الفصل الأول معنى الانتفاضة وتاريخها وأقوال المؤلفين والمؤرخين فيها والنظريات المختلفة حول أنواع الانتفاضة، وهل تكون سلمية سياسية أم جماهيرية غوغائية، أم ثورية عامة؟

ويفرد الكتاب ثلاثة فصول هي الفصل السابع والثامن والتاسع لموضوع الجماهير وموقعها من كل انتفاضة؛ شارحاً كذلك الدور الذي يجب ان تضطلع به القوات النظامية من جيش وشرطة وأمن إبان الانتفاضة وبعدها.

كما لم يغب عن بال المؤلف معالجة الشؤون النفسية فأفرد لها أبواباً يشرح فيها مختلف تصرفات الجماهير، معدداً الأسباب والمسببات، مبيناً الفوارق بين نفسية شعب وشعب وبين زعيم وزعيم، ومدى نجاح هذا الزعيم وإخفاق ذاك، مستشهداً على ذلك كله بأمثلة من التاريخ ما زالت تتفاعل حتى يومنا هذا.

المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون - ساقية الجنزير - ت ١/ ٨٠٧٩٠٠
برقياً - موكيالي بيروت - ص.ب: ٥٤٦٠/ ١١ بيروت

الثمن ٢٢ ل.ل